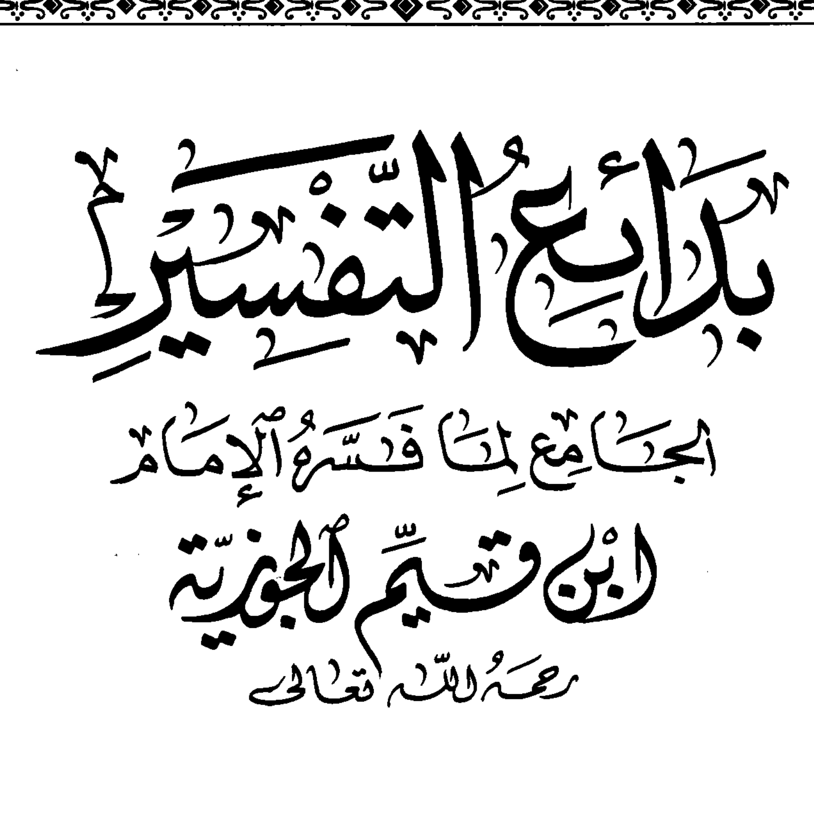


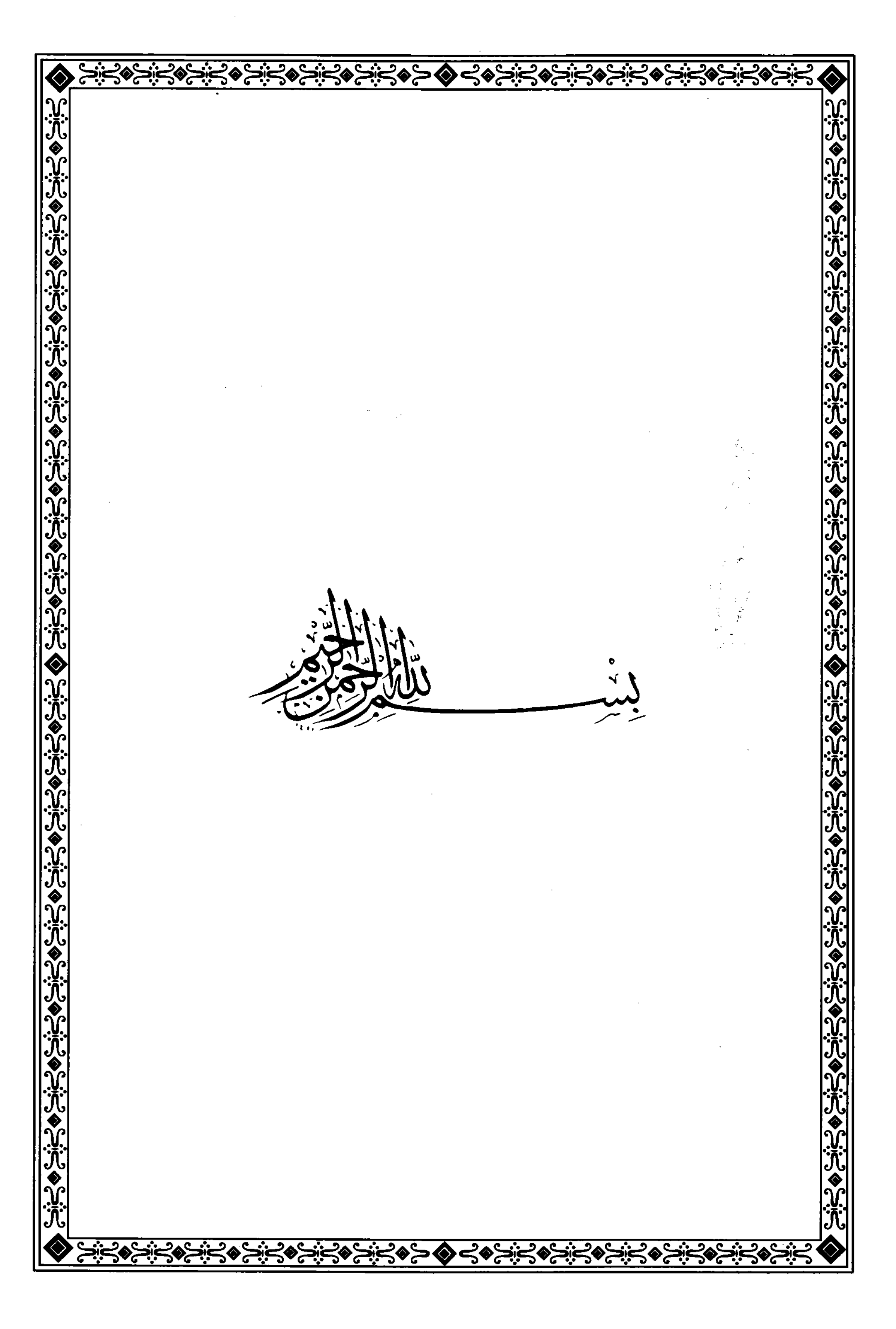
جَمَعَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
يُسْرِي السَّيِّد مُحَمَّد

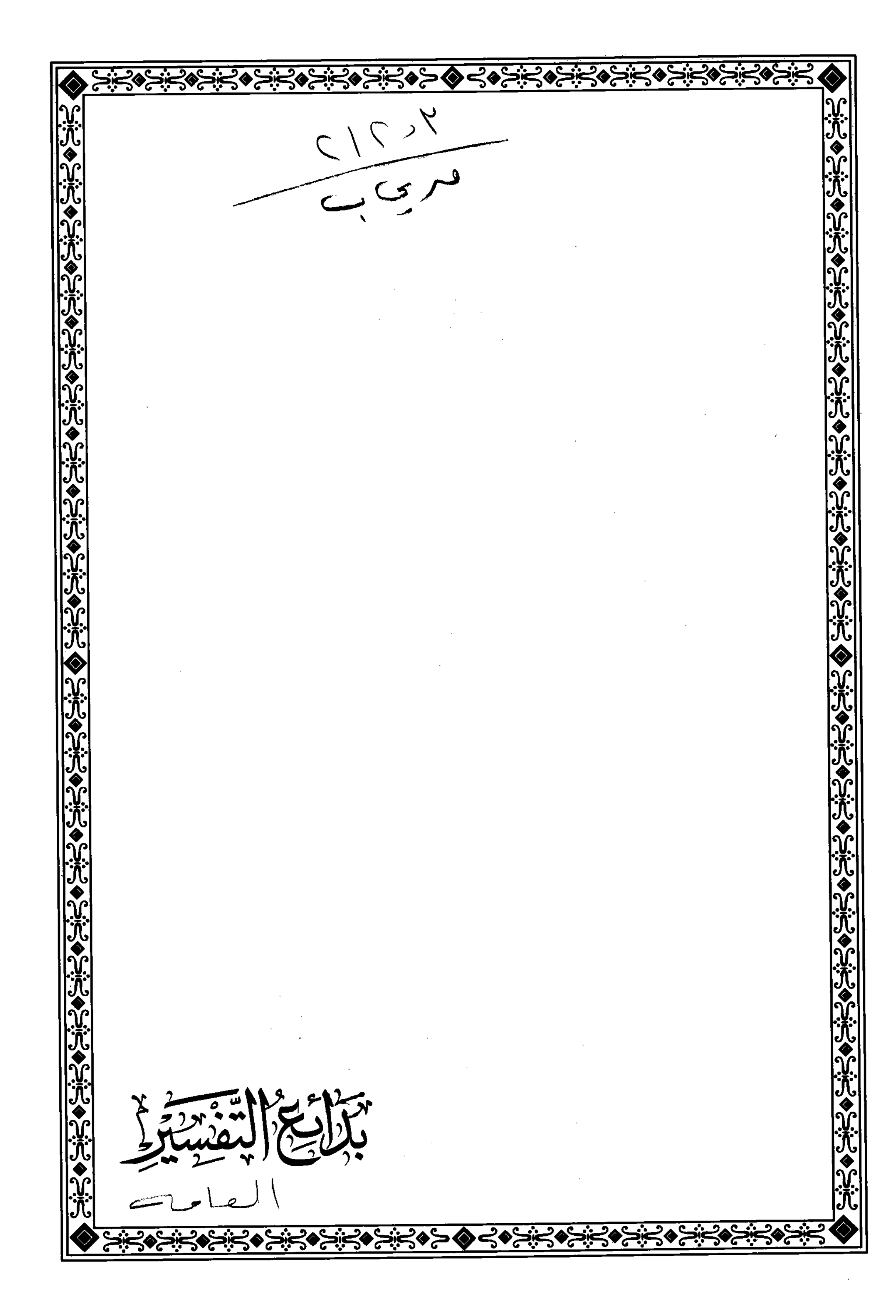
رَاجَعَهُ وَنَسَّقَ مَادَّتَهُ وَرَتَّبَهَا
صَالِح أَحْمَد الشَّامِي

طَبْعَة جَدِيدَة مُنَقَّحَة

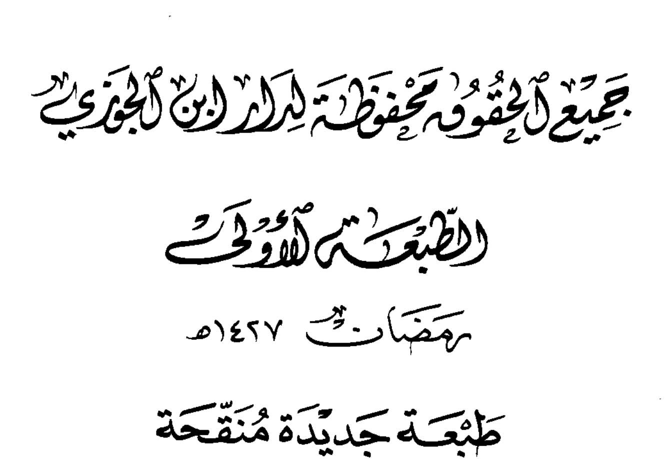
المُجَلَّد الثَّانِي

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



بدائع التفسير





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

سُورَةُ التَّوبَةِ

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

فأمرهم بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب ودواؤه في شفاء غيظه فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أخر أصعب من مرض العشق[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

أي: وليجة[٢] ممن اتخذ رجلاً بعينه، عياراً على كلام الله ورسوله وكلام سائر علماء الأمة، يزن القرآن والسنة وكلام سائر العلماء على قوله، فما خالفه رده، وما وافقه قبله[٣].

ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام رسوله وكلام سائر الأمة يقدمه على ذلك كله، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله، فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله، وما خالفه منها تلطف في رده وتطلب له وجوه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة[٤]؟.

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩).

(٢) «وليجة» من الولائج: بطانة. أساس البلاغة، ص(٥٠٨)، وقال الأصفهاني في المفردات: «... كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله...»، ص(٥٣٢).

(٣) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٢٥). (٤) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩ ـ ٢٠].

فأخبر ﷻ أنه لا يستوي عنده عُمّار المسجد الحرام ـ وهم عمّاره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن ـ وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعُمّار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عُمّاره بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

فهؤلاء هم عُمّار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأما تقديمهم [أي: الآباء والأبناء] على الأموال فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولاً بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر

---

(١) طريق الهجرتين (٣٣٢، ٣٣٣).

والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم. ثم ذكر الفروع وهم الأبناء؛ لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب.

فذكر الأصول أولاً، ثم الفروع ثانياً، ثم النظراء ثالثاً، ثم الأزواج رابعاً، لأن الزوجة أجنبية عنده ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامساً، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالباً، وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير.

ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادساً، ووصفها بكونها مقترفة، أي: مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل، وله أحب، وبقدره أعرف؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفواً بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثاني، والحس شاهد بهذا وحسبك به.

ثم ذكر التجارة سابعاً، لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلا أنها مخوفة الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامناً، آخر المراتب لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه، ويكون خيراً منه فمنها عوض. وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منها بغيرها، فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبة الوطن آخر المراتب.

وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب، فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع[١].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٥، ٧٦).

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فالجزية هي: الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغاراً.

والمعنى: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم.

واختلف في اشتقاقها، فقال القاضي في «الأحكام السلطانية»[١]: اسمها مشتق من الجزاء، إما جزاءً على كفرهم لأخذها منهم صغاراً، أو جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقاً.

قال صاحب «المغني»: هي مشتقة من جزاه، بمعنى قضاه، لقوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، فتكون الجزية مثل الفدية. قال شيخنا[٢]: والأول أصح وهذا يرجع إلى أنها عقوبة أو أجرة.

وأما قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ فهو في موضع النصب على الحال، أي: يعطوها أذلاء مقهورين: هذا هو الصحيح في الآية[٣].

وقالت طائفة: المعنى: من يد إلى يد نقداً غير نسيئة.

وقالت فرقة: من يده إلى يد الآخذ لا باعثاً بها ولا موكلاً في دفعها.

وقالت طائفة: معناه: عن إنعام منكم عليهم بإقراركم لهم، وبالقبول منهم.

والصحيح القول الأول، وعليه الناس، وأبعد كل البعد ولم يصب مراد الله من قال: المعنى: عن يد منهم، أي: على قدرة على أدائها، فلا تؤخذ من عاجز عنها.

وهذا الحكم صحيح، وحمل الآية عليه باطل، ولم يفسر به أحد من الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأمة، وإنما هو من حذاقة بعض المتأخرين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حال أخرى.

فالأول: حال المسلمين في أخذ الجزية منهم أن يأخذوها بقهر وعن يد.

والثاني: حال الدافع لها أن يدفعها وهو صاغر ذليل.

واختلف الناس في تفسير «الصغار»[٤] الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية، فقال عكرمة: أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخذ جالساً. وقالت طائفة: أن يأتي

---

(١) «الأحكام السلطانية» للقاضي أبي يعلى، ص(١٥٣).

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. (٣) راجع: تفسير الطبري (١٠/١٠٩).

(٤) الطبري (١٠/١٠٩).

بها بنفسه ماشياً لا راكباً، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجر يده ويمتهن. وهذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ، ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك.

والصواب في الآية: أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية. فإن التزام ذلك هو الصغار، وقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل: كانوا يجرون في أيديهم، ويختمون في أعناقهم إذا لم يؤدوا الصغار الذي قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وهذا يدل على أن الذمي إذا بذل ما عليه، والتزم الصغار؛ لم يحتج إلى أن يجر بيده ويضرب.

وقد قال في رواية مهنا بن يحيى: يستحب أن يتعبوا في الجزية.

قال القاضي: ولم يرد تعذيبهم ولا تكليفهم فوق طاقتهم، وإنما أراد الاستخفاف بهم وإذلالهم.

قلت: لما كانت يد المعطي العليا، ويد الآخذ السفلى، احترز الأئمة أن يكون الأمر كذلك في الجزية، وأخذوها على وجه، تكون يد المعطي السفلى ويد الآخذ العليا.

قال القاضي أبو يعلى: وفي هذا دلالة على أن هؤلاء النصارى الذين يتولون أعمال السلطان، ويظهر منهم الظلم والاستعلاء على المسلمين، وأخذ الضرائب لا ذمة لهم وأن دماءهم مباحة؛ لأن الله تعالى وصفهم بإعطاء الجزية على وجه الصغار والذل. وهذا الذي استنبطه القاضي من أصح الاستنباط؛ فإن الله ﷻ مد القتال إلى غاية: وهي إعطاء الجزية مع الصغار، فإذا كانت حالة النصراني وغيره من أهل الجزية منافية للذل والصغار، فلا عصمة لدمه ولا ماله وليست له ذمة، ومن هنا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] تلك الشروط التي فيها صغارهم، وإذلالهم وأنهم متى خرجوا عن شيء منها فلا عهد لهم ولا ذمة، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل الشقاق والمعاندة»[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

---

(١) انظر: شرح كتاب «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢٢ ـ ٢٥).

ومعنى النسيء: تأخير رجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله مأخوذ من نسأت الشيء إذا أخرته. ومنه النسيئة في البيع.

وكان من جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم هذه الأشهر الحرم، فكانوا يتحرجون فيها عن القتال، وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضاً، إلى أن تنصرم هذه الأشهر، ويخرجوا إلى الحل، فكان أكثرهم يتمسكون بذلك، ولا يستحلون القتال فيها، وكان قبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل، ويقولون: نسأنا الشهر.

واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون في قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ، فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة يوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضعه الله[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب الرسول ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٥ ـ ٤٧].

والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله. قال ابن عباس[٣]: يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج.

وقال في رواية أخرى: حبسهم.

---

(١) تهذيب السنن (٢/ ٤٠٧).

(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧).

(٣) راجع: تفسير الطبري (١٠/ ١٤٤).

قال مقاتل: وأوحى إلى قلوبهم: اقعدوا مع القاعدين. وقد بيّن سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد.

ولما تركوا الإيمان به وبلقائه، وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله، ولم يستعدوا له، ولا أخذوا أهبة ذلك؛ كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه. فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفراً، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه فَثَبَّطَهُ لئلا يقع ما يكره من خروجه، وأوحى إلى قلبه قدراً وكوناً أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء، عنهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ﴾.

والخبال: الفساد والاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف. قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالاً: عجزاً وجبناً. يعني: يجبنونهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم، وتعظيمهم في صدورهم.

ثم قال: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ﴾، أي: أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد. قال ابن عباس: يريد أضعفوا شجاعتكم، يعني: بالتفريق بينهم، لتفرق الكلمة؛ فيجبنوا عن لقاء العدو. وقال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين. وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب. قال لبيد:

أرانا موضعين لحتم غيب　　　وسحر بالطعام وبالشراب

أي: مسرعين.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

يتألهن بالعرفان لما عرفنني　　　وقلن امرؤ باغ أكَلَّ وأوضعا

أي: أسرع حتى كلَّت مطيته.

قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم. وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم. ومعناه على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون؛ أفسدوهم عليكم.

قلت: تتضمن «سماعون» معنى مستجيبين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى: وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما

يسمعون منكم، أي: جواسيس. والقول هو الأول، كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قابلون له.

ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين، ينزلون معهم ويرحلون ويصلّون معهم، ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم، قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم. فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها، وأرصد بينهم عيوناً له. فالقول قول قتادة وابن إسحاق، والله أعلم(١).

□ □ □

قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، أي: قابلون مستجيبون لهم، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون، وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم، فلا يزال المنافقون في الأرض، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم؛ لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم. .(٢).

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعتهم له فكيف يكرهها؟ وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة، إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوباً له، فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤال له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعاً لرسوله ﷺ، ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم ورضيه لهم ديناً، وعلم سبحانه أن خروجهم ـ لو خرجوا ـ لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين. فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروهاً له من هذا الوجه، ومحبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه له، فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه، لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة، حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه، ولم يرضه منهم، وهذا الخروج المكروه له ضدان:

---

(١) شفاء العليل (١٠١ ـ ١٠٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٠٤، ١٤٠٥).

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب، وهذا الضد الذي يحبه.

والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه. وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً، وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، ولكن هاهنا أمران مكروهان له سبحانه، أحدهما أكره له من الآخر؛ لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه، فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى؛ فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين. فتأمل هذا الموضع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون؟

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراراً، وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله، وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك. ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته، فإن قلت: وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة؟

قلت: يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوباً له، فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم، وإظهار قدر أوليائه وشرفهم وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته وشدة أخذه وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ـ ولو تناهوا في العلم والمعرفة ـ إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر[1].

* * *

(١) شفاء العليل (١٠١ ـ ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

نزلت في الجد بن قيس(١) لما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تبوك قال له: «هل لك يا جد في بلاد بني الأصفر تتخذ منهم السراري والوصفاء»؟. فقال جد: ائذن لي في القعود عنك، فقد عرف قومي أني مغرم بالنساء وأني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال ابن زيد: يريد: لا تفتني بصباحة وجوههن.

وقال أبو العالية: لا تعرضني للفتنة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾. قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والرغبة بنفسه عنه أعظم». فالفتنة التي فر منها ـ بزعمه ـ هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

[هذا] مما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه.

قال السلف في هذه الآية(٣): أو بأيدينا، بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم. وهو كما قالوا: لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين لا يكون إلا بالقتل، فلو قبلت توبتهم بعد ما ظهرت زندقتهم؛ لم يمكن المؤمنون أن يتربصوا بالزنادقة أن يصيبهم الله بأيديهم؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك أظهروا الإسلام، فلم يصابوا بأيديهم قط. والأدلة على ذلك كثيرة جداً، وبالله التوفيق(٤).

* * *

---

(١) كان ذلك في غزوة «تبوك» في رجب سنة تسع. انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٥٥)، وتفسير الطبري (١٠/ ١٤٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢١٢)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧)، وانظر: مجمل أحاديثها في الدر المنثور (٤/ ٢١٣).
أقول: الذي عند ابن كثير قوله ﷺ: «هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟»، ولم يزد على ذلك [الشامي].

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٥٨، ١٥٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٥٠).

(٤) إعلام الموقعين (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير، كالجرجاني حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه على تأويل «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة». وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما[١]، وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك فروا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها، فاختلفوا في هذا التعذيب:

قال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها، والإنفاق في الجهاد. واختاره ابن جرير[٢] وأوضحه، فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً، بل على صغار منه وكره.

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسبي أولادهم فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضاً من جنس ما قبله؛ فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه: من غنيمة أموالهم، وسبي أولادهم، فإن الإرادة هاهنا كونية بمعنى: المشيئة، وما شاء الله كان ولا بد، وما لم يشأ لم يكن.

والصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها. والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السفر قطعة من العذاب»[٣]، وقوله: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»[٤]، أي: يتألم ويتوجع لا أنه يعاقب بأعمالهم.

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٠/١٥٣). (٢) المصدر نفسه.
(٣) رواه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧). (٤) رواه البخاري (١٢٨٦) ومسلم (٩٢٧).

وهكذا من الدنيا كل همه أو أكبر همه، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي[1] وغيره من حديث أنس ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦١ ـ ٦٣].

ذكر سبحانه هذه الآية عقب قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، فجعلهم مؤذين له بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾. ثم قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فجعلهم بهذا محادين، ومعلوم قطعاً أن من أظهر مسبة الله ورسوله، والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله[3]، وإذا ثبت أنه محاد فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله، لأن من كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فليس بأذل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فبيّن سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد، فعلم أن من له عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلة عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل سبحانه المحادين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه الآية وهذا ظاهر، فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممن أراده بسوء، فإذا كان[4] من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل.

فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه[5].

* * *

---

(١) الترمذي (٢٤٦٥). وصححه الألباني. (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٥، ٣٦).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٦٧، ١٦٨).
(٤) قارن بما في الصارم المسلول ص(٢٢). (٥) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٢٥، ٨٢٦).

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد اختلف[١] في محل هذا الكاف [كالذين]، وما يتعلق به فقيل: هو رفع خبر مبتدأ محذوف، أي: أنتم كالذين من قبلكم.

وقيل: نصب بفعل محذوف، تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم. والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل، وقيل: إن التشبيه في العذاب. ثم قيل: العامل محذوف، أي: لعنهم وعذبهم، كما لعن الذين من قبل، وقيل: بل العامل ما تقدم، أي: وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولعنهم كلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود: أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد، وسوّى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فرق غير مؤثر، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وألغى الوصف الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء، فقال: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ﴾، فهذه هي العلة المؤثرة، والوصف الجامع. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ هو الحكم، والذين من قبل: هم: الأصل، والمخاطبون: الفرع.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر عن الحسن في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾، قال: بذنبهم. ويروى عن أبي هريرة. وقال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا. وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا.

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ، كأنه الذي خُلق للإنسان وقدر له، كما يقال: قسمه الذي قسم له، ونصيبه الذي نصب له، أي: أثبت، وقطه الذي قط له، أي: قطع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٠/ ١٧٥).

وقول النبي ﷺ[1]: «إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة».

والآية تتناول ما ذكره السلف كله: فإنه سبحانه قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، فبتلك القوة التي كانت فيهم، كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة، وكذلك الأموال والأولاد، وتلك القوة والأموال والأولاد: هي الخلاق، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا، ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به، ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة، فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة، وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها.

ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾، فدل هذا على أن حكمكم حكمهم، وأنه ينالكم ما نالهم؛ لأن حكم النظير حكم نظيره، ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ فقيل: «الذي» صفة لمصدر محذوف، أي: كالخوض الذي خاضوا. وقيل: لموصوف محذوف، أي: تخوض الذي خاضوا، وهو فاعل الخوض. وقيل: الذي مصدرية كما، أي: كخوضهم. وقيل: هي موضع الذين.

والمقصود: أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به؛ وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب؛ وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول: البدع.

والثاني: اتباع الهوى.

وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل وعصي الرب، ودخلت النار وحلت العقوبات.

فالأول: من جهة الشبهات.

والثاني: من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

---

(١) رواه البخاري (٨٨٦)، ومسلم (٢٠٦٨).

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله[1]: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها، والدنيا فأباها. وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات». فقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان، فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

والمقصود: أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه، كما استمتع الذين من قبله بخلاقهم، ويخوض كخوضهم، وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم، ثم حضهم على القياس، والاعتبار بمن قبلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن عُلق عليه من الحكم، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنى الذي عُلق به العقاب، وأكده كما تقدم بضرب من الأولى، وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه، فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه[2]؟!.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

تأمل كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به،

---

(١) قائل ذلك: «أبو عمير بن النحاس الرملي»، كما في سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٨)، وإنني ـ والله ـ لأتقرب إلى الله بحب الإمام أحمد رضي الله عنه.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٢ ـ ١٨٥).

فأيسر شيء من رضوانه أكبر من الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم[١] أي شيء يريدون، «فيقولون: ربنا أي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك، أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

فهو نذر مؤكد بيمين وإن لم يقل فيه: «فعليَّ»، إذ ليس ذلك من شرط النذر، بل إذا قال: إن سلمني الله تصدقت، أو لأتصدقن، فهو وعد وعده الله فعليه أن يفي به، وإلا دخل في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

فوعدُ العبدِ ربَّه نذر، يجب عليه أن يفي له به، فإنه جعله جزاء وشكراً له على نعمته عليه، فجرى مجرى عقود المعاوضات، لا عقود التبرعات، وهو أولى باللزوم من أن يقول ابتداء: «لله علي كذا»، فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط وقد وُجِد، فيجب فعل المشروط عنده، لالتزامه له بوعده.

فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومدح من وفى له بما نذره له[٤].

* * *

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٦، ١٦٧).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٥). (٤) إعلام الموقعين (٢/ ١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة. ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليتميزوا به عمن بعدهم، فقيل: التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط. وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وقيّد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة، فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان.

وأن الباء هاهنا للمصاحبة، والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أصل هذه اللفظة [الصلاة] في اللغة يرجع إلى معنيين(٢):

أحدهما: الدعاء والتبريك.

والثاني: العبادة.

فمن القول الأول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]. وقول النبي ﷺ(٣): «إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب، فإن كان صائماً فليصل»، فُسِّرَ بهما. قيل: فليدع لهم بالبركة.

وقيل: يصلي عندهم بدل أكله.

وقيل: إن الصلاة في اللغة معناها: الدعاء.

فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة، وهو الدعاء. والدعاء: دعاء

---

(١) الرسالة التبوكية (٦٢).

(٢) راجع ما كتبه الإمام النووي رحمه الله تعالى في معنى الصلاة، واشتقاقها في كتابه: «المجموع» (٣/ ٢).

(٣) رواه مسلم (١٤٣١، ١٤٣٢).

عبادة ودعاء مسألة. والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقة لا مجازاً، ولا منقولة، ولكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة والرأس ونحوها. فهذا غاية تخصيص اللفظ، وقصره على بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلاً، ولا خروجاً عن موضوعه الأصلي، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه، وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرتفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية، حملت البدن، ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس، وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد لله ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء، فأحكم الأساس واحفظ القوة ودم على الحمية. . وقد بلغت المراد.

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق، والإحسان إلى الناس، ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو، ولا تبدو منه العورة، ثم أرخِ الستور على أبوابه ثم اقفل

---

(١) جلاء الأفهام (٨١ ـ ٨٥).

الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركِّب له مفتاحاً من ذكر الله، به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به.

فتكون حينئذٍ قد بنيت حصناً تحصَّنت فيه من أعدائك..[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكده بأنواع من التأكيد:

أحدها: إخباره ﷻ بصيغة الخبر المؤكد بأداة «إنّ».

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي، الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة «على» التي للوجوب؛ إعلاماً لعباده بأن ذلك حق عليه، أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقاً عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه ﷻ أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضاً بشارة من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً، بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع هاهنا بمعنى: المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة، وقوله: ﴿بَايَعْتُم بِهِۦ﴾، أي: عاوضتم وثامنتم به.

---

(١) الفوائد (١٥٤).

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد، وتم لهم دون غيرهم، وهم التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون، وفسِّرت السياحة بالصيام، وفسِّرت بالسفر في طلب العلم، وفسِّرت بالجهاد، وفسِّرت بدوام الطاعة.

والتحقيق[١] فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال؛ ولذلك وصف الله سبحانه[٢] نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدَّله بهن بأنهن سائحات، وليست سياحتهن جهاداً ولا سفراً في طلب علم، ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى، وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب. والحمد والسياحة قرينتين: هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله. كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج: فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بيّن لهم، فلم يقبلوا ما بيّنه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

هذا من أعظم ما يُعرِّف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات[٥]، بعد أن قضوا

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١١/ ٣٦).

(٢) يقصد قوله تعالى من سورة التحريم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ . . .﴾ الآية ٥.

(٣) حادي الأرواح (٧٥، ٧٦).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٢).

(٥) أي: غزوة تبوك كما سبق.

نحبهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ[1] يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة.

فسبحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذب أهل سماواته وأرضه عذبهم، وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا ينجي أحداً منهم عمله.

وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمةً وعدلاً.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨].

قد فسَّرها كعب بالصواب، وهو أنهم خلفوا من بين من حلف لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأنه لو أراد ذلك، لقال: تخلفوا، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وذلك لأنهم تخلفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم، والله أعلم[2].

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم؛ والحكم ينتفي لانتفاء علته[3].

---

(١) قال ﷺ لكعب عند نزول توبته: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٤٥٦)، والبخاري (٦/ ٧١٧) في المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، ومسلم (٥/ ٦١٤) في التوبة، باب: توبة كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٩١، ٥٩٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال غير واحد من السلف[١]: هم أصحاب محمد ﷺ ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتم في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء ـ وإن وافقهم في غيره ـ لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط.

وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب، بحيث لا يستحق اسم المؤمن ـ وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم ـ الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان.

وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها. والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم[٣].

فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم، فلا يكتب لهم نفسه، ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح.

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٦٢).
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٦٥، ١٦٦).
(٣) الداء والدواء (٣٠٨).

وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها؛ كالإنفاق وقطع الوادي، فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم، حاصل بإرادتهم وقدرتهم، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها، وبالله التوفيق[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين، وهو تعلمه وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم.

وقد اختلف[(٢)] في الآية.

فقيل المعنى: أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة، تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم، والطائفة تقال على الواحد فما زاد. قالوا: فهو دليل على قبول خبر الواحد. وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة.

وقالت طائفة أخرى: المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد، وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقَّهتها القاعدة، وعلَّمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام.

وعلى هذا فيكون قوله: ليتفقهوا ولينذروا، للفرقة التي نفرت منها طائفة.

وهذا قول الأكثرين، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١]. وقال النبي ﷺ[(٣)]: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا». وهذا هو المعروف من هذه اللفظة.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٩١). (٢) راجع: تفسير الطبري (١١/٦٦).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها: (٦/٢١٩) في الجهاد والسير، باب: «لا هجرة بعد الفتح»، ومسلم (٤/٥٢٨) في الإمارة، باب: «المبايعة بعد فتح مكة..».

وعلى القولين فهو ترغب في التفقه في الدين، وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه[1].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

[قال القائلون: بالتقليد]: فأوجب قبول نذارتهم، وذلك تقليد لهم، جوابه من وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذروهم به من الوحي الذي ينزل في غيبتهم عن النبي ﷺ في الجهاد، فأين في هذا حجة لفرقة التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي.

الثاني: أن الآية حجة عليهم ظاهرة، فإنه سبحانه نوّع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين.

أحدهما: نفير الجهاد.

والثاني: التفقه في الدين، وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء أهل الجهاد وأهل العلم، فالنافرون يجاهدون عن القاعدين، والقاعدون يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدركوا ما فاتهم من العلم بإخبار من سمعه من رسول الله ﷺ.

فإن سميتم ذلك تقليداً فليس الشأن في الأسماء، ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسموه ما شئتم، وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عياراً على القرآن والسنن، فما وافق قوله منها قبل، وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة، ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يعلن بإنكاره وذمه وذم أهله[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ **[التوبة: ١٢٧]**.

فأخبر سبحانه عن فعلهم: وهو الانصراف، وعن فعله فيهم: وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره؛ لأنهم ليسوا أهلاً لها، فالمحل غير صالح ولا قابل.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦٠، ٦١).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣).

فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل الإيمان بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض.

فالأول: مانع من الفهم.

والثاني: مانع من الانقياد والإذعان.

فأفهامهم سيئة، وقصودهم رديئة، وهذه سمة الضلال وعلم الشقاء. كما أن سمة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح، وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، كيف جعل هذه الجملة الثانية ـ سواء كانت خبراً أو إعادة ـ عقوبة لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول.

فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم؛ لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان؛ فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن. فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه، ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع. فإنه لما عصى ربه تعالى، ولم ينقد لأمره، وأصر على ذلك؛ عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية. فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها، صغيرها وكبيرها. وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق. فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف، والإعراض عنه، وقد قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، و﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين، فكيف ينعي ذلك عليهم؟

قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم.

فمكَّنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب. فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الردى وأسباب الفلاح. وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً، فآثروا الهوى على التقوى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته.

فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم.

فهم سدُّوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، فسده عليهم اضطراراً، فخلَّاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه، وهم معرضون. فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله. ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، ولأنشأهم على غير هذه النشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل، والنور والظلمة، والنافع والضار، والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين، والشاء والذياب، ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له. فبعضها بطباعها، وبعضها بإرادتها ومشيئتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده، ومقتضى كماله المقدس، وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر[1].

❁ ❁ ❁

(١) شفاء العليل (٩٧، ٩٨).

سُورَةُ يُونس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ [يونس: ٢].

قال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها. ولا قول من قال: إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ﴾ [يونس: ١١].

قال السلف[٢]: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب، ولو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيبه؛ لعلمه بأن الداعي لم يقصده[٣].

وقد قال جماعة من الأئمة: الإغلاق الذي منع[٤] النبي ﷺ من وقوع الطلاق والعتاق فيه هو: الغضب. هذا كما قالوه، فإن للغضب سكراً كسكر الخمر أو أشد[٥].

---

(١) شفاء العليل (٢٨).
(٢) تفسير الطبري (١١/ ٩٢).
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٧٠).
(٤) يشير إلى الحديث الذي ورد بلفظ: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق».
رواه الإمام أحمد ﷺ (٦/ ٢٧٦)، وابن ماجه (١/ ٣٤٨) صحيح ابن ماجه، وأبو داود (٦/ ٢٦١) في الطلاق، باب: في الطلاق على غلط (على غضب)، ورواه الحاكم (٢/ ١٩٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وتعقبه الذهبي بقوله: (محمد بن عبيد لم يحتج به مسلم، وقال أبو حاتم: ضعيف). ورواه الدارقطني في سننه (٤/ ٣٦)، والبيهقي (٧/ ٣٥٧). وحسنه الشيخ الألباني كما في الإرواء (٧/ ١١٣)، والله أعلم.
(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز:

إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله ﷻ لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني، وأسماعكم وأفهامكم فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدونني وتعرفون حالي وتصحبونني حضراً وسفراً، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتتحققون سيرتي: هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق، وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه، وخالفه بالكذب والفرية عليه وطلب إفساد العالم، وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتاباً ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم أنتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه، وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها ما لم أشارككم فيه بوجه. ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان و[ما] سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له[(١)]؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبيّن سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم، وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقاً ولا أمراً ولا إذناً، بل هو سبب محرك له من خارج؛ كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه،

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧٢).

وقد يكون عنده ما يخالفه، كمن يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح.

فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله، هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه، فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع: إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته.

وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه؛ فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر، فإن أحداً من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى، وخلقه. فالرب ﷻ هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع.

والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل، والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره، وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق أو نصر أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته؛ تبيّن له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة، وبين ما نفاه وأبطله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[1].

□ □ □

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم المستلزم لنفي

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٢، ٢٢٣).

المعلوم، ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك، لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكوَّنه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده، فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد.

وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب، فالرب تعالى لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه، فهو يعلمه مستحيلاً لا يعلمه واقعاً؛ إذ لو علمه واقعاً لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال. فهذه حجج الرب تبارك وتعالى على بطلان ما نسبه إليه أعداؤه المفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيراً، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه، وما أودعه من حججه وبيناته[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

شبه الله سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سُلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر فيغتر بها، ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة؛ فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه منها صفراً. فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]. فسماها هنا دار السلام، لسلامتها من هذه الآفات التي

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٥).

ذكرها في الدنيا، فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية لها من يشاء. فذاك عدله، وهذا فضله[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم. كذلك فسرها رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن صهيب قال[٢]: «قال رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة».

ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة، وقدر زائد عليها، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس وبين قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]؟

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها، وألطفها فرقاً:

فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره، من كون الرب تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها. ومخرج الحي من الميت، والميت من الحي.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٣).

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦/ ١٥)، رواه مسلم (١٨١).

(٣) حادي الأرواح (٢٣١ ـ ٢٣٤).

فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم: أن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا، ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، أي: لا بد أنهم يقرون بذلك، ولا يجحدونه. فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به.

والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية، إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قِبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا. فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لا سيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه. وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو، لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس، فلا يلتفت إلى غيره.

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم؛ لم يصلح فيه إلا إفراد السماء، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح. ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والمواد الربانية، والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق. ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم، بحيث لا يمكنهم إنكاره.

أما الآية التي في سبأ: فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السمٰوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، ولم يقل: سيقولون: الله. فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب: بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السمٰوات السبع. وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر، وبر وفاجر[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١١٧، ١١٨).

فالآية إنما سيقت في الكلام على من يعبد غير الله، ويشرك به، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

[فمن] عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض، والباطل البحت، وأما من عبد الله بأمره وكان في مقام التمييز بين محابّه ومساخطه؛ مفرقاً بينهما يحب هذا ويبغض هذا، ناظراً بقلبه إلى ربه، عاكفاً بهمته عليه، منفذاً لأوامره، فهو مع الحق المحض، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى، ساووهم في العاقبة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى، والغي مرض شفاؤه الرشد؛ وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين، فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢].

ووصف رسوله ﷺ خلفاءه بضدهما، فقال(٣): «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاءً تاماً لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إذا بلَّ من داء به ظن أنه ... نجا وبه الداء الذي هو قاتله(٤)

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٤).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٥، ١٨٦).
(٣) حديث صحيح ـ نفعنا الله به ـ.
رواه الإمام أحمد ﷺ (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٥، ١٦).

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله».

وقال هلال بن يساف: «بالإسلام الذي هداكم إليه، وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون: من الذهب والفضة».

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: «فضله الإسلام، ورحمته القرآن».

وقالت طائفة من السلف: «فضله القرآن ورحمته الإسلام»(١).

والتحقيق: أن كلًّا منهما [الإسلام والقرآن] فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]. والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان، ووضع من وضع بعدمهما. فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قيل: نعم إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط، بل سماها روحاً ونوراً، وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهداً ووصية ونحو ذلك(٢).

ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن، وهو يحب من عبده: أن يفرح بذلك ويسر به، بل يحب من عبده: أن يفرح بالحسنة إذا عملها، وأن يسر بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله، حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها، ويسرها له، ففي الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته(٣).

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم، وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١١/ ١٢٤). والدر المنثور (٤/ ٣٦٦).
وانظر: رقم (١٧٧) من تخريج الحافظ ابن حجر على الكشاف (٤/ ٨٤).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣١، ٣٢).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٠٦)، واجتماع الجيوش (٣)، والفوائد (١٣١)، راجع: مفتاح دار السعادة (٥٦).

عقيب قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة.

فأخبر سبحانه: أن ما آتى عباده من الموعظة: التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. وشفاء الصدور: المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه، وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا، فهنالك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدى: الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به والرحمة: التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناسُ من أعراض الدنيا وزينتها، أي: هذا هو الذي ينبغي أن يُفْرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجلِّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

□ □ □

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق، ومقيد.

فالمطلق: جاء في الذم كقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقيد نوعان أيضاً: مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته؛ فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضاً؛ فضل ورحمة بالسبب، وفضل ورحمة بالمسبب.

فالأول: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله ورسوله وبالإيمان والسنة، وبالعلم والقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

فالفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها واليأس من حصولها.

والمقصود: أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه.

والفرح بالشيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة، وسكونه انشراح، والفرح لذته بهجة وسرور، فكل فَرِحٍ راضٍ، وليس كل راض فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

إن أولياء الرحمٰن، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون.

وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وفي وسطها في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي أول الأنفال، إلى قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٤].

---

(١) مدارج السالكين (٣/١٥٦ ـ ١٥٩).

وفي أول سورة المؤمنون إلى قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].
وفي آخر سورة الفرقان: [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٧].
وفي قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية... [الأحزاب: ٣٥].
فأولياء الرحمٰن: هم المخلصون لربهم، المحكمون لرسوله في الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً.
فأولياء الرحمٰن المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه، المحاربون لمن خرج عنه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [**يونس**: ٨٧].

هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولاً، إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوآ البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردؤه ووزيره، وكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة، وأيضاً فإن موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولاً واحداً، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]. فهذا الرسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [**يونس**: ٩٤].

وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيراداً، وقالوا: كان في شك فأمر أن يسألنا.
وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم.

---

(١) الروح (٣٢٣).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٠).

وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ، وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط بل ولا على إمكانه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونظائره.

فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل[١]، وفي تفسير سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال[٢]: «لا أشك ولا أسأل».

وقد ذكر ابن جرير[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم.

وهذا اختيار ابن جرير قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت، يا محمد، في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولاً إلى خلقي؛ لأنهم يجدونك مكتوباً عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، كعبد الله بن سلام ونحوه، من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك.

وكذلك قال ابن زيد: قال: هو عبد الله بن سلام. وقال الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب[٤].

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها، وأين كان عبد الله بن سلام وقت نزول هذه الآية، فإن السورة مكية[٥]، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه؟!

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يسأل (٤/ ٣٨٩).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٢٥، ١٢٦)، عن قتادة مرسلاً. وكذا ابن جرير (١١/ ١٦٨). وهذا ضعيف للإرسال.

(٣) تفسير الطبري (١١/ ١٦٨).

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (١١/ ١٦٧).

(٥) هذا مما اختلف فيه. فقال القرطبي: «مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر». وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة. وقال الكلبي: مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠]، نزلت بالمدينة في اليهود. وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة» (٤/ ٣١٤٣) تفسيره. ونقل ذلك عنه الشوكاني (٢/ ٤٢١) فتح القدير. =

وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه[(١)]؟.

وقال كثير من المفسرين[(٢)]: هذا الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره، لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة. وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق[(٣)]: إن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ والخطاب شامل للخلق؛ والمعنى: وإن كنتم في شك. والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقال ابن قتيبة[(٤)]: كان الناس في عصر النبي ﷺ أصنافاً، منهم كافر به مكذب، ومؤمن به مصدق، وآخر شاك في الأمر لا يدري كيف هو، فهو يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً؛ فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس، وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد؛ فسل. قال: ووحد وهو يريد الجمع كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ

= وانظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٠)، وكذا تفسير الخازن (٣/ ١٧٢)، وتفسير الآلوسي (١١/ ٥٨)، وتفسير الجلالين للسيوطي (١/ ٢٥٢)، والدر المنثور (٤/ ٣٣٩).

وقال السيوطي في الإتقان: «فصل في تحرير السور المختلف فيها.. «سورة يونس» المشهور أنها مكية، وعن ابن عباس روايتان. فتقدم في الآثار السابقة عنها أنها مكية، وأخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عنه، ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه، ومن طريق خصيف عن مجاهد عن ابن الزبير...» (١/ ١٢) مختصراً.

وذهب إلى أنها مكية: ابن كثير (٢/ ٤٣٤)، وابن قتيبة في «غريب القرآن» (١٩٤). أما إسلام «عبد الله بن سلام» رضي الله عنه فكان إسلامه بالمدينة في أول دخول النبي ﷺ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين». كما في فتح الباري (٧/ ١٦١) في مناقبه من كتاب مناقب الأنصار.

(١) إذا صح الدليل لا يورد عليه بكيف، وإنما يبحث في معناه ومفهومه، والله أعلم.

(٢) راجع: تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٢١)، والزمخشري (٢/ ٢٠٣)، وتفسير الخازن (٣/ ٢١٠)، والبغوي (٣/ ٢١٠) بهامش الخازن، وتفسير الآلوسي (١١/ ١٨٩).

(٣) أبو إسحاق، الإمام، نحوي زمانه، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، انظر: ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠).

وانظر: مبحثه النفيس حول الآية في كتابه «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٣٢)، طبعة عالم الكتب.

(٤) انظر قول ابن قتيبة في: «تأويل مشكل القرآن» (٨١، ٢٦٩). و«تفسير غريب القرآن» (١٩٩). فلعل ابن القيم نقله بالمعنى.

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨].

وهذا ـ وإن كان له وجه ـ فسياق الكلام يأباه، فتأمله.

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وهذا كله خطاب واحد متصل بعضه ببعض، ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا على النبي ﷺ، قالوا: الخطاب له والمراد به هذا الصنف الشاك. وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم: وهو وقوع الشك منه والسؤال؛ وقد بيّنا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلاً عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعاً ولا ممكناً فما مقصود الخطاب، والمراد به؟

قيل: المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه؛ فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود، بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك.

وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته[1]: من شك فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

و«إذنه» هاهنا قضاؤه وقدره، لا مجرد أمره وشرعه. كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية.

قال ابن المبارك[3] عن الثوري: بقضاء الله.

وقال محمد بن جرير[4]: يقول جلّ ذكره لنبيه: وما لنفس خلقها من سبيل إلا أن

---

(١) وهذا قريب من قول من قال: «إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد لغيره، فتأمله»، والله أعلم.
(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ١٢ ـ ١٥). (٣) رواه الطبري (١١/ ١٧٤).
(٤) تفسير ابن جرير (١١/ ١٧٤، ١٧٥)، مع بعض اختلاف يسير في العبارة.

تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله ثم خلها، فإن هُداها بيد خالقها.

وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠] أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن، ثم قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير[٢]: يقول تعالى: يا محمد، قل لهؤلاء السائليك الآيات على صحة ما تدعو إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: (انظروا) أيها القوم ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الآيات الدالة على حقية ما أدعوكم إليه من توحيد الله؛ من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبراً، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار! فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) شفاء العليل (٦٠، ٦١).

سورة هـود

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين.

فإن طيب النفس، وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، هو التعميم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

وقال الآخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكر»(١)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي، وقدّر أجل الخلق وخلق ما على

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠).
(٢) الجواب الكافي (١٦٣).

الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو: ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر، والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والمقدرة، وتَأَتِّي الأسباب، أعظم الابتلاءين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة ﷺ: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها[(١)].

فأخبر في هذه الآية أنه خلق السمٰوات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١].

وهؤلاء ثنية[(٣)] الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.

فرتب ـ سبحانه ـ المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كانت له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد.

ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة منهم ابن عباس[(٥)]: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب. قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس. وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن

---

(١) عدة الصابرين (١٥١، ١٥٢).
(٢) شفاء العليل (٣٥).
(٣) أي: من استثناهم الله تعالى.
(٤) عدة الصابرين (٧٣، ٧٤).
(٥) راجع: تفسير الطبري (١٢/ ١١). والدر المنثور (٤/ ٤٠٦).

فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس ﷺ في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.

قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى؛ عجل له ثواب عمله في الدنيا.

واختار الفراء هذا القول، وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثواب، ولم يبخس. وهذا القول أرجح.

ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً فإن العاصي والفاسق، ولو بالغا في المعصية والفسق، فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته.

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه[1]: «في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، والمتصدق

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة.. وأما قصة استشهاد «معاوية» ﷺ بالآية في فهم الحديث فرواها الترمذي (٢/ ٢٨٢)، صحيح الترمذي، في الزهد، باب: ما جاء في الرياء، والطبري في تفسيره (١٢/ ١٣)، وابن خزيمة (٤/ ١١٥)، وصححه الألباني.

وهي «أن شُفي بن ماتع الأصبحي، حدثه أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس.. ثم ذكر الحديث بطوله... ثم قال الوليد بن أبي الوليد، أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة: أن شُفَياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سيّافاً لمعاوية، قال: فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية ـ وعند الطبري فقال أبو هريرة ـ: قد فُعِلَ بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس، ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك.

وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية. ورواه الحاكم دون القصة (١/ ٤١٨). وصححه ووافقه الذهبي.

الذي أنفق أمواله ليقال: فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال: هو جريء».

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء، كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس، قال: أخبرني عبد الحميد بن صالح، حدثنا قطري الخشاب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله ﷻ للدنيا، وفرقة يعبدونه رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك: الدنيا. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك: رياء وسمعة. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك: وجهك ودارك، فيقول: صدقتم، اذهبوا بهم إلى الجنة».

هذا حديث غني عن الإسناد، فالقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾، وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا، فوفّاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة، إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: «فعلى هذا القول: المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة، كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره».

ثم أورد أصحاب هذا القول على أنفسهم سؤالاً! قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار؟ وأجابوا عنه: بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله، ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا؛ فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة، فلا يوافي ربه بالإيمان.

قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى: بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد، فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري، وغيره.

□ □ □

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها، بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة.

والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار، وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد، والله الموفق.

□ □ □

وذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. ومنها قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]. فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً، ويصدق بعضها بعضاً، وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده، ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل، وهي غاية سعيه فهي له.

□ □ □

بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين، فبأيهما يلحق؟

قيل: من هاهنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة، ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أُحد ونزلت هذه الآية»[١].

والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وهاهنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر، دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة؛ كفرعون وثمود، واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ، وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة، والله المستعان[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

---

(١) راجع تفسيرها في سورة آل عمران. (٢) عدة الصابرين (١٦٣ ـ ١٦٧).

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

وهؤلاء المعارضون للوحي بعقولهم جمعوا بين الأمور الثلاثة، الكذب على الله، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجاً.

أما الكذب على الله: فإنهم نفوا عنه ما أثبته لنفسه من صفات الكمال، ووصفوه بما لم يصف به نفسه.

وأما صدهم عن سبيله وبغيها عوجاً: فإنهم أفهموا الناس، بل صرحوا لهم بأن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد علماً ولا يقيناً، وأن العقول عارضتها فيجب تقديم العقول عليها. وأي عوج أعظم من عوج مخالفة العقل الصريح، وقد وصف الله كتابه بأنه غير ذي عوج(١)، ولا ريب أن الله هو الصادق في ذلك، وأنهم هم الكاذبون.

فإن قلت: يبغونها متعدٍّ إلى مفعول واحد، فما وجه انتصاب عوجاً؟ قيل: فيه وجوه:

أحدهما: أنه نصب على الحال. أي: يطلبونها ذات عوج، لا يطلبونها مستقيمة، والمعنى: يطلبون لها العوج.

الثاني: أن عوجاً مفعول به يبغونها على تقدير حذف اللام، أي: يطلبون لها عوجاً يرمونها به، ويصفونها به.

وأحسن منهما أن تضمن يبغونها: إما معنى يعوجونها، فيكون عوجاً منصوباً على المصدر، ودل فعل البغي على طلب ذلك وابتغائه. وإما معنى يسومونها ويؤولونها.

وعلى كل تقدير فسبيل الله هداه وكتابه الهادي للطريق الأقوم، والسبيل الأقصد، فمن زعم أن في العقل ما يعارضه؛ فقد بغاه عوجاً، ودعا إلى الصد عنه، ومن له خبرة بالمعقول الصحيح، يعلم أن العوج في كلام هؤلاء المعوجين، الذين هم عن الصراط ناكبون، وعن سبيل الرشد حائدون، وعن آيات الله بعيدون، وبالباطل والقضايا الكاذبة يصدقون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي ريبهم يترددون، وهم للعقل الصريح والسمع الصحيح مخالفون(٢).

* * *

(١) في قوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].
وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٤٢ ـ ١١٤٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

والخَبْت في أصل اللغة[١]: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة لفظ «المخبتين»، وقالا: هم المتواضعون.

وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عز وجل. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأخفش: الخاشعون.

وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون.

وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم.

وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله عز وجل، ولذلك عُدِّي بإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، وما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم؛ من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه، فَشَبَّهَهُ بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر: بصير القلب كبصير العين وسميع الأذن.

فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

فاعتبروا صورة مجرد الآدمية، وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٢/ ٢٤). وأساس البلاغة للزمخشري (١٠٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

حكم أحد الشبهين حكم الآخر، فكما لا نكون نحن رسلاً، فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه؛ فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا، وهذا من أبطل القياس، فإن الواقع من التخصيص والتفضيل، وجعل بعض هذا النوع شريفاً، وبعضه دنياً، وبعضه مرؤوساً، وبعضه رئيساً، وبعضه ملكاً، وبعضه سوقه؛ يبطل هذا القياس(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

إن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم: قد أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل، فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم؛ فازدروهم واحتقروهم. وقالوا للرسول: (اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك)، وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾ [الأنعام: ٥٣]. [فكانت الآية جواب] نوح عليه السلام لقومه.

قال الزجاج: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس علي أن أطلع على ما في أنفسهم، فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهّلهم لقبول دينه، وتوحيده، وتصديق رسله. والله جل جلاله عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه.

وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلهم للهدى والحق، وحَرَمَه رؤساء الكفار، وأهل العزة والثروة منهم، كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة.

فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده، من معرفة قدر النعمة ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء(٢).

* * *

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٨).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٧٠، ١٧١).

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣].

[الاستثناء منقطع] على أصح الوجوه في الآية، فإنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق، فكأنه قيل: لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه، فإنه لما قال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بقي الذهن طالباً للمعصوم! فكأنه قيل: فمن الذي يعصم؟

فأجيب: بأنه لا يعصم إلا من رحمه الله، ودل هذا اللفظ، باختصاره وجلالته وفصاحته، على نفي كل عاصم سواه، وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله.

فدل الاستثناء على أمرين: على المعصوم من هو، وعلى العاصم، وهو ذو الرحمة. وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه وأوجزه، ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك.

وقد قالوا فيها ثلاثة أقوال أخر[(١)]:

أحدها: إن عاصماً بمعنى: معصوم؛ كماء دافق، وعيشةٍ راضية، والمعنى: لا معصوم إلا من رحمه الله.

وهذا فاسد، لأن كل واحد من اسم الفاعل واسم المفعول موضوع لمعناه الخاص به، فلا يشاركه فيه الآخر، وليس الماء الدافق بمعنى المدفوق، بل هو فاعل على بابه، كما يقال: ماء جار. فدافق كجار، فما الموجب للتكلف البارد؟ وأما عيشة راضية فهي عند سيبويه على النسب «كتامر» و«لابن»، أي: ذات رضى، وعند غيره «كنهار صائم» و«ليل قائم» على المبالغة.

والقول الثاني: إن (من رحم) فاعل لا مفعول، والمعنى: لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم، فهو استثناء فاعل من فاعل. وهذا وإن كان أقل تكلفاً، فهو أيضاً ضعيف جداً، وجزالة الكلام وبلاغته تأباه بأول نظر.

والقول الثالث: إن في الكلام مضافاً محذوفاً قام المضاف إليه مقامه، والتقدير:

---

(١) انظر هذه الأقوال في: «الكشاف» للزمخشري (٢/ ٢١٧).
وراجع: تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٦٧)، وتفسير البغوي (٣/ ٢٣٣، ٢٣٤).

لا معصوم عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله. وهذا من أنكر الأقوال وأشدها منافاة للفصاحة والبلاغة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

أخبر نبي الله هود عليه السلام عن عموم قدرة الله تعالى وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته، فقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل، وأقبح الظلم؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه، فإنه على صراط مستقيم، فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا[٢].

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، كان في معنى: لا يخرج من قبضته وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فأتبع قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان على طريقة حسنة. وليس ثم طريق.

ثم ذكر وجهاً آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: لا تخفى عليه مشيئته ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به: الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٧، ٦٨).

(٢) الجواب الكافي (٣١١، ٣١٢).

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحداً بجريرة أحد، ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب: «له الملك وله الحمد»، ومن باب: «ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك»، ومن باب: «الحمد لله رب العالمين»، أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف، وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد. كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال الفراء يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، قال: وهذا كما تقول في الكلام «طريقك عليّ وأنا على طريقك» لمن أوعدته، وكذلك قال الكلبي والكسائي. ومثل قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] على إحدى القولين في الآية، وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه. ومنها ـ أي: ومن السبيل ـ ما هو جائر عن الحق ولو شاء لهداكم أجمعين، فأخبر عن عموم مشيئته وأن طريق الحق عليه موصلة إليه فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود: أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق، ويفعل العدل: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. فهذا العدل والتوحيد اللذان دل عليهما القرآن لا يتناقضان[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ

---

(١) شفاء العليل (١، ٢، ٨٧)، وروضة المحبين (٧٠).

وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٢].

[إذا قيل]: ما السر في نصب «السلام» في تسليم الملائكة، ورفعه في تسليم إبراهيم؟

[فالجواب]: أنك قد عرفت قول النحاة فيه: إن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية، لأن نصب السلام يدل على: سلّمنا عليك سلاماً. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية، لأن رفعه يدل على أن المعنى: سلامٌ عليكم.

والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه ﷺ، وهو مقام الفضل إذ حيّاهم بأحسن من تحيتهم. هذا تقرير ما قالوه.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله: «سلاماً»، انتصاب مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا: سلاماً، وقالوا: سداداً وصواباً ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكى به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكياً به، بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه: قالوا: قولاً سلاماً. مثل: سداداً وصواباً، وسمي القول سلاماً: لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة، وحصول الاستيناس.

وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه، مرفوعاً بالابتداء محكياً بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال: سلاماً بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعاً فعلى الحكاية ليس إلا.

فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جداً: وهو أن قوله: سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها وباتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل، والله أعلم، وبالله التوفيق[1].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٧، ١٥٨).

وتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدهما بشارتين متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى، والبشارة الأولى كانت له، والثانية كانت لها، والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها دون الثانية[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾، **إلى قوله تعالى:** ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٧٨ ـ ٨٣].

تأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله، حيث جاؤوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف، هم من أحسن البشر صوراً، فأقبل اللوطية إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾، ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن؛ خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ فردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾. فنفث نبي الله منه نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب، فقال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾.

فنفس له رسل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعبأ بهم وهون عليك. فقالوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾. وبشروه بما جاؤوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا. فقالت الملائكة: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله، ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٥٦).

إلى عبده ورسوله جبرائيل، بأن قلبها عليهم كما أخبر به محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ ـ ٧٧]. أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فقلبت تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون.

مآرب كانت في الحياة لأهلها عِذاباً فصارت في الممات عَذابا

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، وتمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعاً وخيماً فأعقبهم عذاباً أليماً، وأسكرتهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين؛ فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقد قرَّب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[١].

□ □ □

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

[الاستثناء منقطع] ـ في قراءة الرفع[٢]، ويكون امرأتك مبتدأ، وخبره ما بعده.

وهذا التوجيه أولى من أن يجعل الاستثناء في قراءة من نصب من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، وفي قراءة من رفع من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، ويكون الاستثناء على هذا من ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ رفعاً ونصباً.

---

(١) الجواب الكافي (٢٦٠ ـ ٢٦٢).

(٢) انظر: «كتاب السبعة في القراءات»، ص(٣٣٨) لابن مجاهد. وتفسير القرطبي (٤/٣٣٠٨).

وإنما قلنا إنه أولى لأن المعنى عليه، فإن الله تعالى أمره أن يسري بأهله إلا امرأته، ولو كان الاستثناء من الالتفات لكان قد نهى المسري بهم عن الالتفات وأذن فيه لامرأته، وهذا ممتنع لوجهين:

أحدهما: أنه لم يأمره بأن يسري بامرأته، ولا دخلت في أهله الذين وعد بنجاتهم.

والثاني: أنه لم يكلفهم بعدم الالتفات، ويأذن فيه للمرأة[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أصبت من امرأة قبلة! فنزلت هذه الآية، فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: «بل لمن عمل بها من أمتي»[(٢)(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٦].

إن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله[(٤)]: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»[(٥)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

في الآية قولان:

أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٥، ٦٦).
(٢) رواه البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣).
(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٠).
(٤) حديث صحيح رواه الإمام أحمد (٥/٢٩٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر «إسناده صحيح». ورواه الترمذي (٢٦٢٩).
(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٩٤).

الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى **على القول الأول**: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم مصلحون الآن. أي: إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا، لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون؛ وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم[١].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (١/ ٢١٧، ٢١٨).

سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ [يوسف: ١٩].

قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه: إذا أرسلها في البئر، ودلاها ـ بالتخفيف ـ إذا نزعها من البئر، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلواً إذا نزعها وأخرجها.

ومنه الإدلاء: وهو التوصل إلى الرجل برحم منه.

ومنه الدل: وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبد الله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته، فالهدي الطريقة التي عليها العبد من أخلاقه وأعماله، والدل: ما يدل من ظاهره على باطنه، والسمت هيأته ووقاره ورزانته[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، **إلى قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ **الآية** [يوسف: ٢٤ ـ ٥٣].

وقد ذكر الله ﷻ عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن قيل: فقد همَّ بها!؟

قيل: عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ. هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب، أن هَمَّه كان همَّ خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمُّها كان همَّ إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه، فلم يستو الهمَّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: الهمُّ همَّان: همُّ خطرات، وهمُّ إصرار، فهمّ الخطرات لا يؤاخذ به، وهمُّ الإصرار يؤاخذ به.

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١١٥).

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ﴾.

قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم، وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام.

والصواب معهم لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها:

﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣].

ومن جعله من قوله، فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللبس، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾، والسياق صريح في ذلك، فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠].

فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق، فقال النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾. [يوسف: ٥١]

وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

□ □ □

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي: إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله؛ ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. ثم إنه ﷺ قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذا من تمام معرفته عليه السلام بربه ونفسه، فإنه لما ظهرت براءته ونزاهته مما قذف به؛ أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها فإنها أمارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة، فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر

كلها في نسق واحد يدل عليه وهو: قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر، ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قول لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾؟ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك ـ أي: قولي هذا وإقراري ببراءته ـ ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خُنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ . . . ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء.

فتأمل ما أعجب هذه المرأة! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر.

فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرون بالرب تبارك وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩][1].

□ □ □

إن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركَّبه الله سبحانه في الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر على النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً.

(١) روضة المحبين (٢٩٧ ـ ٣٠١).

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشاب وحدَّته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى الغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

وزادني كلفاً في الحب أن منعت   أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحل عند إبائها وامتناعها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت، وبذلت الجهد؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي، ولا أحد من جهتها؛ فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلَّقت الأبواب وغيبّت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج، ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد وطوال السواد، تعني: قرب وساد الرجل من وسادتي، وطوال السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما؛ ويبعد كلاًّ منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به: أنه قال ليوسف: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾، وللمرأة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾.

وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة، ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾. وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين.

وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه. وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا، إن وفق الله، أن نفردها في مصنف مستقل(١).

□ □ □

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

دل أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرْف المسبب صرف لسببه(٢).

□ □ □

وقد حكى الله سبحانه في كتابه عن الشاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز، وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عليه السلام، وكذب المرأة، بقوله:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٨].

وسمى الله سبحانه ذلك آية، وهي أبلغ من البينة، فقال: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يوسف: ٣٥].

---

(١) الجواب الكافي (٣١٣ ـ ٣١٦).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٣١٩).

وحكى سبحانه ذلك مقراً له غير منكر، وذلك يدل على رضاه به[١].

□ □ □

وقد جمع الله ﷻ ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين [الصبر على عاجل العقوبة عن لذة الوصال الحرام]، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن، على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة:

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣].

فاختار السجن على الفاحشة ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله، وأحاط به الخذلان[٢].

□ □ □

قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: هذا هو الذي فتنت به، وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته، وهذا حسن منظره، ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾، أي: فمع هذا الجمال، فباطنه أحسن من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن عيب محبوبه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه[٣].

□ □ □

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠].

إنما عبدوا المسميات، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة، كاللَّات والعُزَّى، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة، فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلٰهية لها، وليس لها من الإلٰهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٦٦). (٢) روضة المحبين (٤١٣).

(٣) روضة المحبين (٢٢٤، ٢٢٥).

وهذا كمن سمى قشور البصل لحماً وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه. وكمن سمى التراب خبزاً وأكله، يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز. بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلٰهيتها بوجه، وما الحكمة ثمَّ إلا مجرد الاسم. فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، **إلى قوله تعالى**: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٦٢ ـ ٧٦].

وأما إخباره ﷺ عن يوسف ﷺ أنه جعل صواعه في رَحل أخيه ليتوصل بذلك إلى أخذه وكيد إخوته، فنقول لأرباب الحيل:

أولاً: هل تجوِّزون أنتم مثل هذا حتى يكون حجة لكم؟ وإلا فكيف تحتجون بما لا تجوِّزون فعله؟! فإن قلتم: كان جائزاً في شريعته؟ قلنا: وما ينفعكم إذا لم يكن جائزاً في شرعنا؟

قال شيخنا[٢] ﷺ: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بيّنا تحريمها وليس من جنسها قصَّةُ يوسف حيث كاد الله له في أخذ أخيه، كما قصَّ ذلك تعالى في كتابه، فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة:

أحدها قوله لفتيانه: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢].

فإنه تسبب بذلك في رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني:

منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها.

ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم.

ومنها: أنه رأى لؤماً إذا أخذ الثمن منهم.

ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة؛ ليكون أدعى لهم إلى العود.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩، ٢٠).

(٢) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، وهذا الفصل منقول من كتابه «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٢٠٩) وما بعدها، يكاد يكون حرفياً.

ومنها: أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى العود ليردوها إليه.

فهذا المحتال به عمل صالح، والمقصود رجوعهم، ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح.

وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضاً منفعة لهم وله ولأبيهم، وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاد.

الضرب الثاني: أنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه، ورضا منه بذلك والحق له في ذلك، وقد دل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]. وفيه قولان:

أحدهما: إنه عرف أنه يوسف، ووطنه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له أنه يوسف، وإنما أراد: إني مكان أخيك المفقود، فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء. ومن قال هذا قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ لا يشعر[1]، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن، وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع.

وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره: لما قال له: إني أنا أخوك. قال[2]: فأنا لا أفارقك.

قال يوسف: فقد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحتمل.

قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك.

قال: فإني أدس صاعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك.

قال: فافعل. وعلى هذا، فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه.

الضرب الثالث: أنه أذن مؤذن:

---

(١) في تفسير الطبري (١٣/١٧).

(٢) في الطبري (١٣/١٧)، والفتاوى الكبرى (٣/ ٢١٠) تسمية أخيه «بنيامين».

﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝﴾ إلى قوله: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٠ ـ ٧٦].

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيَّبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليها، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين: لصوصاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف. قال القاضي أبو يعلى وغيره(١): أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رَحْل أخيه، ثم قال بعض الموكلين، وقد فقدوه، ولم يدر من أخذه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، على ظن منهم أنهم كذلك، من غير أمر يوسف لهم بذلك. أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا. وعنى: أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصّواع، فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي.

وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ ليصح أن يضمن سرقتهم فيتم التعريض(٢)، ويكون الكلام صدقاً، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾، وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً، وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقل: إلا من سرق ـ وهو أخصر لفظاً ـ تحرياً للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه، وكان المتاع عنده حقاً، فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

□ □ □

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٦).

(٢) راجع معنى التعريض وحكمه في: (٥/ ٤٩) زاد المعاد، و(٢/ ٥٠٤، ٥٠٥) الصواعق المرسلة، و(٣٦٦) مفتاح دار السعادة.

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف، على أنه جائز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير، بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا مَنْ عليه الحق.

قال شيخنا[١] ﷺ: وهذه الحجة ضعيفة، فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتصَّ منه. وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم، والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته، فإنه كان أكرم من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به، ليبلغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء، فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به.

وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون مَنْ سرقه أو خانه، مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم، لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره؛ لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضاً، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل بريء ويعتقل للانتقام من غيره، من غير أن يكون له جُرْم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف، فلا بد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحياً خاصاً، كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى امتحانه وابتلاؤه؛ لينال درجة الصبر على حكم الله، والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه.

وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها، ومن حال يوسف، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٣/ ٢١٢).

فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه، كما نسبه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وفي قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠].

وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكراً وكيداً واستهزاءً وخداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ونحو قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقيل ـ وهو أصوب ـ: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه، فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

وحسن: وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له. فالأول مذموم، والثاني ممدوح.

والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعباده، وإنما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل.

□ □ □

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة:

أولها: أن إخوته كادوا به كيداً، حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه.

ثم إن امرأة العزيز كَادَتْهُ بما أظهرت أنه راوَدَها عن نفسها.

ثم أودع السجن.

ثم إن النسوة كِدْنَهُ حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وقال تعالى في حق النسوة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٤].

وقال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد

المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغياً وعدواناً[1].

والمقصود: أن الله سبحانه كاد ليوسف ﷺ، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي، فقالوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد.

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي سجدوا له، هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له حذراً من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك، كما رآه في منامه.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: ٧٦].

وكيد الله سبحانه لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: أن يفعل سبحانه فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدراً محضاً ليس من باب الشرع، كما كاد الذين كفروا، بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات.

وكذلك كانت قصة يوسف ﷺ، فإن يوسف أكثر ما قدر عليه أن ألقى الصُّواع في رحل أخيه، وأرسل مؤذناً يؤذن: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾، أي: جزاؤه استعباد المسروق ماله للسارق، إما مطلقاً، وإما إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب ﷺ.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٨٢).

وكان إلهام الله تعالى لإخوة يوسف عليه السلام قولهم: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ كيداً من الله تعالى ليوسف عليه السلام، أجراه على ألسن إخوته، وذلك خارج عن قدرته، وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك، بأن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقاً.

وقد كان يوسف عليه السلام عادلاً لا يأخذهم بغير حجة، وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا: جزاؤه أن يُفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم. وقد كان من دين ملك مصر ـ فيما ذكر ـ أن السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، فلو قالوا له ذلك، لم يمكنه أن يُلزمهم بما لا يلزم به غيرهم، فلذلك قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ ملك مصر، لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن إن شاء الله، أخذه بطريق آخر، ويجوز أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا أن يُهيئ الله سبباً آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة.

النوع الثاني: أن يلهمه أمراً مباحاً، أو مستحباً، أو واجباً يوصله إلى المقصود الحسن.

فيكون على هذا: إلهامه يوسف ـ عليه السلام ـ أن يفعل ما فعل، هو من كيده سبحانه أيضاً. فيكون قد كاد له نوعي الكيد. ولهذا قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾. وفي ذلك تنبيه على أن العلم الدقيق بلطيف الحيل الموصلة إلى المقصود الشرعي الذي يحبه الله تعالى ورسوله.. صفة مدح يرفع الله تعالى بها درجة العبد[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

أخبر عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾. فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا: هذا مقيس على أخيه، بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قرابة الأخوة ليس

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٠٨ ـ ١١٩).

بعلة للتساوي في السرقة، ولو كانت حقاً، ولا دليل على التساوي فيها، فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

لعله إنما قالها عند تلقيه لهم، ويكون دخولهم عليه في منزل اللقاء فقال لهم حينئذٍ: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. فهذا محتمل.

وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته، فالمعنى: ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمنين إن شاء الله[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

أخبر أنه يلطف لما يريده، فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه «اللطيف» يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه، وإلقائه في السجن، وبيعه رقيقاً، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه، وكذبها عليه، وسجنه، محناً ومصائب، وباطنها نعماً وفتحاً جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي [الله سبحانه] به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٨).
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٩٣).
(٣) شفاء العليل (٣٤).

والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الفراء وجماعة: (ومن اتبعني) معطوف على الضمير في (أدعو)، يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وهذا قول الكلبي، قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة.

ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، ثم يبتدئ بقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾، فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية: بأنه وأتباعه على بصيرة.

والقولان متلازمان، فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه.

وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقالات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء(٢).

وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة، فالقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقاً إلا من دعا على بصيرة، كما كان متبوعه يفعل ﷺ، فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهدايةً وإرشاداً وصبراً وجهاداً، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه(٣).

❁ ❁ ❁

---

(١) الفوائد (١٩٦).
(٢) مفتاح دار السعادة (١٦٧، ١٦٨).
(٣) مفتاح دار السعادة (٨٥).

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فعجب قولهم كيف ينكرون هذا. وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً!.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان وهو محض إنكار الرب، والكفر به، والجحد لإلٰهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨].

قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير.

وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها؛ كان ذلك نقصاناً من الولد. ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها. وقال أيضاً: الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها، وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر وهو تمام النقصان.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٢٦).

وقال الحسن: ما تغيض الأرحام: ما كان من سقط، وما تزداد: المرأة تلد لعشرة أشهر.

وقال عكرمة: تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل. فكل يوم رأت فيه الدم حاملٌ ازداد به في الأيام ظاهراً، فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً.

وقال قتادة: الغيض: السقط، وما تزداد: فوق التسعة أشهر. وقال: سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد، فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل.

تغيض وتزداد: فعلان متعديان مفعولهما محذوف، وهو عائد على «ما» الموصولة، والغيض: النقصان، ومنه غيض الماء.

والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى: هل هو ذكر أو أنثى؟

وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله (تعالى)، كما في الصحيح[1] عنه ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله». فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص.

وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه، كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضاً؛ كلما ذهب بدل جاء بدل آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبِّرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد[3].

□ □ □

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٧).

(٢) تحفة الودود (٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) الجواب الكافي (١٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فدلالة لفظها أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على عباده حتى يغيروا طاعته بمعصيته[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

إنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى وحده، ويقصد ويشكر ويحمد، ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، فتكون الدعوة الإلٰهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا ـ معرفة وذوقاً وحالاً ـ صح له مقام التبتل والتجريد المحض.

وقد فسر السلف[٢] «دعوة الحق»؛ بالتوحيد والإخلاص فيه، والصدق، ومرادهم هذا المعنى.

فقال علي رضي الله عنه، دعوة الحق: التوحيد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «شهادة أن لا إلٰه إلا الله».

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله، ودعوة الحق دعوة الإلٰهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

فاحتج على تفرده بالإلٰهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلٰهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧).

(٢) راجع: تفسير الطبري (١٣/ ١٢٨).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٩، ٣٠).

(٤) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [**الرعد**: ١٧].

قد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد، في حق المؤمنين:

[ففي] المثل المائي؛ شبه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب بالماء الذي أنزله من السماء، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل.

فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماء كثيراً، وقلب صغير يسع علماً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها.

ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغثاء، ونحوه مما يمر عليه السيل فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً يمر عليه متراكباً، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض، فيقذف الوادي ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شيء، ويبقى الماء الذي تحت الغثاء يسقي الله تعالى به الأرض، فيحيي به البلاد والعباد والشجر والدواب، والغثاء يذهب جفاء ويطرح على شفير الوادي.

فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله في القلوب، فاحتملته، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة، فطفا في أعلاها، واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء، ويزول شيئاً فشيئاً حتى يزول كله، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب يرده الناس، فيشربون ويسقون ويمرعون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال[١]: «مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به؛ فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكا الناس بها.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي القوة في أمر الله، والأبصار البصائر في دين الله ﷻ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه.

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل؛ ففجرت من النصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصاً، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل(١): هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس، فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه». فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة.

الطبقة الثانية: فإنها حفظت النصوص وكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقوها منهم؛ فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها، واتّجروا فيها، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ووردها كل بحسبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ(٢): «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وهذا عبد الله بن عباس(٣) حبر الأمة وترجمان القرآن، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه: (سمعت ورأيت). وسمع الكثير من الصحابة وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً.

قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار. وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن، بالموضع الذي فاق به الناس وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا،

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).

(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٣١).

ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وأين تقع فتاوي ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوي أبي هريرة[1] وتفسيره، وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درساً فكانت همته مصروفه إلى الحفظ، وبلغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها، وهكذا الناس بعده قسمان:

قسم حفاظ: معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا، ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه.

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها.

فالأول: «كأبي زرعة» و«أبي حاتم» و«ابن دارة»، وقبلهم كـ«بندار محمد بن بشار» و«عمرو الناقد» و«عبد الرزاق»، وقبلهم كـ «محمد بن جعفر غندر» و«سعيد بن أبي عروبة»، وغيرهم من أهل الحفظ والإتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص.

والقسم الثاني: كـ «مالك» و«الشافعي» و«الأوزاعي» و«إسحاق» و«الإمام أحمد بن حنبل» و«البخاري» و«أبي داود» و«محمد بن نصر المروزي»، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية.

فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً.

وأما الطائفة الثالثة: وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأساً، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

فالطبقة الأولى: أهل رواية ودراية.

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء، لا رواية ولا دراية ولا رعاية: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فهم الذين يضيقون الديار ويغلون الأسعار، إن همة

---

(١) انظر: سيرته الطاهرة ومناقبه العالية رضي الله عنه في سير أعلام النبلاء (٢/٥٧٨).

أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس.

ثم ضرب ﷻ مثلاً ثانياً، وهو المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

وهذا كالحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح، ويبقى خالصها فهو الذي ينفع الناس.

ولما ضرب الله ﷻ هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ورفع بهداه رأساً، وحكم من لم يستجب له، ولم يرفع بهداه رأساً، فقال:

* * *

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين الروحي والجسمي بالنور، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه، كما لا إضاءة بدونه، وكما أنه به حياة القلب فبه انفساحه وانشراحه وسعته، كما في الترمذي(١) عن النبي ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسخ وانشرح»،

(١) هو «الحكيم الترمذي» صاحب «نوادر الأصول»، وهو عنده عن ابن عمر، دون سند (١٢٥، ١٢٦)، والحديث ضعيف. رواه ابن جرير (١٢/ ٩٨)، وأشار الشيخ محمود شاكر لضعفه بأرقام (١٣٨٥٢ ـ ١٣٨٥٤) ورقم (١٣٨٥٦)، وبيّن أن مدار الخبر على «أبي جعفر»، وهو «عبد الله بن المسور» ضعيف كذاب.

انظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٥٠٤)، ورواه ابن المبارك في الزهد (١٠٦، ١٠٧)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٣٠٥)، والبغوي في تفسيره دون سند (٢/ ١٨٠)، وأشار السيوطي في الدر إلى أنه رواه: «.. عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر...» (٤/ ٣٥٤)، وفيه بيان من رواه غيرهم.

وقال الحافظ ابن كثير بعد ذكر لبعض روايات الحديث: «.. وهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً، والله أعلم»، تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٩) عند تفسيره الآية رقم (١٢٥) من سورة الأنعام، خَطَّأَ ذلك الشيخ محمود شاكر حفظه الله، لحال «أبي جعفر الهاشمي الكذاب» (١٢/ ٩٩)، وانظر لزاماً: ص(٣٤) من رسالة «القسطاس في تصحيح حديث الأكياس»، لأخي الشيخ «محمد عمرو» حفظه الله تعالى.

قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب، وهو نور ومصدره عن النور، ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور، كما في صحيح مسلم عن عائشة ﷺ عن النبي ﷺ[١] قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الشياطين من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

فلما كانت مادة الملائكة من نور، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدي الله ﷻ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في أهل عليين.

فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى الله ﷻ مع الملائكة.

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة فإنها لا تفتح لها أبواب السماء، ولا تصعد إلى الله تعالى، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وعنصرها؛ لأنها أرضية سفلية، والأولى علوية سمائية، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هي منه، وهذا مبين في حديث[٢] البراء بن عازب الطويل الذي رواه الإمام أحمد وأبو عوانة الإسفرائيني في صحيحه والحاكم وغيرهم، وهو حديث صحيح[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء، وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك، وشهادة المؤمنين عليهم[٤].

* * *

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد ﷺ (٤/ ٢٨٧). رواه أبو داود (١٣/ ٨٨) في السنة، باب: المسألة في القبر وعذاب القبر، والحاكم (١/ ٣٧)، وصححه على شرط الشيخين.

(٣) الوابل الصيب (٨٢ ـ ٨٧).

(٤) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٥١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه.

ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل.

ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه:

فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له، والقيام بطاعته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وحبه، وخوفه، ورجائه والتوبة إليه، والاستكانة له، والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله ﷺ بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين؛ بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، ذلك مما أمر به أن يوصل. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات؛ بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء؛ بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقاتهم.

وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله، بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا.

وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر.

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس؛ بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم، ونستحي منهم، كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجلّه ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل.

ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله، إلا بخشيته ومتى ترحلت الخشية من القلب؛ انقطعت هذه الوصلة.

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد، هو آخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه، وهو الصبر، فقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر، وهي الصلاة، فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم.

ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا، أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرؤون بالحسنة السيئة؛ فيحسنون إلى من يسيء إليهم، فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، وقد فُسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال النبي ﷺ[١]: «أتبع السيئة الحسنة تمحها». والتحقيق أن الآية تعم النوعين.

والمقصود: أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها: اشتملت على فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) حديث حسن. رواه الإمام أحمد ﷺ في مواضع منها: (٥/ ١٥٣ و٢٢٨). ورواه الترمذي (١٩٨٧)، والدارمي (٢٧٩١)، وحسنه الألباني.

(٢) عدة الصابرين (٢٩ ـ ٣١).

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[١]، أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراراً وارتياباً، ومنه قوله ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب»[٢]، أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان:

أحدهما: إنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله، ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه:

فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، وإذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت. ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئن.

والقول الثاني: إن ذكر الله هاهنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين.

فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله ـ وهو كتابه ـ من أعرض عنه قيّض له شيطاناً يُضله ويصده عن السبيل، وهو يحسب أنه على هدى.

---

(١) جزء من حديث صحيح عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، وأوله: «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لَا يرِيبُكَ فإن الصدق طمأنينة. . .»، رواه الترمذي (٢٥١٨).

(٢) صحيح، من حديث «أبي ثعلبة الخشني» رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بما يحل وما يحرم عليَّ، فصعد في البصر وصوبه، وقال: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب. . .» الحديث.

رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/ ١٩٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٥): «وفي الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات». وصححه الألباني رقم (٢٨٧٨) صحيح الجامع.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله ـ وهو كتابه ـ ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥ ـ ١٢٦].

وأما تأويل من تأوله على الحلف: ففي غاية البعد عن المقصود، فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب، والبر والفاجر. والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف.

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب[1].



(١) مدارج السالكين (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

سُورَةُ إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقد فسرت «أيام الله» بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي.

فالأول: تفسير ابن عباس، وأبيّ بن كعب، ومجاهد.

والثاني: تفسير مقاتل[(١)].

والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه التي ساقها على أوليائه؛ وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أياماً» لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب، وأيام الناس، أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام.

فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض، وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه؛ فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة؟[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٣/ ١٨٢).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٨، ٤٤٩).

والذكر رأس الشكر، والشكر جلّاب النعم وموجب للمزيد، قال بعض السلف رحمة الله عليهم: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول، فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً، وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، فصاحب الحق ـ لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره ـ مضطر إلى توكله على الله، ولا يجد بداً من توكله، فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه، بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه فهو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم.

وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فشبَّه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٦٠).

(٣) طريق الهجرتين (٢٣٩).

شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان؛ وكونها لغير الله ﷻ وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبول، وثلاثة مردودة.

فالمقبول: الخالص الصواب، فالخالص: أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله.

والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله، وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالهم، وما يعبدون من دون الله وقود النار[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦].

فشبه ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إلٰه إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضٍ لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كلمة طيبة: شهادة أن لا إلٰه إلا الله،

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

كشجرة طيبة: وهو المؤمن. أصلها ثابت قول: لا إلٰه إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء[1].

وقال الربيع بن أنس: كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابتُ الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علواً، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلٰهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدِّقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سُبُل ربه ذُللاً، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلماً كثيراً طيباً، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً

---

(١) أخرجها الطبري (١٣/٢٠٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٥)، والطبراني في الدعاء (٣/١٥٢٧).

وإثباتاً، متصفاً بموجبها، قائماً قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح[(١)].

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن. ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء، وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: أصلها ثابت وفرعها في السماء، قال: ذلك المؤمن، ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، قال: ذكره في السماء. ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مُشَبَّهة به، وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك.

ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

□ □ □

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به، وحكمته.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها: العلم، والمعرفة، واليقين، وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال، وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسَّمْت

(١) صحيح البخاري (١/ ١٧٥) في العلم، باب: قول المحدث: «حدثنا».

الصالح، والهدى، والدَّلِّ المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدَّلُّ والسَّمْت مشابه لهذه الأصول مناسب لها؛ علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس، علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشكت أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم»[(١)].

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده، أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة، أنه لا بد أن يخالطه دَغَل ونبت غريب، ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه، كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأذكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به؛ فإنه يفوته ربح كبير، وهو لا يشعر.

---

(١) لم أجده بعد بحث في مسند الإمام أحمد رضي الله عنه، ولم أر من أشار إلى أنه في المسند من مخرجي الحديث، وهو حديث صحيح.
أخرجه الحاكم (١/ ٤)، وقال: رواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن. مجمع الزوائد (١/ ٥٢).

فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله، لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ومن يختص برحمته.

□ □ □

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة[(١)]، فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عِرْق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جَنًى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق، ولا أعلاها مُونِق، ولا جنى لها، ولا تعلو، بل تُعْلَى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم؛ وجده كذلك، فالخسران: الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، [الذي هو كتاب الرب سبحانه].

قال الضحاك: ضرب الله مثلاً للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً، ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة: وهي الشرك، كشجرة خبيثة: يعني: الكافر، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك، ولا

---

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها القيامة.

وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلت من فوق الأرض.

* * *

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب الكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبّت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون عن القول الثابت فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبّت المؤمنين بفضله لإيمانهم[(١)].

□ □ □

وتحت هذه الآية كنز عظيم، من وُفِّق لمظنته وأحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه، فقد غنم، ومن حرمه فقد حُرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت.

ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أُمر به العبد، فبهما

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٤ ـ ٢٣٠).

يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلباً: أثبتهم قولاً.

والقول الثابت: هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوناً، وأقلهم ثباتاً، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

فما منح العبد منحة أفضل من منحه القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ[(١)]: «إن هذه الآية نزلت في عذاب القبر»[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه، إلا العلم بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل لأحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه، فجعله إيماناً علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

[جاء هذا على لسان إبراهيم ﷺ].

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١). (٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) عدة الصابرين (١٤٥).

فهاهنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام؛ ولأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء، ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له، إثابته على الثناء، وإجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

قيل: جزاء مكرهم عنده، فمكر بهم، كما مكروا برسله.

ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم.

وسمي جزاء المكر مكراً، وجزاء الكيد كيداً، تنبيهاً على أن الجزاء من جنس العمل[(٣)].

❁ ❁ ❁

(١) شفاء العليل (٥٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٤).

(٣) مفتاح دار السعادة (٥٧٩، ٥٨٠).

سُورَةُ الحِجرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١١ ـ ١٣].

وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين، هذا أحدهما.

والثاني: في سورة الشعراء في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ ـ ٢٠١].

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط، وقال أبو إسحاق: أي: كما فعل بالمجرمين الذي استهزؤوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: نسلكه.

فقال ابن عباس: سلكنا الشرك، وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: هو الضلال.

وقال الربيع: يعني: الاستهزاء.

وقال الفراء: التكذيب.

وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد: التكذيب والاستهزاء والشرك، كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم.

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء؛ فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر اتحاده.

فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟

قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذباً به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به.

وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به، فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم، فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؛ قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به، مؤمن به، مرضي به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه.

فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [**الحجر**: ٢١].

[هذا النص الكريم] متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب.

وكل محبوب لا يُحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾، واجتمع ما يراد له في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

---

(١) شفاء العليل (٦١، ٦٢).

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحب ويُراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره، بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه، ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال الحسن: معناه: صراط إليَّ مستقيم.

وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي: صراط موصل إليَّ.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء.

وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية.

وقيل: ﴿عَلَيَّ﴾ فيه للوجوب، أي: علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل، وهي: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر، أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله ويوصل إليه، قال طُفَيل الغنوي:

مضوا سلفاً قصْد السبيل عليهم ... وصرف المنايا بالرجال تشقلبُ

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصلونا. وقال الآخر:

فهن المنايا: أيُّ وادٍ سلكتُه ... عليها طريقي، أو علي طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء لا أداة «على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [لقمان: ٢٣]. وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ونظائر ذلك.

---

(١) الفوائد (١٩٦، ١٩٧).

قيل: في أداة ﴿عَلَىٰ﴾ سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٥]. وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى»، فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً، وكيف يكون مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة على ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة في الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [هود: ١١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]. فإنَّ طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

□ □ □

وفي قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ قول ثالث وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد نظير قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، كما يقال: طريقك عليّ، وممرك عليّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ولا معجز، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله ﷻ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط؛ لأنه صراط عليّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف.

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، فلا يخفى

الفرق بينهما سياقاً ودلالة، فتأمله، ولا يقال في التهديد: هذا صراط مستقيم عليَّ، لمن لا يسلكه، وليست سبيل المهدد مستقيمة فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله فلا يستقيم هذا القول البتة.

□ □ □

وأما من فسره بالوجوب، أي: عليَّ بيان استقامته والدلالة عليه، فالمعنى صحيح، لكن في كونه هو المراد بالآية نظر؛ لأنه حذف في غير موضع الدلالة، ولم يؤلف الحذف المذكور؛ ليكون مدلولاً عليه إذا حذف، بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة فإنه حذف مألوف معروف حتى إنه لا يذكر البتة، فإذا قلت: له درهم عليَّ، كان الحذف معروفاً مألوفاً، فلو أردت: عليَّ نقدُه، أو عليَّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت؛ لم يَسُغ، وهو نظير: عليَّ بيانه؛ المقدر في الآية، مع أن الذي قاله السلف أليق بالسياق، وأجلّ المعنيين وأكبرهما[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [**الحجر**: ٤٧].

أخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: «أخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ﷺ، ستون ذراعاً في السماء»[٢].

والرواية على خَلْق، بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعاً للخلق ـ بالضم ـ فهي جمع للخلق ـ بالفتح ـ، والمراد تساويهم في الطول والعرض والسن، وإن تفاوتوا في الحسن والجمال.

وأما أخلاقهم وقلوبهم، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «أول زمرة تلج الجنة»[٣]، وفيه: «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشية»[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [**الحجر**: ٧٠ ـ ٧٢].

أكثر المفسرين من السلف والخلف، بل لا يعرف عن السلف نزاعاً أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب ﷻ بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٥ ـ ١٨). (٢) رواه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).
(٣) رواه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤). (٤) حادي الأرواح (١١٠).

ولم يوافق الزمخشري[1] على ذلك فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط، وأنه من قول الملائكة، فقال: هو على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف، لا أهل التعطيل والاعتزال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لعمرك، أي: وحياتك، قال: وما أقسم الله بحياة نبي غيره.

والعَمر والعُمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف؛ لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم، وأيضاً فإن العَمر حياة مخصوصة، فهو عمر شريف عظيم، أهل أن يقسم به؛ لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم، ولا ريب أن عمره وحياته ﷺ من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يتحيرون، وإنما وصف الله للوطية بالسكرة؛ لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمرة، كما قال القائل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران[2]

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرسته، كأنها أخذت من السيما، وهي فعلاً من السمة، وهي العلامة.

وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي الترمذي مرفوعاً[3]: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ

---

(١) وذكر الزمخشري القول الثاني وكأنه أشار لضعفه، فقال: (وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه أقسم بحياته، وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له..) الكشاف (٢/٣١٧، ٣١٨). وانظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٨ ـ ٤٣٠).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٢٧٨، ٢٧٩) في تفسير القرآن، سورة الحجر.
وقال: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد روي عن بعض أهل العلم، وضعفه من جميع طرقه الألباني، كما في الضعيفة برقم (١٨٢١). فانظره مفصلاً، وقد يغني عنه قوله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم». صححه الألباني برقم (١٦٩٣) الصحيحة.

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، والله أعلم[١].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: المتفرسين، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: للناظرين.

وقال قتادة: للمعتبرين.

وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم؛ أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠].

فالأول: فراسة النظر والعين.

والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم، فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾. وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه.

واللحن[٢] ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»[٣].

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية.

ومنه قول الشاعر[٤]:

وحديث أَلَذُّهُ وهو مما ... يشتهي السامعون يوزن وزنا

مَنْطِق صائب وتَلْحَنُ أحيَاناً ... وخَيْرُ الحَديث ما كان لَحْناً

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٨، ١١٩).

(٢) انظر: لسان العرب (٧/ ٤٠١٣)، مادة: لحن.

(٣) رواه البخاري (٥/ ٣٤٠) في الشهادات، باب: كيف يستحلف، ومسلم (٤/ ٣٠٢) في الأقضية، باب: حكم الحاكم لا يغير الباطن.

(٤) البيتان في الأمالي، «لأبي علي القالي» (١/ ٥)، والأول جاء بلفظ:

وحَديثٍ أَلَذُّهُ هو مِمَّا ... تشتهيه النفوس يُوزَن وَزْنا

وراجع: اللسان (٧/ ٤٠١٤)، وغريب الحديث للخطابي (٢/ ٥٣٦).

والثالث: فساد المنطق قي الإعراب، وحقيقته: تغير الكلام عن وجهه، إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه، أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية.

والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال[1]: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ـ ثم تلا قوله تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾»[2].

□ □ □

وسمي المتفرس متوسماً؛ لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب، فيستدل بالعيان على الإيمان؛ ولهذا خصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء؛ لأنهم يستدلون بما يشاهدونه منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء، وبنوه هم نسخته وخلفاؤه، فكل قلب فهو قابل لذلك وهو فيه بالقوة، وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة، وبعث الله رسله مذكِّرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان، فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد فيصير نوراً على نور، فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم بزيادة مادته ودوامها، ولا يزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال.

ومن لم يقبل هدى الله، ولم يرفع به رأساً دخل قلبه في الغلاف والأكِنَّة، فأظلم، وعمي عن البصيرة، فحجبت عنه حقائق الإيمان، فيرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، والرشد غياً، والغي رشداً، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. و(الرين) و(الران) هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٢، ٤٨٣).

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله».

وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فالسؤال عن: ماذا كانوا يعبدون، هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عن: ماذا أجابوا المرسلين، سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها، هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

لما نزلت هذه الآية صدع ﷺ بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس.

ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة، وناداهم بسبِّ آلهتهم، وعيب دينهم، اشتد أذاهم له ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه، ونالوهم بأنواع الأذى، وهذه سنة الله في خلقه[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وهو الموت بإجماع أهل العلم كلهم، قال الحسن: لم يجعل الله لعبادة المؤمنين أجلاً دون الموت[٤].

* * *

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٠).
(٢) طريق الهجرتين (٢٩٧).
(٣) زاد المعاد (٢/ ١٠٨).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ٣١٦).

سُورَةُ النّحل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [**النحل**: ٢].

تطلق الروح على القرآن الذي أوحاه تعالى إلى رسوله.

وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [**النحل**: ٩].

أي: ومن السبيل جائر عن القصد وهي سبيل الغي(٢).

[وانظر تفسير الآية (٤١) من سورة الحجر (٢/ ١٠٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [**النحل**: ٣٠].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وقال في هذه السورة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال فيها عن خليله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.[النحل: ١٢٢].

فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع،

---

(١) الروح (٢٦٤).

(٢) حادي الأرواح (٦٨).

فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وإن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ [**النحل**: ٣٨ ـ ٣٩].

ذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعدما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذباً، وأنه كان على باطل، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه، فيخزيه ذلك أعظم خزي[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾ [**النحل**: ٤٣، ٤٤].

أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور، والذكر هاهنا: الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [**النحل**: ٤٩، ٥٠].

أخبر ـ سبحانه ـ عن سجود جميع المخلوقات، فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته وخضوعهم له بالسجود تعظيماً وإجلالاً[٤].

* * *

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٢).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٦١).
(٣) شفاء العليل (٣٩).
(٤) كتاب الصلاة (١٨٠).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [**النحل**: ٦٠].

وصف ٱلله سبحانه نفسه [في هذه الآية] بأن له المثل الأعلى.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم.

وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده؛ ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل، أي: أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض، ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟! تعالى الله عن قول المعطلين علواً كبيراً.

فمثل السوء لعادم صفات الكمال؛ ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده، وكلامه، وحكمته؛ لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها [كان] كاملاً، وهي الإيمان، والعلم، والمعرفة، واليقين، والعبادة لله، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر، والرضا، والشكر، وغير ذلك من الصفات، التي اتصف بها من آمن بالآخرة.

فلما سلبت تلك الصفات عنهم، وهي صفات كمال؛ صار لهم مثل السوء.

فمن سلب صفات الكمال عن الله، وعلوه على خلقه، وكلامه، وعلمه، وقدرته، ومشيئته، وحياته، وسائر ما وصف به نفسه، فقد جعل له مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلى، فإن مثل السوء هو العدم، وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب تعالى هو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى وبصره وسائر صفاته علياً؛ كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه.

بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإنْ لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى، مثل، أو نظير.

وهذا برهان قاطع على إثبات صفات الكمال وعلى استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور، والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق، مع الوحدة، فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفؤ له؛ فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤاً، وكان القهار واحداً، فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه.

□ □ □

فإن قلت: قد فهمت هذا وعرفته، فما حقيقة المثل الأعلى؟.

قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين[1]، واستشكلوا قول السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ العذاب والنار ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لم قيل للعذاب: مثل السوء، وللإخلاص: المثل الأعلى؟ قال: وقال قوم: المثل السوء، الصفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث، خوف العيلة، والعار، ولله المثل الأعلى، الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد، قال: وهذا قول صحيح، فالمثل كثيراً يرد بمعنى: الصفة، قاله جماعة من المتقدمين.

وقال ابن كيسان: مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥]. وقال ابن جرير[2]: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

□ □ □

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٧٣٥). (٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٥).

والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته. وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها فكل أهل الأرض معظمون له، مجلون له، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره، وأكمل وأعظم من كل سواه.

الثالث: ذكر صفاته وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل، كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها، وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤][١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ﴾ [النحل: ٦٩].

هل الضمير في (فيه) راجع إلى الشراب، أو راجع إلى القرآن؟ على قولين:

الصحيح: رجوعه إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس والحسن، وقتادة، والأكثرين، فإنه هو المذكور؛ والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله: «صدق الله»[٢] كالصريح فيه، والله تعالى أعلم[٣].

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٠ ـ ١٠٣٦).

(٢) يشير للحديث الصحيح: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقه عسلاً»، فقال له في المرة الثالثة: «فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً، فسقاه، فبرأ»، رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [**النحل**: ٧٥، ٧٦].

هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفي الحكم بنفي علته، وموجبه.

فإن القياس نوعان: قياس طَرْدٍ، يقتضي إثبات الحكم في الفرع؛ لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس، يقتضي نفي الحكم عن الفرع؛ لنفي علة الحكم فيه.

□ □ □

فالمثل الأول: ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، وينفق كيف يشاء على عبيده، سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً، يمينه ملأى، لا يغيضها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، مثل المؤمن في الخير الذي عنده، ثم رزقه منه رزقاً حسناً، فهو ينفق منه على نفسه، وعلى غيره سراً وجهراً، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز، لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد العقلاء؟

والقول الأول: أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسباً بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]. ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه: أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا نبه عليه

المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس رضي الله عنهما منبهاً على إرادته، لا أن الآية اختصت به.

فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله.

□ □ □

وأما المثل الثاني: فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه، ولما يعبد من دونه أيضاً، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة.

والله سبحانه حي قادر متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل ـ وهو الحق ـ يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راض به، آمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسواه، بل ينزه عن ضده، الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه، وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور.

وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني، والأمر القدري الكوني، وكلاهما عدل، لا جور فيه بوجه ما، كما في الحديث الصحيح: «اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك»(١). فقضاؤه: هو أمره الكوني. فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون؛ فلا يأمر إلا بحق وبعدل، وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل، وإن كان في المقضي المقدَّر ما هو جور وظلم، فالقضاء غير المقضي، والقدر غير المقدر.

ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم، وهذا نظير قول رسوله هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦](٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [**النحل**: ٧٨].

---

(١) رواه الإمام أحمد بسند صحيح (١/ ٣٧١٢)، ورواه الحاكم (١/ ٥٠٩)، وصححه على شرط مسلم.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢١١ ـ ٢١٣).

فهو في أصل الخلقة خلق خالياً ساذجاً لا علم له بشيء من المعقولات ولا المحسوسات البتة.

فأول ما يخلق فيه حاسة اللمس فيدرك بها أجناساً من الموجودات؛ كالحرارة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها، فاللمس قاصر عن الألوان والأصوات، بل هي كالمعدومة بالنسبة إليه.

ثم يخلق له البصر فيدرك به الألوان والأشكال والقرب والبعد والصغر والكبر والطول والقصر والحركة والسكون وغير ذلك.

ثم ينفتح له السمع فيسمع الأصوات الساذجة والنغمات، ثم يترقى في مدارك هذه الحاسة على التدريج حتى يسمع من البعد ما لم يكن يسمعه قبل ذلك.

ويتفاوت الناس في قوة هذين الإدراكين، وضعفهما تفاوتاً بيّناً، حتى يدرك الواحد ما يجزم الآخر بكذبه فيه، والمدرك مشاهد له لا يمكنه تكذيب نفسه فيه وذنبه عند المكذب له أنه اختص بإدراكه دونه.

ثم يخلق له الذوق فيدرك به تفاضل الطعوم من الحلاوة والحموضة والمرارة، وما بين ذلك ما لم يكن له به شعور قبل ذلك، وكذلك الشم هو أكمله وليس عنده من المعقولات عين ولا أثر ولا حس ولا خبر.

ثم يخلق فيه التمييز وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك في هذا الطور أموراً أخر زائدة على المحسوسات لم يكن يدركها قبل ذلك، ثم يترقى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل، وأن حكم الشيء حكم مثله، والضد لا يجتمع مع ضده، والنقيضان إذا صدق أحدهما كذب الآخر، ونحو ذلك من أوائل العلوم الضرورية.

ثم يترقى إلى طور آخر يستنتج فيه العلوم النظرية من تلك الضروريات التي تقدم علمه بها، ثم يترقى في هذا الطور من أمر إلى أمر فوقه وأغمض منه، نسبة ما قبله إليه كنسبة الحس إلى العقل.

ثم وراء ذلك كله طور آخر نسبة ما قبله إليه كنسبة أطوار الإنسان إلى طور العقل أو دون هذه النسبة، ينفتح فيه عين يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأمور العقل معزول عنها كعزل الحس عن مدركات العقل، وهذا هو طور النبوة الذي نسبة نور العقل المجرد إليه دون نسبة ضوء السراج إلى الشمس، فإنكارُ العقل لما يخبر به النبي عين الجهل، ولا مستند له في إنكاره إلا أنه لم يبلغه ولم يصل

إليه، فيظن أنه غير ثابت في نفسه[١].

□ □ □

وقد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطى السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ الآية.

واحتج أنه في بطن الأم لا يرى شيئاً، ولا يسمع صوتاً، فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة.

وليس ما قاله صحيحاً ولا حجة له في الآية؛ لأن الواو لا ترتيب فيها، بل الآية حجة عليه، فإن فؤاده مخلوق وهو في بطن أمه، وقد تقدم حديث[٢] حذيفة بن أُسيد.

والصحيح: إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها، وهذا وإن كان المراد به: العين والأذن؛ فالقوة السامعة والباصرة مودعة فيها، وأما الإدراك بالفعل فهو موقوف على زوال الحجاب المانع منه، فلما زال بالخروج من البطن عمل المقتضي عمله، والله أعلم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي: الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعه الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها؛ صورتها ومادتها وهيئاتها[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

---

(١) الصواعق (٣/ ٩٥٧).

(٢) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى (٢٦٤٤) في القدر، في كيفية خلق الآدمي.. والحديث: «عن حذيفة بن أُسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟...» الحديث.

(٣) تحفة الودود (٢٣٥).

(٤) شفاء العليل (٥٤، ٥٥).

[إنه] سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى معرفته، ومحبته، وتصديق رسله، والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم وهي سورة النحل.

فذكرهم بأصول النعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم؛ ليسلموا له فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم.

ثم أخبر عمن كفره، ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

قال مجاهد: المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لكان كذا وكذا، وقال الفراء وابن قتيبة[١]: يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا.

وقالت طائفة: النعمة هاهنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنكارها جحدهم نبوته، وهذا يروى عن مجاهد والسدي[٢]، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجلّ النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث، فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال: إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابراً عن كابر، جاحدٌ لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع الذين ذكرهما الملك بنعم الله عليهما، فأنكرا وقالا: «إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر فقال: إن كنتما كاذبين فصيركما الله إلى ما كنتما»[٣]، وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم، ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.

وأما قول الآخرين: لولا فلان لما كان كذا فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، وغايته أن تكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده والسبب لا يستقل

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص(٢٤٨).

(٢) ذكر هذه الأقوال في الآية ثم رجح كون المقصود بالإنكار للنعمة: النعمة عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم داعياً إلى ما بعثه بدعائه إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول الله ﷺ، وعما بعث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده، إذا لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده. تفسير الطبري (١٤/١٥٨).

(٣) رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

بالإيجاد، وجَعْلُهُ سبباً هو من نعم الله عليه وهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب، وقد ينعم بدونه فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسبيبته، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: بشفاعة آلهتنا فتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي مُحضَرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمه فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ **[النحل: ٨٨]**.

فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله، وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به، وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم وهؤلاء عكسهم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **[النحل: ٩٧]**.

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا، والحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين[٣].

---

(١) شفاء العليل (٣٦، ٣٧).
(٢) طريق الهجرتين (٣٨٠).
(٣) الجواب الكافي (١٧٧).

وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي، وبه يتحرك وبه يسكن، وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث[(١)].

□ □ □

ويغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة، حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء، والتفنن بأنواع الشهوات. ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام، فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد.

ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة.

ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده، ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً.

ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً.

وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب[(٢)].

---

(١) الجواب الكافي (٢٧٧، ٢٧٨).
(٢) مفتاح دار السعادة (٣٨).

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

ومعنى (استعذ بالله): امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ والعِيَاذ والمعَاذ. وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله ﷺ: «لقد عُذتِ بمعاذ»[٢]، وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب (أطيب اللحم عوذه) أي: الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها (عُوذ) كحمر، ومنه في حديث الحديبية: «معهم العُوذ المطافيل»[٣]، والمطافيل: جمع (مُطفِل)، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول[٤] ـ: استعار ذلك للنساء، أي: معهم النساء وأطفالهم.

ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي: قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها.

□ □ □

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك وجوه:

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٧).

(٢) رواه البخاري (٥٢٥٥). والحديث في (ابنة الجون): لما أُدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك... فذكره.

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٤) هو الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري رحمه الله تعالى، وانظر: جامع الأصول (٨/٣٠٣).
وانظر في معنى: «أعوذ» واشتقاقها، كتاب (إعراب ثلاثين آية من القرآن الكريم)، ص(٣ ـ ٥) للإمام (ابن خالويه) رحمه الله تعالى، وغيرها من كتب التفسير.

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، يُذهب ما يُلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب؛ ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكن منه ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب وقد خلا من مزاحم ومُضادٌ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحَسَّ بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله ﷻ منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن؛ وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلْحَظٌ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف وهو محصل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته، كما في حديث أُسيد بن حُضَير[1]: لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك الملائكة»، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجلب على القارئ بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، و«الله تعالى أشد أَذَناً للقارئ

---

(١) رواه مسلم (٧٩٦).

الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته»[١]، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مفاجأة الله تعالى واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى، إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليها، فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه[٢].

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ[٣]: «إن شيطاناً تَفَلَّتَ عليَّ البارحة، فأراد أن يقطع عليَّ صلاتي..» الحديث. وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد[٤] من حديث سَبْرة بن أبي الفاكه: أنه سمع النبي ﷺ

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦/ ١٩)، وابن ماجه (١/ ٤٢٥) برقم (١٣٤٠) في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: حسن الصوت بالقرآن. وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد حسن لقصور درجة ميسرة مولى فضالة وراشد بن سعيد عن درجة أهل الحفظ والضبط... (١/ ٤٣٦) مصباح الزجاجة.
وضعفه الألباني كما في ضعيف سنن ابن ماجه، ص(٩٩)، والحاكم (١/ ٥٧٠، ٥٧١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي: (بل هو منقطع).

(٢) هذا المعنى فيه إشكال، فهو مرتبط بقصة الغرانيق المكذوبة على النبي ﷺ، وانظر ـ إن رغبت ـ: تفصيل ذلك في كتاب (الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية)، نشره المكتب الإسلامي [الشامي].

(٣) رواه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

(٤) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١، ٢٢) في الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: إسناده حسن، إلا أن في إسناده اختلافاً... وصححه ابن حبان (٧/ ٥٧)، الإصابة (٤/ ١٢٠).
وصححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٦٤٨)، وقد مر (٢/ ١٩٦).

يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال ـ فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد».

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم»، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ـ فهو بالرصد ـ ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ وإن كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

□ □ □

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[١].

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى صلاته استفتح ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من همزه ونفخه ونفثه»[٢].

---

(١) انظر: مسائل الإمام أحمد رضي الله عنه، برواية ابنه عبد الله، ص(٧٦).

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٥٠)، وأبو داود (٢/ ٤٧٧، ٤٧٨) في الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح سبحانك اللهم وحمدك، والترمذي (٢/ ٩) في الصلاة، باب: ما =

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وهو رواية عن أحمد؛ بظاهر الآية، وحديث ابن المنذر وعن أحمد من رواية عبد الله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» لحديث أبي سعيد.

وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»[١].

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم».

وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ظاهره أنه يستعيذ بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وقوله في الآية الأخرى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف (إن)، لأنه سبحانه هكذا ذكر[٢].

□ □ □

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان،

= يقول عند افتتاح الصلاة، وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى، ورواه الدارمي (١/ ٢٢٦) في الصلاة، باب: ما يقال عند افتتاح الصلاة. وانظر: إرواء الغليل (٢/ ٥١). وانظر: المسألة في المغني (٢/ ١٤٥).

(١) رواه أبو داود (٢/ ٤٩٤) في الصلاة، باب: من لم ير الجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم. وقال: هذا حديث منكر.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩١ ـ ٩٥).

ف ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً؛ لأن صاحبها يتسلط بها تسلط القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين.

قال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢].

وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه[1].

□ □ □

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطاناً ـ بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]؟

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٩٨).

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم(١).

□ □ □

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله ﷻ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له سلطان على من تولاه وأشرك مع الله فهؤلاء رعيته، فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [**النحل**: ١٠١].

تأمل حسن الاعتراض وجزالته [في الآية الكريمة].

فقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟

ومنها: أن الذي بُدل وأتي بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلاً منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [**النحل**: ١٢٠ ـ ١٢٢].

فالأمة: هو القدوة المعلم للخير.

والقانت المطيع لله الملازم لطاعته.

والحنيف: المقبل على الله المعرض عما سواه، ومن فسره بالمائل فلم يفسره

---

(١) عدة الصابرين (٢٦). (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٩).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٢٤).

بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠]. فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾؛ ولهذا فسرت (مخلصاً).

فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه، بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك:

الأول: توحيد الطلب.

والثاني: توحيد المطلوب[١].

□ □ □

هذه أربعة أنواع من الثناء.

[الأول]: افتتحها بأنه أمة، والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

(أحدهما): أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إماماً كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]. أي: بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة.

(الثاني): أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل؛ بحيث بقي فيها فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى ومنه الحديث: «أن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٢]، فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة، ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله قانتاً لله، قال ابن مسعود: القانت المطيع والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

---

(١) جلاء الأفهام (١٥٥).

(٢) رواه الإمام أحمد ﷺ (٣/١١٦، ١١٧) عن سعيد بن زيد ﷺ، وصححه أحمد شاكر.

الثالث: قوله حنيفاً، والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله شاكراً لأنعمه، والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة، والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات، كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [**النحل**: ١٢٥].

جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة.

والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن.

هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان: أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات، وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها[2].

[وقد] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما (الموعظة) فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك (الجدال) قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن، ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٨٩، ١٩٠). (٢) مفتاح دار السعادة (١٦٧).

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين(١).

□ □ □

فمراتب الدعوة ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو:

فإنه إما أن يكون طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره، إذ عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال.

وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق، ولكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

إحداهما: أن يرد عن باطله، ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن يَنْكَفَّ شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

الصبر المحمود نوعان: صبر لله، وصبر بالله، وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل؟

فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية، وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل؛ ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبرراً وتقرباً إلى الله؛ لأنه نذر له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين؛ لأنه حلف به.

فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته؛ ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنهي من الشرك، دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦، ١٢٧٧).

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به، والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة، كقوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي».

وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له، وتحمل الأثقال لأجله، كما في الأثر الإلٰهي، يعني: وما يتحمل المتحملون من أجلي، فدل قوله: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر.

وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً وتبليغاً، وعلى الحكم القدري احتمالاً له واضطلاعاً به، من لم يكن الله معه؟ فلا يطمع في درجة الصبر المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله[١].

❀ ❀ ❀

(١) عدة الصابرين (٤٥، ٤٦).

سُورَةُ الإسراءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

فذكره بالعبودية في مقام الإسراء[١].

وفي قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ دون بعث بعبده وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، فهي في قوله: هاجر بأهله وسافر بغلامه، وليست للتعدية، فإن أسرى يتعدى بنفسه يقال: سرى به وأسراه؛ وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان ﷺ إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر»[٢].

فإن قيل: فهذا المعنى يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل: سرى بعبده، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة:

أحدهما: أنهما بمعنى: وأن أسرى، لازم كَسَرى، تقول: سرى زيد وأسرى بمعنى: واحد، وهذا قول جماعة.

والثاني: أن أسرى متعد ومفعوله محذوف، أي: أسرى بعبده البراق، هذا قول السهيلي[٣] وغيره.

ويشهد للقول الأول قول الصديق[٤]: أسرينا ليلتنا كلها ومن الغد، حتى قام قائم الظهيرة.

والجواب الصحيح: أن الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيئان:

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٣). (٢) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٣) نص كلام السهيلي رحمه الله تعالى: أي: جعل البُراق يَسْري، كما تقول: أمضيته، أي: جعلته يمضي؛ لكن كثر حذف المفعول لقوة الدلالة عليه؛ أو للاستغناء عن ذكره. . . وراجع: هذا المبحث الجليل في الروض الأنف (٣/ ٤١٢).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩م).

أحدهما: صدور الفعل من فاعله.

الثاني: مصاحبته لما دخلت عليه الباء، فإذا قلت: سريت بزيد وسافرت به كنت قد وجد منك السرى، والسفر مصاحباً لزيد فيه، كما قال:

ولقد سريت على الظلام بمعشر

ومنه الحديث: «أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها»[١].

وأما المتعدي بالهمزة: فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] ونظائره.

فإذا قرن هذا المتعدي بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة من الباء، ولو أتى فيه بالثلاثي فهم منه معنى المشاركة في مصدره وهو ممتنع، فتأمله[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضي له أنه عامله، وما هو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه[٣].

وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائره: عمله وما قدر عليه، فهو ملازمة أينما كان وزائل معه أينما زال.

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عمله. زاد مجاهد: وما كتب له. وقال قتادة أيضاً: سعادته وشقاوته بعمله.

قال ابن جرير[٤]: فإن قال قائل: فكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت؟ ولم يقل: في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟

قيل: إن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى

---

(١) رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠). (٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٢، ٢٠٣).
(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠). (٤) المصدر نفسه (١٥/ ٥١).

الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

وقال الفراء: الطائر معناه: عندهم العمل.

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه.

وأما قوله: في عنقه، فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي: لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق، قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا وقلدتك كذا، أي: صرفته نحوك وألزمتك إياه، ومنه قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق. وقيل: إنما خص العنق؛ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل فأضيف إلى الأعناق.

قالت القدرية: إلزامه ذلك وسمه به وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي والخبر عنه، لا أنه ألزمه العمل فجعله لازماً له.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة وهو خلاف حقيقة اللفظ، وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم، وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها، والقرآن بريء من ذلك، وبالله التوفيق[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

هذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء.

والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه.

---

(١) شفاء العليل (٦١).

وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين:

أحدهما: أمرناهم بطاعتنا.

الثاني: فخالفونا أو عصونا، ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه، كقولك: أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك هذه القرية أمره المذكور، ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل: أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك.

قيل: هذا يبطل بالوجه:

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين، بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا.

الوجه السابع: أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم؛ لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]. فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدرياً لا شرعياً دينياً بالفسق في القرية، فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله: بالإهلاك[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ

---

(١) شفاء العليل (٢٨١).

جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩].

[انظر في تفسيرهما: الآيتان: ١٥، ١٦ من سورة هود (ج٢ ص٤٧)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

مذموماً لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذموماً منصوراً، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

علل النهي في الموضعين[٢] بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلاً للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: (لا تقربوا الزنا فإنه يقول لكم: لا تقربوه)، أو (فإنه منهي عنه)، وهذا محال من وجهين:

أحدهما: أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة.

والثاني: أنه تعليل للنهي بالنهي[٣].

فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا»[٤]. ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة[٥].

* * *

(١) مدارج السالكين (١/٤٥٨).
(٢) والموضع الآخر في الأعراف في الآية (٣٣).
(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٣، ٣٣٤). (٤) البخاري (٣٨٤٩).
(٥) الجواب الكافي (٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فقد أخبر سبحانه أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده، ونهاه أن يقفو، أي: يتبع ما ليس له به علم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

[سبق هذه الآية] ذكر توحيده، وذكر المناهي التي نهاهم عنها والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم بالآية الكريمة.

أي: مخالفة هذه الأوامر، وارتكاب هذه المناهي سيئه مكروهة لله.

فتأمل قوله: ﴿سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: أنه سيئ في نفس الأمر عند الله حتى لو لم ينزل به تكليف؛ لكن سيئه في نفسه عند الله مكروهاً له، وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أنْ كرهه، ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهاً لله، إذ لا معنى للكراهة عندهم[٢] إلا كونه منهياً عنه، فيعود قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إلى معنى كل ذلك نهي عنه عند ربك، ومعلوم أن هذا غير مراد الآية.

وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سبباً للنهي عنه؛ ولهذا جعله علة وحكمة للآمر، فتأمله، والعلة غير المعلول[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

فقيل: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخنا[٤] رضي الله عنه: والصحيح أن المعنى: لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له، قال: ويدل على هذا وجوه:

---

(١) الكلام في مسألة السماع (٢٣٦). (٢) أي: نفاة الحكمة في الأمر والنهي.
(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٦).
(٤) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما هو معلوم.

منها: قوله تعالى ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ترجون رحمتي، وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

الثاني: أنه سبحانه لم يقل: لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: ﴿لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى، كقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

والثالث: أنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾، وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه[1]؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ **[الإسراء: ٤٥]**.

وقوله: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجاباً يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، وبينه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وهذه الثلاثة[2] هي الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فأخبر سبحانه أن ذلك جعله.

فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقال الكلبي: الحجاب هاهنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله، بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه.

---

(١) الجواب الكافي (٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) الثلاثة: هي: الحجاب، والأكنة، والوقر.

ووصفه بكونه مستوراً، فقيل: بمعنى: ساتر.

وقيل: على النسب، أي: ذو ستر.

والصحيح: أنه على بابه، أي: مستوراً عن الأبصار فلا يرى[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

فتأمل ما أُجيبوا به على كل سؤال على التفصيل.

فإنهم قالوا: أولاً: إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟

فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقاً جديداً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد، أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديداً، فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً؟

وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما؛ لكان قادراً على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال.

ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها، بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال؟

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [الإسراء: ٥١].

وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨].

فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلاً؛ انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج ـ بمثل ذلك ـ وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٢].

---

(١) شفاء العليل (٩٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/٤٧٨ ـ ٤٨٠).

فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل واستلزامه بمدلوله استلزاماً لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالين والجواب عنهما أبلغ جواب وأصحه وأوضحه، فللّه ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

فالشيطان ينزغ بينهم إذا كلم بعضهم بعضاً بغير التي هي أحسن، فربَّ حرب وقودها جثث وهام، أهاجها القبيح من الكلام.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي»[٢].

وخبثت ولقست وغثت متقاربة المعنى، فكره رسول الله ﷺ لفظ «الخبث» لبشاعته، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه، وإن كان بمعناه؛ تعليماً للأدب في المنطق، وإرشاداً إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح في الأقوال كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار السالكين، وهي: الخوف والرجاء والمحبة.

فجمع [في الآية الكريمة] بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه، وفعل ما يحبه، ثم يقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾.

فذكر الحب والخوف والرجاء، والمعنى: إن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟[٤].

* * *

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧٩)، ومسلم (٢٢٥٠).

(٣) الطرق الحكمية (٤٩).

(٤) طريق الهجرتين (٢٦٢، ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]:

أي: مبينة موجبة للتبصر. وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً. يقال: أبصرته، بمعنى: أريته، وأبصرته، بمعنى: رأيته.

فمبصرة في الآية بمعنى: مرئية، لا بمعنى: رائية، والذين ظنوها بمعنى: رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها.

فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيعدى بالباء تارة والهمزة تارة، ثم يقال: أبصرته كذا، أي: أريته إيّاه، كما يقال: بصرته به، وبصر هو به.

فهٰهنا بَصيرة، تبصِرة ومُبصِرة، فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر، مثل التذكرة، وسمي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له، كما كان تبعاً في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به.

وانتصب جزاءً موفوراً عند ابن مالك على المصدر وعامله عنده المصدر الأول، قال: والمصدر يعمل في المصدر تقول: عجبت من قيامك قياماً، ويعمل فيه الفعل نحو: قام قياماً، واسم الفاعل كقوله:

فأصبحت لا أقرب الغانيات   مزدجراً عن هواها ازدجاراً

واسم المفعول هو مطلوب طلباً.

وبعد، ففي نصب جزاء قولان آخران:

أحدهما: إنه منصوب بما في معنى: فإن جهنم جزاؤكم من الفعل فإنه متضمن لتجازون وهو الناصب جزاء.

والثاني: إنه حال، وساغ وقوع المصدر حالاً هاهنا؛ لأنه موصوف، ذكر

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٩، ١٧٠).

الزمخشري[(١)] هذين القولين، وهذا كما تقول: خذ عطاءك عطاءً موفوراً.

والذي يظهر في الآية أن جزاءً ليس بمصدر، وإنما هو اسم للحظ والنصيب فليس مصدر جزيته جزاء، بل هو كالعطاء والنصيب؛ ولهذا وصفه بأنه موفور، أي: تام لا نقص فيه، وعلى هذا فنصبه على الاختصاص، وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة، وهذا كما قال الزمخشري[(٢)] وغيره في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ٧]، إلى قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]. قال: نصبه على الاختصاص، أي: أعني: نصيباً مفروضاً، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكدة كقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[(٣)] [النساء: ١١، التوبة: ٦٠].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي أخبرنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾، قال: كل داعٍ إلى معصية[(٤)].

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية؛ ولهذا فُسر صوت الشيطان به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي أخبرنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: استزل منهم من استطعت، قال: وصوته الغناء والباطل[(٥)].

وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال: صوته هو المزامير.

ثم روى بإسناده عن الحسن البصري قال: صوته هو الدف. وهذه الإضافة إضافة تخصيص، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك، فكل متكلم بغير طاعة الله ومصوتٍ بيراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل فذلك صوت الشيطان، وكل ساعٍ في

---

(١) انظر: تفسير (الكشاف) (١/ ٢٤٩)، وفيه زيادة عن المنقول هنا.

(٢) انظر: تفسير (الكشاف) (١/ ٢٤٩)، وفيه زيادة عن المنقول هنا.

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٨٥، ١٨٦).

(٤) ورواه الطبري (١٥/ ١١٨).

(٥) المصدر نفسه.

معصية الله على قدميه فهو من رجله، وكل راكب في معصية الله فهو من خيالته.

كذلك قال السلف، كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «رَجْلُهُ كل رجل مشت في معصية الله».

وقال مجاهد: كل رجل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجله.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورَجْلاً من الجن والإنس[(١)].

وصوت الشيطان كل صوت في غير طاعة الله نسب إلى الشيطان لأمره به ورضاه به، وإلا فليس هو الصوت نفسه، فصوت الغناء وصوت النوح وصوت المعازف من الشبَّابات والأوتار، وغيرها كلها من أصوات الشيطان التي يستفز بها بني آدم فيستخفهم ويزعجهم.

ولهذا قال السلف في هذه الآية: «إنه الغناء»[(٢)]، ولا ريب أنه من أعظم أصوات الشيطان التي يستفز بها النفوس ويزعجها ويقلقها، وهو ضد القرآن الذي تطمئن به القلوب، وتسكن وتخبت إلى ربها، فصوت القرآن يسكن النفوس ويطمئنها ويوقرها، وصوت الغناء يستفزها ويزعجها ويهيجها.

وكذلك صوته الذي يستفز به النفوس عند المصيبة، وهو النَّوح، فيستفزها بهذا الصوت إلى الحزن والأسف والسخط بما قضى الله، ويستفزها بذلك الصوت إلى الشهوة والإرادة والرغبة فيما يبغضه الله.

فينهاها بصوت النوح عما أمرها الله به، ويأمرها بصوت الغناء بما نهاها الله عنه.

وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أنه يحتنك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً، وهي استفزازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم، فكل راكب في معصية الله فهو من خيالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجالته، وكل مال أخذ من غير حله وأخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولد من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه[(٣)].

* * *

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) كمجاهد رحمه الله. أخرجه الطبري (١٥/ ١١٨). وانظر: تفسير الآية رقم (٦) من سورة لقمان.

(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٧٩ ـ ٣٨١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فسبحان من ألبسه خلَع الكرامة كلها، من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

فالتثبيت فعله [تعالى]، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبِت، وعبده الثابت(٢).

أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أي: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة(٣).

فضرورته ﷺ إلى ربه، وفاقته إليه، بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

قيل: يشهده الله ﷻ وملائكته.

وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر؛ وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل، فيشهدها ملائكة الليل والنهار؛ واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٣).
(٢) شفاء العليل (٥٩).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٣٣).
(٤) طريق الهجرتين (١٠).

النهار في صلاة الفجر» يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1]، رواه البخاري في الصحيح.

قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا وهو: أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة، فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة وهي شهادة حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماء الدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد: حدثني زيادة بن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد الأنصاري، عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، فيفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث، وهم: النبيون والصديقون والشهداء، ثم يقول: طوبى لمن دخلك. ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض، فيقول: قومي بعزتي ثم يطلع إلى عباده فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا من سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر؛ ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده الله ﷻ، وملائكته: ملائكة الليل والنهار»[2].

ففي هذا الحديث: أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر، وعلى هذا، فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له، وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر، ولا سيما هو معلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه.

وفي لفظ: «حتى يضيء الفجر».

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) إسناده ضعيف. رواه الطبري في التفسير (١٥/ ١٣٩)، والطبراني في (كتاب الدعاء) برقم (١٣٥)، والدارقطني في (كتاب النزول)، ص(١٥١)، كلهم من طريق (محمد بن زيادة الأنصاري)، منكر الحديث، كما في التقريب (١/ ٢٧١).
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، والبزار بنحوه وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث. (١٠/ ١٥٤، ١٥٥).
تنبيه: أحاديث النزول صحيحة ثابتة عند الشيخين وغيرهما، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي لفظ: «حتى يسطع الفجر»[١]، وذلك هو وقت قراءة الفجر.

وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي ﷺ: «يقرأ فيها بالستين إلى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس»[٢]، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت؛ لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص، مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحاً به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح. رواه الدارقطني في (كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا) من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح»[٣].

رواه عن محمد جماعة منهم سليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل، كلهم قال: «أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر»[٤]، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد، وإن لم تكن محفوظة، وكانت من شك الراوي: هل قال هذا أو هذا؟ فقد قدمنا أنه لا

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٤٤٦، ٤٤٧) بلفظ: «حتى يسطع الفجر»، من طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، و(إبراهيم الهجري) فيه لين، كان يرفع الموقوفات، كما في التقريب (١/ ٤٣).
ورواه الدارقطني في كتاب النزول، ص(٩٩) من طريقه أيضاً، ورواه الإمام أحمد (١/ ٣٨٨ ـ ٤٠٣)، وأبو يعلى (٩/ ٢١٩) بلفظ: «حتى يطلع الفجر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ورجالهما رجال الصحيح) (١٠/ ١٥٣).

(٢) رواه البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥).

(٣) الدارقطني في كتاب النزول، ص(١٠٣)، والإمام أحمد (٢/ ٥٠٤)، ورواه الدارمي (١/ ٢٨٦) في الصلاة، باب: ينزل الله إلى سماء الدنيا، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٨) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) انظر هذه الطرق كلها في: (كتاب النزول) من (١٠٢) وما بعدها. واللفظة ثابتة ـ إن شاء الله تعالى ـ كما سبق.

منافاة بين اللفظين، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر؛ وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود.

كما رواه يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ﷻ يمهل، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى هذه السماء، ثم أمر بأبواب السماء ففتحت ثم قال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داعٍ فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مستغيث أغيثه؟ هل من مضطر أكشفُ عنه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا ثم يصعد إلى السماء»[١].

قال الدارقطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة.

والمقصود: ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها، والله أعلم[٢].

□ □ □

وفُسر الدلوك بالزوال وفُسر بالغروب، وحكيا قولين في كتب التفسير، وليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معاً، فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها؛ ولهذا الميل مبدأ ومنتهى فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا يتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه، ومثاله ما تقدم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وإن ذلك ليس باختلاف، بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ **[الإسراء: ٧٩].**

---

(١) الدارقطني في (كتاب النزول)، ص(١٣٣)، وأما قوله: (زاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة)، فهذه الزيادة وهي «ثم يصعد إلى السماء» مما تفرد بها «يونس» عن أبيه، فخالف رواية الثقات مثل (منصور، وشعبة، ومعمر وأبي عوانة) وغيرهم، كما في كتاب النزول نفسه.
خاصة أن (يونس فيه غفلة وفي حديثه اضطراب، مع كونه صدوقاً، ولكن ليس مثل مسعر وشعبة)، كما في ميزان الاعتدال للذهبي (٤/ ٤٨٢، ٤٨٣). وانظر: السير (٧/ ٢٦)، والحديث رواه مسلم (٢/ ٤٠٩) في المساجد، باب: صلاة الليل، والإمام أحمد رحمه الله تعالى برقم (٨٩٦٢ و١١٣١٥)، وأبو عوانة (٢/ ٢٨٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٣) المحققة.

(٢) طريق الهجرتين (١٩٧ ـ ١٩٩).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٣).

قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضاً عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة، كما أمره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ١، ٢]. ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾. فلو كان المراد به التطوع، لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ زيادة في درجاته، وفي أجره؛ ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح، ومكفر للسيئات، وأما النبي ﷺ، فقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل على زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير.

قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: زيادة في الثواب ولغيره كفارة لذنوبه.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة فهو نافلة.

من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها[١].

حدثنا محمد بن نصر، حدثنا عبد الله، حدثنا عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي عثمان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ[٢].

وذكر عن الضحاك قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.

وذكر سُليم بن حيان، حدثنا أبو غالب، حدثنا أبو أمامة، قال: إذا وضعتَ الطهورَ مواضعه، قمتَ مغفوراً لك، فإن قمت تصلّي، كانت لك فضيلة وأجراً، فقال رجل: يا أبا أمامة، أرأيت إن قام يصلّي تكون له نافلة؟ قال: لا، إنما النافلة للنبي ﷺ، فكيف يكون له نافلة، وهو يسعى في الذنوب والخطايا؟! تكون له

---

(١) رواه الطبري (١٣/ ١٤٣)، وتعقبه. وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٢٣).

(٢) انظر: مختصر قيام الليل، ص(١١)، وأصله لمحمد بن نصر المروزي، واختصره المقريزي.

فضيلة وأجراً[(١)].

قلت: والمقصود أن النافلة في الآية، لم يُرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب، والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافياً لما دلَّ عليه الأمر من الوجوب[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

أمر رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال: ﴿وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته، بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر.

ومخرج الصدق: كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة، وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٥٥)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٢٤).
(٢) زاد المعاد (١/ ٣٢٢، ٣٢٣).

رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ولرسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب أصابهم معه ما أصابهم.

فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله، فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك، يريد أن لا يكون المخرج مخرج صدق، ولذلك فسر(١) مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء الكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن(٢). فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وفاقاً، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ويراد به الجارحة نفسها كما في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة(٣).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٤٨). (٢) تفسير الطبري (١٦/ ٩٣).

(٣) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١١/ ٨٠ ـ ٨٣)، ورجح الطبري أن الصواب قول من =

وحقيقة القدم: ما قدموه، وما يقْدِمُون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ: فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى، ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله.

فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

و(من) هنا لبيان الجنس، لا للتبعيض. فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء للقلوب من داء الجهل، والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم، ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

معنى الآية: كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها: عامل على ما يناسبه، ولا يليق به سواه، ومحب الصور: عامل على ما يناسبه ويليق به.

فكل امرئٍ يهفو إلى ما يحبه وكل امرئٍ يصبو إلى ما يناسبه

فالمريد الصادق المحب لله: يعمل ما هو اللائق به والمناسب له، فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به، والأنسب لها[3].

= قال: معناه: «أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب..»، وإن كان جمع ابن القيم بين الأقوال حسناً جيداً.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢).

(٢) الجواب الكافي (٤).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٧١).

والنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من كل ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها.

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه، والتودد إليه والحياء منه، والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي القرآن منه كثير.

كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]. أي: مأموره الذي قدره وقضاه وقال له: كن فيكون.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١]. أي: مأموره الذي أمر به من إهلاكهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما، وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر.

وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم[(٢)] على أن الروح المسؤول عنها في الآية

---

(١) الفوائد (١٧٣، ١٧٤).

(٢) وتفاسير السلف أيضاً موقوفة، وليس فيها شيء مرفوع لبيان المراد بالروح في قوله تعالى هنا. وانظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٥٦).

=

ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء يكرهونه، وقال بعضهم: نسأله. فقام رجل فقال: يا أبا القاسم: ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه فقمت فلما تجلى عنه قال: «﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾»[1].

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس.

وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة[2].

□ □ □

والروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

= وقال الحافظ المدقق ابن حجر رحمه الله تعالى: وجنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسؤول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]. قال: «وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفساً»، الروح، ص(١٥٠ ـ ١٥٤)، قال ابن حجر: «كذا قال، ولا دلالة في ذلك لما رجحه، بل الراجح الأول، فقد أخرج الطبري (١٥/ ١٥٦) من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه القصة أنهم قالوا عن الروح: وكيف يعذب الروح الذي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ فنزلت الآية».

فتح الباري (٨/ ٢٥٥، ٢٥٦) التفسير، باب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾.

قلت: ولكن هذا النقل عن ابن عباس مسلسل بالضعفاء، كما حقق ذلك الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى في تحقيقه على الطبري (١/ ٢٦٣، ٢٦٤) رقم (٣٠٥)، وقد ذهب الشوكاني إلى أنها «الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته» ورجحه كما في تفسيره (فتح القدير) (٣/ ٢٥٤)، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٢) وفسر الرازي الآية بناءً على أن الروح المسؤول عنها هي روح بني آدم التي هي سبب الحياة، وأورد من كلام الفلاسفة أموراً عجيبة وغريبة. التفسير الكبير (٢١/ ٣٠) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وسمى الوحي روحاً؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الثالث: جبريل كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وهو روح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا: بأنها من أمر الله، وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، وأنها الروح المذكور في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

الخامس: المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة[(١)(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

---

(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح، المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا، وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع...»اهـ. مختصراً من فتح القدير (٣/ ٢٥٤) فراجعه، فإنه مفيد، والله أعلم.

(٢) الروح (١٥٠ ـ ١٥٤).

جاء هذا رداً على الذين قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

أي: مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع، ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبط عليه أمر المعاد، وبقي منه في أمر مريج.

والمقصود: أنه دلهم سبحانه بخلق السماوات والأرض على الإعادة والبعث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسله، وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته؛ ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك: بأنه كافر بربه، جاحد له، ولم يقر برب العالمين فاطر السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٥].

وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦]، فقال له: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف: ٣٧][(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

أي: هالكاً، على قراءة من فتح التاء[(٢)] وهي قراءة الجمهور، وضمها الكسائي وحده.

وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقق كفر فرعون وعناده، ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٦، ١٩٧).
(٢) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، ص(٣٨٥) وانظر: الطبري (١٥/ ١٧٤).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤]. فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين، وهو أقوى العلم ظلماً منهم وعلواً لا جهلاً[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة: «يا الله»، ومرة: «يا رحمٰن»، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلٰهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده يا رحمٰن يا رحيم، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾[٢].

وقيل: إن الدعاء هاهنا بمعنى: التسمية كقولهم: دعوت ولدي سعيداً وادعه بعبد الله ونحوه.

والمعنى: سموا الله أو سموا الرحمٰن، فالدعاء هاهنا بمعنى: التسمية،وهذا قول الزمخشري[٣]، والذي حمله على هذا قوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، فإن المراد بتعدده معنى، أي: وعمومها هاهنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمٰن فله الأسماء الحسنى، أي: فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في (له) يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية. وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد. بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى: تسمُّوا، فتأمله، والمعنى: أيما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم، والله أعلم[٤].

* * *

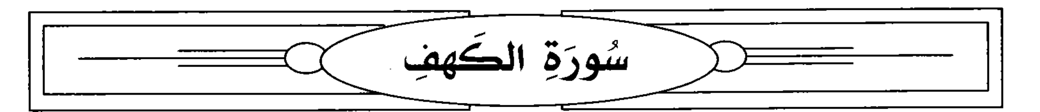
---

(١) مفتاح دار السعادة (٩٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مكحول مرسلاً.

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٨).

(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٥).



سُورَةِ الكَهفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك؛ وخلق السماوات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

إن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشر قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان، فالخذلان: حَلُّهُ من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه، ويصير أمره فرطاً، والربط على القلب: شده برباط التوفيق فيتصل بذكر ربه، ويتبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله(٢).

* * *

(١) عدة الصابرين (١٦٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٦٧، ٦٨).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

استنبط السهيلي في الروض[(١)] أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالى عطف عليهم الكلب بحرف الواو، فقال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ولم يذكر الواو فيما قبل ذلك من كلامهم، والواو تقتضي تقرير الجملة الأولى.

وما استنبطه حسن، غير أنه إنما يفيد إذا كان المعطوف بالواو ليس داخلاً في جملة قولهم، بل يكون قد حكى سبحانه أنهم قالوا: ﴿سَبْعَةٌ﴾، ثم أخبر تعالى: أن ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فحينئذ يكون ذلك تقريراً لما قالوه وإخباراً بكون الكلب ثامناً، وأما إذا كان الإخبار عن الكلب من جملة قولهم. وأنهم قالوا هذا وهذا لم يظهر ما قاله، ولا تقتضي الواو في ذلك تقريراً ولا تصديقاً، فتأمله[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء، أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

والذي أجمع عليه المفسرون[(٣)]: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فقال: «أخبركم غداً»، ولم يقل: (إن شاء الله)، فتلبث الوحي ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثنِ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ويجوز الاستثناء إلى سنة.

---

(١) الروض الأنف (٣/ ١٦٩، ١٧٠). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٦).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣٢١). وانظر: الروض الأنف (٣/ ١٢٨)، والطبري في تفسيره من طريق ابن إسحاق (١٥/ ١٩٠). وهذا سند ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق، ومر سبب نزول آية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ في سورة الإسراء، فراجعه عند الآية (٨٥). وادعاء الإجماع يحتاج لتحقيق، ولا يخفى بُعده.

وقال عكرمة رحمه الله: واذكر ربك إذا غضبت.

وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أي: إذا نسيت الصلاة فصلها متى ذكرتها[١].

ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله: غداً أفعل إن شاء الله.

وقد عتب الله على رسوله ﷺ حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: «غداً أخبركم»[٢]، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهراً ثم نزلت.

أي: إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك، فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء[٣] المتراخي.

ولم يقل ابن عباس قط، ولا من دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق، أو لعبده: أنت حر، ثم قال بعد سنة: إن شاء الله، أنها لا تُطلق، ولا يعتق العبد، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس أو عن أحد من أهل العلم البتة، ولم يفهموا مراد ابن عباس[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

سُئِلَ أبو العباس ثعلب عن قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾، فقال: جعلناه غافلاً. قال: ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلاً.

قلت: الغفل الشيء الفارغ، والأرض الغفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٣١).
(٢) انظر: التعليق السابق.
(٣) وإلى هذا ذهب الطبري رحمه الله تعالى، كما في تفسيره (١٥/ ٢٢٨). وذكره ابن كثير عنه، وصححه (٣/ ٨٤، ٨٥).
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٩٧).

فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها؟

قيل: القرآن قد نطق بهذا، وبهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجباً للأثر؟

قيل: الأثر إن كان وجودياً فلا بد له من مؤثر وجودي، وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، وإذا سمي موجباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك.

وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثراً فلا.

وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه وتفريطه في أمره.

قال الفراء: فرطاً: متروكاً يفرط فيما لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه[١].

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة كان فرطاً، ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود: أن الله ﷻ نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى ﷺ واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه.

ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت[٢].

---

(١) شفاء العليل (٩٨). (٢) الوابل الصيب (٦٠، ٦١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الكهف: ٣٠ ـ ٣١].

قال جماعة من المفسرين: السندس: ما رقَّ من الديباج، والاستبرق: ما غلظ منه، وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق.

وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس، والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريماً له وتشريفاً، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم، فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك، كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال،

---

(١) حادي الأرواح (١٤١).

(٢) عدة الصابرين (١٧٣).

هذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه عدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟

ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾. كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟! بئس للظالمين بدلاً.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة[(١)]؟!

قال: فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد، وما تعرض له من المقت والخزي والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختياراً وطوعاً حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه؟ ولله المثل الأعلى[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب، فإنه سفر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١١٨، ١١٩).
(٢) طريق الهجرتين (٢٢٤، ٢٢٥).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٣).

وهذا الغلام الذي قتله الخضر يحتمل أنه كان بالغاً مطلقاً، وسمي (غلاماً) لقرب عهده بالبلوغ، وعلى هذا فلا إشكال فيه ويحتمل أن يكون مميزاً عاقلاً وإن لم يكن بالغاً، وعليه يدل الحديث، وهو قوله: «ولو أدرك لأرهق أبويه»[١]. وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفاً في تلك الشريعة، إذ اشتراط البلوغ في التكليف إنما علم بشريعتنا، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً، كيف وقد قال جماعة من العلماء: إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام، كما قالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة وأحمد، وهو اختيار أبي الخطاب، وعليه جماعة من أهل الكلام.

وعلى هذا فيمكن أن يكون هذا الغلام مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ ولو لم يكن مكلفاً [بشرائعه]. فكفر الصبي المميز معتبر عند أكثر العلماء، فإذا ارتد عندهم صار مرتداً له أحكام المرتدين، وإن كان لا يقتل حتى يبلغ فيثبت عليه كفره، واتفقوا على أنه يضرب ويؤدب على كفره أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة.

فإن كان الغلام الذي قتله الخضر بالغاً فلا إشكال، وإن كان مراهقاً غير بالغ فقتله جائز في تلك الشريعة؛ لأنه إنما قتله بأمر الله؛ كيف وهو إنما قتله دفعاً لصوله على أبويه في الدين؟ كما قال: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٠].

والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله، بل الصبي إذا قاتل المسلمين قتل.

ولكن من أين يعلم أن هذا الصبي اليوم يصول على أبويه أو غيرهما في دينهما حتى يفتنهما عنه؟ فإن هذا غيب لا سبيل لنا إلى العلم به؛ ولهذا علق ابن عباس الفتيا به فقال لنجدة لما استفتاه في قتل الغلمان: «إن علمت منهم ما علم الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا». رواه مسلم في صحيحه.

ولكن يقال: قاعدة الشرع والجزاء أن الله سبحانه لا يعاقب العباد بما سيعلم أنهم يفعلونه، بل لا يعاقبهم إلا بعد فعلهم ما يعلمون أنه نهى عنه وتقدم إليهم بالوعيد على فعله، وليس في قصة الخضر شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضي أحكامها، ولم يعلم موسى تلك الأسباب: مثل علمه بأن السفينة كانت لمساكين، وأن وراءهم ملكاً ظالماً إن رآها

---

(١) حديث موسى ﷺ مع الخضر. رواه البخاري (٨/ ٢٦٣) في التفسير، باب: (فلما بلغ مجمع البحرين..)، ومسلم (٥/ ٢٣٠) في الفضائل، باب: فضائل الخضر، والترمذي (٥/ ٢٨٩) في التفسير، باب: ومن سورة الكهف، ورواه غيرهم.

أخذها فكان قلع لوح منها لتسلم جميعها ثم يعيده من أحسن الأحكام، وهو من دفع أعظم الشرين باحتمال أيسرهما.

وعلى هذا، فإذا رأى إنسان ظالماً يستأصل مال مسلم غائب فدفعه عنه ببعضه فكان محسناً، ولم يلزمه ضمان ما دفعه إلى الظالم قطعاً، فإنه محسن وما على المحسنين من سبيل، وكذلك لو رأى حيواناً مأكولاً لغيره يموت فذكاه لكان محسناً ولم يلزمه ضمانه، وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين، وأبوهما كان صالحاً، أمر يعلمه الناس ولكن خفي على موسى، وكذلك كفر الصبي يمكن أن يعلمه الناس حتى أبواه؛ ولكن لحبهما إياه لا ينكران عليه، ولا يقبل منهما، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الآية حجة على أنه قتل لما يتوقع من كفره؛ ولو قدر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً، ولكن سبق في علم الله أنه إذا بلغ يكفر وأطلع الله الخضر على ذلك.

فقد يقول القائل: قتله بالفعل كقتل نوح الأطفال الكفار بالدعوة المستجابة التي أغرقت أهل الأرض لما علم أن آباءهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً؛ فدعا عليهم بالهلاك العام دفعاً لشر أطفالهم في المستقبل، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، لا ينافي كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة، فإن قوله: ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ حالان مقدرتان: أي من سيفجر ويكفر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

أي: أمامهم، بدليل قراءة ابن عباس: (وكان أمامهم ملك)، وهذا المذهب ضعيف، ووراء لا يكون أماماً وراء، إلا بالنسبة إلى شيئين فيكون أمام الشيء وراء لغيره، ووراء الشيء أماماً لغيره، فهذا الذي يعقل فيها، وأما أن يكون وراء زيد بمعنى: أمامه فكلا، وأما ما استدلوا به فلا حجة فيه.

وأما قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦].

فالمعنى: أنه ملاق جهنم بعد موته فهي من بعده، أي: بعد مفارقته الدنيا، فهي لما كانت بعد حياته كانت وراءه؛ لأن وراء كبَعد، فكما لا يكون بعد قبل، فلا

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٥٨٤ ـ ٥٨٧).

يكون وراء أمام، وأنت لو قلت: جهنم بعد موت الكافر لم يكن فيها معنى قبل بوجه، فوراء هاهنا زمان لا مكان.

فتأمله رحمك الله تعالى فهي خلف زمان حياته وبعده، وهي أمامه ومستقبلته فكونها خلفاً وأماماً باعتبارين وإنما وقع الاشتباه؛ لأن بعدية الزمان إنما يكون فيما يستقبل أمامك، كقولك: بعد غد، وورائية المكان فيما تخلف وراء ظهرك.

فمن ورائه جهنم: ورائية زمان ولا مكان، وهي إنما تكون في المستقبل الذي هو أمامك، فلما كان معنى الأمام لازماً لها ظن من ظن أنها مشتركة ولا اشتراك فيها.

وكذلك قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وكذلك ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠].

وأما قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، فإن صحت قراءة (وكان أمامهم ملك)، فلها معنى لا يناقض القراءة العامة وهو أن الملك كان خلف ظهورهم وكان مرجعهم عليه، فهو وراءهم في ذهابهم، وأمامهم في مرجعهم، فالقراءتان بالاعتبارين، والله سبحانه وتعالى أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ **[الكهف: ٨٤]**.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: علماً. قال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك: علماً تسبب به إلى ما يريد. وكذلك قال إسحاق: علماً يوصله إلى حيث يريد. وقال المبرد: وكل ما وصل شيئاً بشيء فهو سبب.

وقال كثير من المفسرين[٢]: آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علماً ومعونة له.

وقد سمى الله سبحانه الطريق سبباً في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، قال مجاهد: طريقاً. وقيل: السبب الثاني هو الأول، أي: أتبع سبباً من تلك الأسباب التي أوتيها مما يوصله إلى مقصوده[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ **[الكهف: ١٠٠، ١٠١]**.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٩٥، ١٩٦).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٩).
(٣) شفاء العليل (١٨٩).

وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهذا حال أرباب الأعمال التي كانت لغير الله ﷻ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ وحال أرباب العلوم والأنظار التي لم يتلقوها عن مشكاة النبوة، ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال وكناسة أفكارهم، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم في تقرير آراء الرجال، والانتصار لهم، وفهم ما قالوه وبثه في المجالس والمحاضر، وأعرضوا عما جاء به الرسول ﷺ صفحاً، ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلباً للفضيلة، وأما تجريد اتباعه وتحكيمه وتفريغ قوى النفس في طلبه وفهمه، وعرض آراء الرجال عليه ورد ما يخالفه منها وقبول ما وافقه، ولا يلتفت إلى شيء من آرائهم وأقوالهم إلا إذا أشرقت عليها شمس الوحي، وشهد لها بالصحة.

فهذا أمر لا تكاد ترى أحداً منهم يحدث به نفسه، فضلاً عن أن يكون أخيته ومطلوبه.

وهذا الذي لا ينجي سواه فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه، واستنفد فيه أوقاته، وآثره على ما الناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله ﷺ مسدود، وقلبه عن المرسل ﷻ وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والتنعم بحبه والسرور بقربه مطرود، ومصدود، وقد طاف عمره كله على أبواب المذاهب فلم يفز إلا بأخس المطالب، سبحان الله وإن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرق قصدها[٢].

* * *

(١) شفاء العليل (٩٣).

(٢) اجتماع الجيوش (٢٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس جنة ذات كروم. يقال: كرم مفردس، أي: معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد. وقال: الفردوس: فيما سمعت من كلام العرب، الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه: الفراديس. قال: ولهذا سمي باب الفراديس بالشام، وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذا جد المسير بنا ... يا بعد نيرين من باب الفراديس

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية، واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثواب الله كل مخلد ... جنان من الفردوس فيها يخلد[1][2]

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، مراداً به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول؛ لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده؛ فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة[3].

وكما أنه إله واحد، ولا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده،

---

(١) والصواب في معنى الفردوس ـ كما رجحه الطبري (١٦/٣٧) ـ وغيره ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ: أنها أوسط الجنة وأعلاها، منها ما رواه: البخاري (٦/ ١٤) في الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله وفيه: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة..».

(٢) حادي الأرواح (٨٨، ٨٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٠).

فكما تفرد بالإلٰهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١]: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العبادة، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً، فإنه ينزل منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله عز وجل إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله[٢]: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء»[٣].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد، كما في كنز العمال (١/ ٦٧٥).
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).
(٣) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١٩٦).

سُورَةُ مَريم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

[إنه من] قول زكريا عليه السلام.

فقد قيل: إنه دعاء المسألة، والمعنى: إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا؟! فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا وقضى حاجته، وهذا ظاهر هاهنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

(قيل): ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟

فسره والله أعلم: أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة، وتعلقت بها الهمة فذكرت هذه المواطن الثلاثة؛ لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص؛ لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقراً فيها، موطن النفس على صحبتها وسكناها، إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها،

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٤، ٥).

كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه ... إلى هذه الدنيا إذا هو يولد
تجد تحته سراً عجيباً كأنه ... بكل الذي يلقاه منها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

ولهذا من حين ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك؛ ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون، وأما ما أخبر به الرسول ﷺ فليس في صناعتهم ما يدل عليه كما ليس فيها ما ينفيه، فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور.

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت، ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريباً وتمثيلاً، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر، وطلب السلامة أيضاً عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث: موطن يوم القيامة يوم يبعث الله الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله، فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوى، وفقره لا يسد.

فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها.

واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها، وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيداً مجرداً عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم؛ ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها، واستعمل بعمل أهلها، فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن؟ فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

قال سفيان بن عيينة: جعلني مباركاً أينما كنت، قال: معلماً للخير. وهذا يدل

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٨، ١٦٩).

على تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه؛ ولهذا سمى سبحانه كتابه مباركاً، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾» (متفق عليه)[2].

وفي الصحيحين أيضاً من حديث ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه»[3]. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، أتي بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة: لا موت ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»[4].

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتي بالموت ملبياً، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٩٠).
(٢) رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).
(٣) رواه البخاري (١١/ ٤١٤) في الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ومسلم (٥/ ٧٠٦) في صفة الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون.
(٤) رواه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).

مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه وهو الموت الذي وكل بنا، فيضجع فيذبح ذبحاً على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت»(١). رواه النسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا الكبش والإضجاع، والذبح ومعاينة الفريقين، ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً: وقال: الموت عرض، والعرض لا يتجسم فضلاً عن أن يذبح وهذا لا يصح؛ فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صوراً معاينة يثاب بها ويعاقب، والله تعالى ينشئ من الأعراض أجساماً تكون الأعراض مادة لها وينشئ من الأجسام أعراضاً، كما ينشئ سبحانه من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً.

فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تبارك وتعالى، ولا يستلزم جمعاً بين النقيضين ولا شيئاً من المحال، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت، فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل، وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه، فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض تذبح.

وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول ويصير مكانه جسم يذبح، ولم يهتد الفريقان إلى هذا القول الذي ذكرناه، وأن الله سبحانه ينشئ من الأعراض أجساماً يجعلها مادة لها، كما في الصحيح عنه ﷺ: «تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان» الحديث(٢). فهذه هي القراءة التي ينشئها الله سبحانه غمامتين.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: «إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن»(٣). ذكره أحمد.

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٢/ ٢٦١)، وابن ماجه (٢/ ٤٣٥) صحيح ابن ماجه، في الزهد، باب: صفة النار.
والترمذي (٤/ ٥٩٦) في صفة الجنة، باب: ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار، وقال: (حديث حسن صحيح). ولم أهتد إليه عند النسائي، والله أعلم.

(٢) رواه مسلم (٨٠٤).

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٧١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٢) في الأدب، باب: فضل التسبيح.

=

وكذلك قوله في حديث عذاب[1] القبر ونعيمه للصورة التي يراها: «فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، وأنا عملك السيئ». وهذا حقيقة لا خيال، ولكن الله أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة.

وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة إلا نفس إيمانهم أنشأ الله سبحانه لهم منه نوراً يسعى بين أيديهم؟

فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص، فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل.

وقال سعيد عن قتادة: بلغنا أن نبي[2] الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صوِّر له عمله في صورة حسنة وبشارة حسنة، فيقول له: من أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ الصدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة. وأما الكافر إذا خرج من قبره صوِّر له عمله في صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ السوء، فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخل النار».

وقال مجاهد مثل ذلك، وقال ابن جريج: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟؟ فيقول له: أنا عملك فيجعل له نوراً بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]. والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار.

وقال ابن المبارك: ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن: أنه ذكر هذه الآية: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٨، ٥٩]. قال: علموا أن كل نعيم بعده الموت أنه يقطعه، فقالوا: أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين؟ قيل: لا، قالوا: إن هذا لهو الفوز العظيم.

= قال البوصيري في الزوائد: (إسناده صحيح، رجال ثقات) (٣/ ١٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣)، صححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، كلهم من حديث (النعمان بن بشير) رضي الله عنه.

(١) يقصد حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الصحيح، وأوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فجلس رسول الله ﷺ. . »، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مواضع منها (٤/ ٢٩٥)، وأبو داود الطيالسي، ص(١٠٢) برقم (٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧، ٣٩، ٤٠)، ورواه غيرهم، وانظر: تخريجه مفصلاً في كتاب (أحكام الجنائز)، ص(١٥٦ ـ ١٥٩) للعلامة الألباني حفظه الله تعالى.

(٢) مرسل، راجع: حديث البراء.

وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه: أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش، وأمنوا من الأسقام فهناهم في جوار الله طول المقام، ثم يبكي حتى تجري دموعه على لحيته[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٢، ٤٣].

ابتدأ إبراهيم الخليل خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ولم يقل: لا تعبد.

ثم قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣].

فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾. وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه. وقال: (يمسك) فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمٰن، ولم يقل: الجبار ولا القهار.

فأي خطاب ألطف وألين من هذا. ونظير هذا خطاب صاحب يسٓ لقومه، حيث قال: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يسٓ: ٢٠، ٢٢]. ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٢ ـ ٤].

وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده ألطف خطاب وألينه، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. الآيات.

---

(١) حادي الأرواح (٣١٩ ـ ٣٢١).

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ[1] مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وتأمل ما في قول الله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، من اللطف الذي سلب العقول، وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]. على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها، والتحقيق أن إضاعتها تتناول تركها وترك وقتها وترك واجباتها وأركانها، وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعد لحدود الله، كمقدمها عن وقتها[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٤، ٦٥].

فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم، ولا ينزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم، وما بين ذلك، فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه، فلا ينسى شيئاً أبداً، وهو القائم بتدبير أمر السماوات والأرض وما بينهما، كما هو الخالق لذلك كله، وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له؛ لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال، فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني، فالعدم سمي له[4].

* * *

(١) قال القرطبي: قرأ العامة «تدعون» بالتاء، وقرأ السُّلَمي وأبو العالية ويعقوب «يدعون» بالياء على الخبر. تفسير القرطبي (٥/ ٤٤٨٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٣) كتاب الصلاة (٧٦).

(٤) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٢٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].

فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضاً، أي: تابعه. ومنه الأشياع، أي: الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا، أي: تبع بعضهم بعضاً، وغالب ما يستعمل في الذم. ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع؛ ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال؛ لتفرقهم واختلافهم.

والمعنى: لننزعن من كل فرقة أشدهم عتواً على الله، وأعظمهم فساداً، فنلقيهم في النار، وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولاً، ثم تكون الأتباع تبعاً لهم فيه كما كانوا تبعاً له في الدنيا.

□ □ □

وأيهم أشد للنحاة فيه أقوال:

أحدها: قول الخليل[1]: إنه مبتدأ وأشد خبره ولم يعمل لننزعن فيه؛ لأنه محكي والتقدير الذي يقال فيه: أيهم أشد على الرحمٰن عتياً، وعلى هذا فأي استفهامية.

الثاني: قول يونس: إنه رفع على جهة التعليق للفعل السابق، كما لو قلت: علمت أنه أخوك، فعلق الفعل عن الفعل كما تعلق أفعال القلوب.

الثالث: قول سيبويه: إن أي هنا أي موصولة مبنية على الضم والمسوغ لبنائها حذف صدر صلتها. وعنده أصل الكلام أيهم هو أشد فلما حذف صدر الصلة بنيت على الضم تشبيهاً لها بالغايات التي قد حذفت مضافاتها، كـ (قبل) و(بعد)[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

فالإرسال هاهنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي فهو إرسال تسليط، بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

---

(١) راجع: (الكتاب) لسيبويه رحمه الله تعالى (٢/ ٣٩٩).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٥٥)، وانظر: مناقشة هذه الأقوال هناك إن رغبت.

قال أبو إسحاق: ومعنى الإرسال هاهنا: التسليط. تقول: قد أرسلت فلاناً على فلان إذا سلطته عليه، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فأعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه، قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فالأز في اللغة: التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز لتحرك الماء عند الغليان، وفي الحديث: «كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[1]، وعبارات السلف تدور على هذا المعنى.

قال ابن عباس: تغريهم إغراء. وفي رواية أخرى عنه: تسلهم سلًّا. وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضاً، وفي أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجاً، وفي أخرى: توقدهم إيقاداً، أي: كما يتحرك الماء بالوقد تحته.

قال أبو عبيدة: الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقول: أز قدرك، أي: ألهب تحتها النار وائتزت القدر إذا اشتد غليانها وهذا اختيار الأخفش.

والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعاً.

قالت القدرية: معنى أرسلنا الشياطين على الكافرين: خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط قال أبو علي: الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل، وما يريد فمعنى الآية خلينا بين الشياطين وبين الكافرين، ولم يمنعهم منهم بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾.

قال الواحدي: وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية، قال: وليس المعنى على ما ذهبوا إليه.

وقال أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. وإنما معنى الإرسال: التسليط[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٦)، وأبو داود (٣/ ١٧٢) في الصلاة، باب: البكاء في الصلاة.

(٢) راجع: تفسير الطبري (١٦/ ١٢٥).

قلت: وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: «إذا أرسلت كلبك المعلم»[١] أي: سلطته ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده.

وكذلك قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أي: سلطناها وسخرناها عليهم، وكذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]. وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [القمر: ٣١].

والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلاً، ولم يمنعه من فعله فهذا هو التسليط[٢].

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٥٤٨٣)، ومسلم (١٩٢٩).
(٢) شفاء العليل (٦٢، ٦٣).

سُورَةُ طَه

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: لأذكرك بها.

وقيل: مضاف إلى المذكور، أي: لتذكروني بها، واللام على هذا لام التعليل.

وقيل: هي اللام الوقتية، أي: أقم الصلاة عند ذكري، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وهذا المعنى يراد بالآية، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر؛ لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف، والذكر: مصدر، إلا أن يقدر زمان محذوف، أي: عند وقت ذكري، وهذا محتمل.

والأظهر: أنها لام التعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكري، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه، فذكر الله سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ [طه: ٤٠].

الفُتون مصدر فَتَنه يفتنه فتوناً، أي: امتحانك واختبرناك[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

والاصطناع في الأصل: اتخاذ الصنيعة. وهي الخير تُسديه إلى غيرك. قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة، فاقصد بها ... وجه الذي يولي الصنائع أو دع

---

(١) الوابل الصيب (٩٤)، دار البيان. (٢) روضة المحبين (٥٠).

قال ابن عباس: اصطنعتك لوحيي ورسالتي.

وقال الكلبي: اخترتك بالرسالة لنفسي، لكي تحبني وتقوم بأمري.

وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، فتكلم عبادي عني.

قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي، حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم.

وقيل: مثَّل حاله بحال من يراه بعض الملوك ـ لجوامع خصال فيه وخصائص ـ أهلاً لكرامته وتقريبه، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه، ولا ألطف محلاً، فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، بحيث يسمع به، ويبصر به، ويطلع على سره[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨].

أما قول موسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فليس بسلام تحية فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى.

ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام، والله أعلم.

وتأمل حسن سياق هذه الجمل وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٦، ٢٩٧).

للرجل من عند مولاه: «أنا رسول مولاك إليك وأستاذك»، وإن كان أستاذهما معاً ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططاً، ولم يرهقه من أمره عسراً بل طلب منه غاية النصف.

ثم أخبره بعد الطلب بثلاثة اخبارات:

أحدها: قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى، فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحقه السامع المطيع وما يستحقه المكذب المتولي، بألطف خطاب، وأليق قول، وأبلغ ترغيب وترهيب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه، لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان.

وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى.

قال عطية، ومقاتل: أعطى كل شيء صورته.

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه.

والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه، ولفظ السدي أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه ثم هدى إلى الجماع(٢).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٩، ١٧٠).
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢).

وهذا القول اختيار ابن قتيبة[1] والفراء.

قال الفراء: أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها.

قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز، لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى، ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله فألهمه الله ذلك، وهداه إليه، قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها، فإن معناها أجلّ وأعظم مما ذكروه.

وقوله: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ يأبى هذا التفسير، فإن حمل (كل شيء) على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن مما لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له، وأين نظير هذا في القرآن، وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه، ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، فحمل قوله: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ على هذا المعنى غير صحيح، فتأمله.

وفي الآية قول آخر، قاله الضحاك، قال: أعطى كل شيء خلقه؛ أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع.

ومعنى هذا القول: أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى: المفعول، أي: أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله، أودعها الأعضاء، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم.

والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره.

فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله «فرعون».

ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، عدل

---

(١) تفسير غريب القرآن (٢٧٩)، ومشكل القرآن (٤٤٤)، وكلاهما لابن قتيبة.

إلى سؤال فاسد عن وارد. فقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]. أي: فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان؟

والمعنى: لو كان ما تقوله حقاً لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل؛ ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء، بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم[(١)].

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [طه: ٥٢]. أي: أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي، قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال.

وقال الكلبي: يعني به: اللوح المحفوظ، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا: أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فتأمله[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

أخبر سبحانه أنه لا بد أن ينال المفترين غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وأعظم الافتراء الفرية عليه ﷻ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وقد ضمن سبحانه أنه لا بد أن يخيب أهل الافتراء ولا يهديهم، وأنه يسحتهم بعذابه، أي: يستأصلهم.

---

(١) رحم الله ابن القيم، فهو أباح عن مكنون صدورنا تجاه هؤلاء السائرين على ضرب سابقيهم في الصد عن دين الله تعالى ورميه بأنواع التهم وأشنع الأوصاف، مع رفع وتعظيم قوانين وعادات الكفار، حتى المحرم منها، يتهمون المسلمين بالتخلف لمجرد تحريمهم له كتحريم التبرج مثلاً، سواءً كان في محافل العلم أو في أجهزة الإعلام أو الرياضة... إلخ، فيكيلون ـ بالظلم ـ ألوان الاتهامات وهم أولى بها وأهلها، ولنا قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وقد رضينا بهذا الهدى وهذا التسليم، والحمد لله دائماً وأبداً ـ ونسأله الثبات على طاعته.

(٢) شفاء العليل (٧٨، ٧٩). وانظر في تفسيرها أيضاً (١/ ٨٤).

قال تعالى إخباراً عن كليمه موسى: إنه قال لرؤوس المعطلة وأئمتهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

ولما تمكن الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ...﴾. **إلى قوله تعالى:** ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...﴾ [طه: ٨٦ ـ ٩٧].

ومن تلاعبه [الشيطان] بهم[٣] عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة، والأخذة الرَّابِيَةِ، ونبيُّهم حَيٌّ لم يمت.

هذا وقد شاهدوا صانِعه يَصْنَعه[٤] ويَصُوغُه، ويَصليه النار، ويَدُقُّه بالمطرقة. ويَسْطُو عليه بالمبرد، ويُقَلِّبه بيديه ظهراً لبطن.

ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلٰههم، حتى جعلوه إلٰه موسى. فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دَفعاً عن نفسه، بحيث يضربُ به المثلُ في البلادة والذُّل، فجعلوه إلٰه كليم الرحمٰن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالّاً مخطئاً، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

قال ابن عباس: أي: ضَلَّ وأخطأ الطريق.

وفي رواية عنه: أي: إن موسى ذهب يطلب ربه فَضَلَّ ولم يعلم مكانه.

وعنه أيضاً: نسي أن يذكر لكم أن هذا إلٰهه وإلٰهكم.

وقال السُّدي: أي: ترك موسى إلٰهه هٰهنا وذهب يطلبه.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢١٢).
(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٨٩).
(٣) يقصد (اليهود) عليهم من الله اللعنات.
(٤) يعني: (العجل).

وقال قتادة: أي: إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر.

هذا هو القول المشهور: إن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامِرِيِّ وعُبَّاد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرى: أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري، أنه نسي، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان.

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره، فقال: «[فنسى موساهم] يقولونه: أخطأ الرب»[1].

فإنه لما جعله إلٰه موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذا إلٰه موسى، فلأيِّ شيء ذهب عنه لموعد إلٰهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم.

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلٰهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة، بعد مَرَّة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل، والضَيَّمْ، وجعلوه إلٰه موسى. ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلٰهاً غيره.

قال محمد بن جرير[2]: وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم، قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرَّمادي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا أبو سعيد عن عِكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما هجم فرعون على البحر، هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى، فلما رآها الحصان تقحم خلفها، قال: وعرف السامريُ جبريل فقبض قبضة من أثر فرسه قال: فأخذ قبضة من تحت الحافر.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها: (فَقَبَضْتُ قبضة مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ)[3].

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٧) في الأنبياء، باب: قول الله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ...﴾. وإلى هذا ذهب الطبري أيضاً (١٦/ ٢٠١) في تفسيره.

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٨١)، وقد اختصر ابن القيم بعض عباراته.

(٣) قال ابن كثير: (... أي: من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم). تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٣). وما ورد عن ابن مسعود ﷺ فهو من باب القراءة التفسيرية، والله أعلم.

قال أبو سعيد: قال عكرمة: عن ابن عباس: وأُلقي في رُوع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضةُ معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون. قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح، ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حلي من حلي آل فرعون، قد استعاروه فكأنهم تأثَّموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه قال السامري: بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه وقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فصار عجلاً جسداً له خوار، فكان يدخل الريح من دبره ويخرجه من فيه يسمع له صوت: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]. فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]، ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

وقال السدي: لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط، فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري، فأنكره. ويقال: إنه فرس الحياة.

فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس، فانطلق موسى عليه السلام، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله تعالى بعشر، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلي القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعاً واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة، فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلاً جسداً له خوار، فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ يقول: ترك موسى إلٰهه هاهنا وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، يقول: إنما ابتليتم بالعجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل، لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى الله يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٥]. فأخبره خبرهم.

قال موسى: يا رب هذا السامريُّ أمرهم أن يتخذوا العجل، فالروحُ مَنْ نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يا رب أنت إذاً أضللتهم.

وقال ابن إسحاق: عن حكيم بن جُبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان السامري (من أهل باجِرما) وكان من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم ـ آل فرعون ـ وأمتعةً وحليّاً، فتطهروا منها، فإنها نَجَس وأوقد لهم ناراً.

فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها، فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحليُّ فيها ورأى السامري أثر فرس جبريل، فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبي الله، ألقي ما في يدي؟ ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة، فقذفه فيها، فقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فكان البلاء والفتنة، فقال: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حباً لم يحبوا مثله شيئاً قط. يقول الله عز وجل: ﴿فَنَسِىَ﴾، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامريَّ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩١]. فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل وتخوَّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤]. وكان له هائباً مطيعاً، قال تعالى مذكراً لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [البقرة: ٥١]. يعني: من بعد ذهابه إلى ربه، وليس المراد من بعد موته ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، أي: بعبادة غير الله تعالى؛ لأن الشرك أظلم الظلم؛ لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.

فلما قدم موسى عليه السلام ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلام الله الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يعتب الله عليه في ذلك؛ لأنه حمله عليه الغضب لله، وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه،

ولكن لما رأى الحال مشاهدة حدث له غضب آخر، فإنه ليس الخبر كالمعاينة(١).

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع (دليل على عدم الإلٰهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإلٰه لا بد أن يُكلم ويتكلم ويملك لعابده الضر والنفع)، وإلا لم يكن إلٰهاً(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨].

أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه.

قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قاله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى: عن، أي: لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى: لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج.

وفي القولين تكلف ظاهر، ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما.

والمعنى: لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقد اختلف في تفسير الضمير في (به)(٤)، فقيل: هو الله سبحانه، أي: ولا يحيطون بالله علماً.

وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم.

فعلى الأول: يرجع إلى العالم، وعلى الثاني: يرجع إلى المعلوم، وهذا القول

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٥).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٥).
(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٠١).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢١٥).

يستلزم الأول من غير عكس؛ لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فأن لا يحيطوا علماً به ـ سبحانه ـ أولى[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

يعني: لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ..﴾ [طه: ١١٥].

تأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم.

فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ . .﴾ الآية، والنسيان سواء كان عدم العلم، أو عدم الصبر كما فسر بها هاهنا فهو أمر عدمي[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

كيف شرك بينهما في الخروج وخص الذَّكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش والمرأة في خدرها[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

فقابل بين الجوع والعري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذلة، والعري جوع الظاهر وذلة.

فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر فقابل بينهما[(٥)].

---

(١) الصواعق المرسلة (١٣٧٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٦).
(٣) طريق الهجرتين (١٠٠).
(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٩).
(٥) روضة المحبين (٢٢٦).

والواقف مع القالب ربما يخيل إليه: أن الجوع يقابل بالظمأ، والعري بالضحى.

والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن؛ والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فذكره: كلامه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه: ترك تدبره والعمل به.

والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير: أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس، وفيه حديث مرفوع[(٣)].

وأصل الضنك في اللغة[(٤)]: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك، في مقابلة التوسيع على النفس

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٤٠). (٢) إغاثة اللهفان (٥٨).

(٣) روى الطبري (١٦/ ٢٢٨) بسنده عن ابن حجيرة عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أتدرون ما المعيشة الضنك؟... عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً..»، فذكر حديثاً قال عنه ابن كثير بعد أن ذكر أن ابن حاتم رواه أيضاً: (رفعه منكر جداً) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٨)، ورواه البزار باختصار يسير (٣/ ٥٨، ٥٩)، وقال الهيثمي: (فيه من لم أعرفه)، مجمع الزوائد (٧/ ٦٧).

وأشار محقق (كشف الأستار) بعد ذكره لقول الهيثمي السابق: (كأنه يعني: أبا حجيرة) قلت: ـ والله أعلم ـ أن هذا وهم فإني لم أجد فيما بين يدي من مصادر من الرواة عن أبي هريرة من اسمه (أبو حجيرة)، وهو ثقة، وإنما هو (ابن حجيرة) واسمه (عبد الرحمٰن)، كما في التهذيب (٦/ ١٦٠)، وأشار إلى رواية مسلم والأربعة عنه.

(٤) لسان العرب (٥/ ٢٦١٣)، مادة: «ضنك».

والبدن، بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكاً، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما، وأشق البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن، فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون، والله المستعان[1].

□ □ □

وقال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾. يتناول الذكر الذي أنزله، وهو الهدى الذي جاءت به الرسل، ويدل عليه سياق الكلام، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]. فهذا هو الإعراض عن ذكره، فإذا كان هذا حال المعرض عنه، فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده، وأحسن الظن به، فكما أنه لا يكون مؤمناً إلا مَن قَبِله وانقاد له، فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به[2].

□ □ □

والمقصود: أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره ـ وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى ـ فإن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة، ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا، والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة[3].

* * *

(١) الفوائد (١٦٥).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٤٥، ٨٤٦).
(٣) مفتاح دار السعادة (٤٦ ـ ٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٥].

اختلف فيه: هل هو من عمى البصيرة، أو من عمى البصر؟[١].

والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧]. ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]، وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه، لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: وقد كنت بصيراً؟ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]. بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيل في هذه الآية أيضاً: إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون[٢].

ومن نصر أنه العمى والبكم والصم المضاد للبصر والسمع والنطق، قال

---

(١) انظر: الطبري (١٦/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٦٧).

بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه.

ولهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا يرون شيئاً يسرهم».

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم: أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجتهم عُمي عنها، بل هم عمي عن الهدى، كما كانوا في الدنيا فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر، فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب: أن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة: الحشر إلى موقف القيامة، كقول النبي ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً»(١). وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وكقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. فهذا الحشر هو بعد

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه (١١/ ٣٨٥) في الرقاق، باب: الحشر، ومسلم (٥/ ٧١٢) في الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

حشرهم إلى الموقف، وهو حشرهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١]، ثم قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وهذا الحشر الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار.

فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون.

وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][١].

❁ ❁ ❁

(١) مفتاح دار السعادة (٤٦ ـ ٥٠).

سُورَةُ الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

فأخبر أن هذا الذي أضافه من نسبة الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل.

ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر، المجبول على الثبات والبقاء، لا من جوهر هذا العالم الفاني الدائر الكثير الأوساخ والأدناس والأقذار، ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨][1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

إن الوقف التام في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم يبتدئ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾.

فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: إن له من في السمٰوات ومن في الأرض عبيداً وملكاً.

ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حَسَر واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨١).

فالأول: وصف لعبيد ربوبيته.

والثاني: وصف لعبيد إلٰهيته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٣].

[انظر] كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لا تساويه، فسواها به مع أعظم الفرق.

فقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلٰهية وإفراد له بالربوبية والإلٰهية.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلٰهية، فإنها مسؤولة مربوبة مُدَبَّرة، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟

فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلاً في إنكار حكمته، وتعليل أفعاله بآياتها المحمودة وعواقبها السديدة، والله الموفق للصواب(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

سئل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا، وقد قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»(٣)؟

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: لو كان الخضر حياً لوجب أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه، ويتعلم منه، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»(٤).

وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر يومئذٍ؟

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والدليل على أن الخضر ليس بباق في الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء والمعقول..

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٢).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢٩٥).
(٣) رواه البخاري (٦٠١)، ومسلم (٢٥٣٧).
(٤) رواه مسلم (١٧٦٣).

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، فلو دام الخضر كان خالداً[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة، والرخاء، والصحة، والسقم، والغنى، والفقر، والحلال، والحرام، وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون؛ لننظر كيف صبركم، وشكركم فيما تحبون وما تكرهون.

وقال الكلبي: بالشر، بالفقر، والبلاء، والخير بالمال، والولد، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيّتا الابتلاء والامتحان[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءاً، ويكون يكلؤكم مضمناً معنى يجيركم وينجيكم من بأسه، أو كانت (من) البدلية، أي: من يكلؤكم بدل الرحمٰن، أي: هو الذي يكلؤكم وحده لا كالئ لكم غيره.

وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم، وحفظهم، وحراستهم، مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه ﷻ، فإنه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه، وفي بعض الآثار يقول تعالى: «أنا الجواد، ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم»[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة.

فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

---

(١) المنار المنيف (٦٨).
(٢) عدة الصابرين (١٦٠).
(٣) طريق الهجرتين (٢٩٤).

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ ولهذا قطعت (قبل) عن الإضافة وبنيت؛ لأن المضاف منوي معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ.

وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم الخلق عليه محمد وإبراهيم وموسى.

وقد قيل: (من قبل)، أي: في حال صغره قبل البلوغ، وليس في اللفظ ما يدل على هذا، والسياق إنما يقتضي من قبل ما ذكر.

وقيل: المعنى بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: في سابق علمنا، وليس في الآية أيضاً ما يدل على ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه.

والمقصود قوله: «وكنا به عالمين»، قال البغوي[١]: إنه أهل للهداية والنبوة.

وقال أبو الفرج[٢]: أي: عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد.

وقال صاحب الكشاف: المعنى: علمه به أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها حتى أهّله لمخاللته ومخالصته، وهذا كقولك في خَيِّرٍ من الناس: أنا عالم بفلان. فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف[٣]. وهذا كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢]. حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل جمع تمثال، وهي الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٢٩٧) بحاشية الخازن.

(٢) هو أبو الفرج ابن الجوزي الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، جمال الدين، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد... الحنبلي، انظر ترجمته ومصادرها في: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥). وانظر كتابه: زاد المسير (٥/ ٣٥٧).

(٣) تفسير الكشاف (٣/ ١٣، ١٤).

(٤) شفاء العليل (٣٢، ٣٣).

تماثيل الأصنام؛ ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم.

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفاً عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها؛ ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال علي بن أبي طالب وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟» فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»[2].

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أدلي إليك»[3]. فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه[4].

□ □ □

والحرث هو البستان؛ وقد روي: أنه كان بستان عنب، وهو المسمى بالكرم، والنَّفش: رعي الغنم ليلاً.

فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى

---

(١) الفوائد (١٩٠).
(٢) رواه البخاري (٣٠٤٧).
(٣) وهو الكتاب الذي شرحه ابن القيم رحمه الله من (١/ ٨٥) إلى (٢/ ١٨٣) من إعلام الموقعين، ط الكليات الأزهرية.
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤١).

أصحاب الحرث؛ إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها، ورضي أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة.

وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل، بأن يعمروا البستان، حتى يعود كما كان، ولم يضيع عليهم مغلّه من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك، ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين، فوجدهما سواء، وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه.

وقد جُرِّب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره[2][3].

□ □ □

فإن فيها من كمال التوحيد: التنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلى الله ـ سبحانه ـ في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠٣). (٢) الفوائد (١٩٥).

(٣) وجاء في فضل هذه الدعوة ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له».
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٣٥، ٣٦)، وقال أحمد شاكر: إسناد صحيح، ورواه الترمذي (٥/ ٤٩٥) في الدعوات، باب: (٨٢)، ورواه الحاكم (١/ ٥٠٥)، (٢/ ٣٨٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، كما في صحيح الكلم رقم (١٢٢)، فانظره مفصلاً.

وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمَّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه.

فها هنا أربعة أمور، قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

أي: رَغباً فيما عندنا، ورهباً من عذابنا، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار، عندهم أجمعين وذكر ـ سبحانه ـ عباده الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها استعاذتهم به من النار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥][2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٢].

وفي صحيح[3] الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزير يُعبدون من دون الله[4].

---

(١) زاد المعاد (٤/٢٠٨). (٢) مدارج السالكين (٢/٧٦).

(٣) إطلاق (الصحيح) على مستدرك الحاكم، فيه تجاوز ومعلوم أنه احتوى على الضعيف وغيره، وانظر: ما ذكره ابن كثير عنه في الباعث الحثيث، ص(٢٣، ٢٤).

(٤) في المستدرك «فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها».

قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1]، وهذا إسناد صحيح.

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم، ثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، قال: أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها؟

فقيل له: وما هي.

فقال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، شق ذلك على قريش أو على أهل مكة، وقالوا: يشتم آلهتنا.

فجاء ابن الزبعري فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا! قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، قال: ادعوه لي. فلما دعي النبي ﷺ قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله؟.

فقال: «لا بل لكل من عبد من دون الله».

قال: فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية - يعني: الكعبة - ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيراً عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً.

قال: فضج أهل مكة، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. قال: هو الضجيج[2].

وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبعري لا يرد على الآية، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (ومن تعبدون)، وما لما لا

---

(١) والحديث في المستدرك (٢/ ٣٨٤، ٣٨٥)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: الطبري (٩٦/١٧، ٩٧).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٣٢٨، ٣٢٩) برقم (٢٩٢١). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. والطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٦٨، ٦٩) و(٧/ ١٠٤): وفيه عاصم بن بهدلة، وقد وثق، وضعفه جماعة. وقد وثقه الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٠)، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٨٢)، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٧٠)، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٢٩، ٢٣٠). وجاء في سنده (يحيى بن نوح)، والصواب (يحيى بن آدم)، والله أعلم.

يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة، والمسيح، وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل[١].

وأيضاً فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام، فإنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فلفظة ﴿إِنَّكُمْ﴾، ولفظة (ما) تبطل سؤاله وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي: إن كان كونه معبوداً يوجب أن يكون حصب جهنم، فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح، فأجيب بالفارق وذلك من وجوه:

إحداها: أن الملائكة والمسيح والعزير ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بغضهم ومعاداتهم لهم، فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا، والميتة والذَّكي، وهذا شأن أهل الباطل وإنما يسوون بين ما فرق الشرع والعقل والفطرة بينه، ويفرقون بين ما سوى الله ورسوله بينه.

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة، ولا ناطقة، فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب، بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون، فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلاماً وتعذيباً لهم.

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة، فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم، وإنما عبد المشركون الشياطين وتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله، وأنه معه إله وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيراً من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

وقول الله تعالى ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾

---

(١) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨).

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

فما عبد غير الله إلا الشيطان.

وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها، وبالله التوفيق.

والمقصود: ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبد الرحمٰن بن أبي حاتم: ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد، ثنا أبو عامر العقدي، ثنا عروة بن ثابت الأنصاري، ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف، أن عبد الرحمٰن بن عوف مرض مرضاً شديداً أغمي عليه فأفاق فقال: أغمي عليَّ؟ قالوا: نعم. قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بي، فتلقاهما رجل وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال: دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: ثنا داود بن رشيد، ثنا ابن علية، حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد، قال: أقبل سعد من أرض له فإذا الناس عكوف على رجل، فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعلياً فنهاه فكأنما زاده إغراء! فقال: ويلك تريد أن تسب أقواماً هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك.

فقال: كأنما يخوفني نبيٌّ من الأنبياء؟! فانطلق[1] فدخل داراً فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقواماً قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم، فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية.

وقال: تخرج بختية[2] من دار بني فلان لا يردها شيء حتى تنتهي إليه، ويتفرق الناس وتجعله بين قوائمها وتطأه حتى طفي.

قال: فأنا رأيت سعداً يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق، استجاب الله لك يا أبا إسحاق!

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ

(١) أي: سعد رضي الله عنه ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا مختصراً في مجابي الدعوة، ص(٤٨).
(٢) هي الأنثى من الإبل، مختار الصحاح (٤٢)، وهو أعجمي معرب، كما في اللسان (١/ ٢١٩).

﴿مِّنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]. أي: الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن، فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]. وقال ابن عباس في رواية الوالبي(١) عنه في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها، ولا قول من قال: إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه، وقد قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق(٢)، فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم.

وقال آخرون وهو الصواب: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، والله أعلم(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والسجل: الورق المكتوب فيه، والكتاب: نفس المكتوب، واللام بمنزلة على، (أي: نطوي السماء كطي الدرج على ما فيه من السطور المكتوبة)، ثم استدل على

---

(١) هو الإمام سعيد بن جبير ﷺ. وانظر: تفسير الآية (٢) من سورة يونس.

(٢) راجع: الآية (٦٨) من الأنفال. (٣) شفاء العليل (٢٦ ـ ٢٨).

النظير بالنظير فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكر أمُّ الكتاب الذي عند الله، والأرض الدنيا وعباده الصالحون أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء»[٢].

فهذا هو الذكر الذي كتب فيه: أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور، والذكر هاهنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل[٣].

وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وعن ابن عباس قول آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد ﷺ.

وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٧).
(٢) رواه البخاري (٧٤١٨).
(٣) شفاء العليل (٣٩).

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»(١).

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين.

وليست الآية مختصة بها(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أصح القولين في هذه الآية: أنها على عمومها.

وفيها على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عُجّل قتلهم وموتهم خَير لهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه: فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وآخرة، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض(٣).

* * *

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩). (٢) الروح (١٠٧).

(٣) جلاء الأفهام (١١٥، ١١٦) الطبعة المنيرية.

سُورَةُ الحَجِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ **الآيتان** [الحج: ١، ٢].

المرضع من لها ولد ترضعه.

والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ من مرضع في هذا المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل ـ رحمك الله تعالى ـ السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومباديه، فإذا قيل: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملاً أو سقطاً، كما يقال: ذات ولد، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع، والله سبحانه وتعالى أعلم[(١)].

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ فهم سكارى من الدهش والخوف، وليسوا بسكارى من الشراب، فسكرهم سكر خوف ودهش، لا سكر لذة وطرب[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ [الحج: ٣، ٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٢١، ٢٢). (٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [**الحج**: ٨ ـ ٩].

إن هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم ليس عندهم علم، ولا هدى، ولا كتاب مبين، فمعارضتهم باطلة، وهم فيها أتباع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، فهذه حال كل من عارض آيات الله بمعقوله، ليس عنده إلا الجهل والضلال.

ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب، فبدأ بالأعم وهو العلم، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله، ثم انتقل منه إلى ما هو أخص، وهو الهدى، ثم انتقل إلى ما هو أخص، وهو الكتاب المبين.

فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفطرة، وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من جهة الرسل، وأخص منه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله، فإن الهدى قد يكون كتاباً، وقد يكون سنة.

وهذه الثلاثة منتفية عن هؤلاء قطعاً، أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل، فقد قالوا: إنه لا يفيد علماً ولا يقيناً، والمعقول يعارضه، فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا سنة، وبقي العلم فهم يَدَّعُونَه، والله تعالى قد نفاه عنهم.

ونحن نطالب هؤلاء المعارضين بواحدة من ثلاث: إما كتاب منزل، أو أثارة من علم يؤثر عن نبي من الأنبياء، أو معقول صحيح المقدمات، وقد اتفق العقلاء على صحة مقدماته، وهم يعلمون والله شهيد عليهم، بأنهم عاجزون عن هذا وهذا، فهل نترك ما علمناه من كتاب ربنا، وسنة نبينا، وما نزل به جبريل من رب العالمين، على قلب رسوله الأمين، بلسان عربي مبين، لوحي الشياطين، وشبه الملحدين، وتأويلات المعطلين؟!

□ □ □

فإن قيل: فما الفرق بين الصنف الأول الذي يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، والصنف الثاني الذي يجادل في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، كما ذكرهم سبحانه صنفين؟

قيل: قد ذكر سبحانه ثلاثة أصناف:

صنفاً يجادل في الله بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد، مكتوباً عليه إضلال من تولاه، وهذه حال المتبع لأهل الضلال.

وصنفاً يجادل في الناس بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيله، وهذه حال المتبوع المستكبر، الصاد عن سبيل الله.

فالأول حال الأتباع، والثاني حال المتبوعين.

ثم ذكر حال من يعبد الله على حرف، وهذه حال المتبع لهواه الذي إن حصل له ما يهواه في الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه.

وهذه حال من كان مريضاً في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء؛ ولهذا ذكر ذلك في العبادة فأصلها القصد والإرادة، وأما الأولان فحال الضال والمضل، وذلك مرض في العلم والمعرفة، وهي حال أهل الشبهات والنظر الفاسد، والجدال بالباطل، والله سبحانه يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات، ولا صلاح للعبد إلا بمعرفة الحق، وقصده كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فمن لم يعرف الحق كان ضالًّا، ومن عرفه ولم يتبعه كان مغضوباً عليه، ومن عرفه واتبعه فقد هدي إلى الصراط المستقيم.

وأول الشر الضلال ومنتهاه الغضب، كما أن أول الخير الهدى ومنتهاه الرحمة والرضوان، فذكر سبحانه في آيات الحج ما يعرض في العلم من الضلال والإضلال، وما يعرض في الإرادة والعمل من اتباع الأهواء، كما جمع بينهما في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فقال أولاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾.

وهذا يتضمن الجدال فيه بغير هدى ولا كتاب منير، فإن من جادل بغير ذلك فقد جادل بغير علم، فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علماً بأي طريقة حصل، وذلك ينفي أن يكون مجادلاً بهدى، أو كتاب منير، هذه حال الضال المتبع لمن يضله، فلم يحتج إلى تفصيل، فبين أنه يجادل بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد، كتب على ذلك الشيطان أن من اتبعه، فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، وهذه حال مقلدة أئمة الضلال من الكفار وأهل الأهواء والبدع.

ثم ذكر حال المتبوع الذي يثني عطفه تكبراً، كما قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان: ٧].

وذكر التفصيل في مجادلة المتبوع الداعي، وأنها في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، واكتفى في ذكر التابع بنفي العلم المستلزم، لنفي هذه الثلاثة، فإن مجادلة المتبوع أصل وهو أقعد[1] بها من مجادلة التابع، ومصدرها كبر، ومصدر مجادلة التابع ضلال وتقليد.

فذكر حال المتبوع على التفصيل، ولهذا ذكر فساد قصده وعلمه، وذكر من عقوبته أشد مما ذكر من عقوبة التابع، وهذا وأمثاله من أسرار القرآن التي حرمها الله على من عارض بينه وبين العقل، وقدم العقل عليه[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [**الحج**: ٥].

يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث، فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [**الحج**: ٥ ـ ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

---

(١) أي: أولى وأقرب. وانظر: أساس البلاغة (٣٧٢)، ولسان العرب (٦/ ٣٦٨٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨٦ ـ ١٠٩١). (٣) إعلام الموقعين (١/ ١٨٨).

جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يُخرج الموتى من القبور، كما أخرج النبات من الأرض[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾ [الحج: ١٨].

فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السجود، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربه حيث لم يسجد له[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

واختلفوا[٣] في جر «لؤلؤ» ونصبه، فمن نصبه ففيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على موضع قوله: من أساور.

والثاني: أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول، أي: ويحلَّون لؤلؤاً.

ومن جره: أنه عطف على الذهب، ثم يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون لهم أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ.

[الثاني] ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معاً: الذهب المرصع

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٣). (٢) كتاب الصلاة (١٨٠).

(٣) انظر كتاب: السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٥).

باللؤلؤ، والله أعلم بما أراد[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **[الحج: ٢٥]**.

وهذا لا يختص بمقام الصلاة قطعاً، بل المراد به الحرم كله، فالذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، هو الذي توعد من صد عنه، ومن أراد الإلحاد بالظلم فيه.

فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة، والمسعى ومنى، وعرفة، ومزدلفة، لا يختص بها أحد، دون أحد بل هي مشتركة بين الناس، إذ هي محل نسكهم ومتعبدهم، فهي مسجد من الله وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يبنى له بيت بمنى يظله من الحر، وقال: «مِنى مُناخُ من سَبَقَ»[٢][٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ **[الحج: ٢٧]**.

وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة، وهي: أن الله شرط في الحج الاستطاعة ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيداً.

ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ **[الحج: ٣٠]**.

---

(١) حادي الأرواح (١٦٤).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث عائشة رضي الله عنها (٦/٢٠٦، ٢٠٧)، وأبو داود (٥/٥٠١) في المناسك، باب تحريم مكة، والترمذي (٣/٢٢٨) في الحج، باب: ما جاء أن مِنى مناخ من سبق. وقال: (حديث حسن صحيح)، وابن ماجه (٢/١٠٠٠) في المناسك، باب: النزول بمنى. وضعفه الألباني، كما في ضعيف ابن ماجه (٢٣٨).

(٣) زاد المعاد (٣/٤٣٥).

(٤) بدائع الفوائد (١/٦٩).

قال جماعة من المفسرين[١]: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هاهنا مغاضبه، وما نهى عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها.

قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات هي الأمر والنهي.

وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله، وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه، وحفظه من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [**الحج**: ٣٠، ٣١].

فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله، وتعلق بغيره.

ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهاً مركباً، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة؛ فصور حاله بصورة حال من خرَّ من السماء، فاختطفته الطير في الهوي، فتمزق مزقاً في حواصلها، أو عصفت به الريح، حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منه، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد، والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه، وتمزقه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مِزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/١٥٣). (٢) مدارج السالكين (٢/٧٤).

وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق، هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان، وأبعده من السماء(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه إنما يناله التقوى، وهو التقرب إليه بها، وذكر اسمه عليها، فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعاً من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها، حيث لم يذكر عليها اسمه، أو ذكر عليها اسم غيره، وصف الخبث، فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية، وما ذكر عليه اسم غير الله، فما ذبحه عدوه المشرك به الذي هو أخبث البرية أولى بالتحريم؛ فإن فعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح، كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة.

وهذه أمور إنما يصدق بها من أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وباشر قلبه بشاشة حكمها، وما اشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقاها صافية من مشكاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

وفي القراءة الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾(٣)، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٤، ٢٣٥). (٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٦٠، ١٦١).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمر: (إن الله يَدْفَعُ)، (ولولا دَفْعُ) بغير ألف فيهما. وقرأ نافع: (إن الله يُدَافعُ)، (ولولا دِفَاعُ الله) بالألف فيهما. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: (إن الله يُدَافِعُ) بالألف، (ولولا دَفْعُ الله) بغير ألف. كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٧).

ذكراً كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكراً بذكر ونسياناً بنسيان[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية[(٢)]، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٤٠]. وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْۖ﴾ [الحج: ١٩]. نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين[(٣)].

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب (يا أيها الناس) فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٢) قال القرطبي رحمه الله تعالى: «وهي مكية سوى ثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢١] إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد. وعن ابن عباس أيضاً: أنهن أربع آيات، إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].
وقال الضحاك وابن عباس أيضاً: هي مدنية ـ وقاله قتادة ـ إلا أربع آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٥]، فهن مكيات وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات.
وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكي ومنها مدني، وهذا هو الأصح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك؛ لأن «يا أيها الناس» مكيّ، و«يا أيها الذين آمنوا» مدني. اهـ. تفسير القرطبي (٥/ ٤٣٩٣).

(٣) وهم من الصحابة الأبرار «حمزة وعلي وعبيدة ﷺ»، ومن أعدائهم الأشقياء «شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»، رواه البخاري (٧/ ٣٤٦) في المغازي، باب: قتل أبي جهل، و(٨/ ٢٩٧) في تفسير سورة الحج.

بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: بالقرآن جهاداً كبيراً، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في (مستدركه) من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾. وهي أول آية نزلت في القتال. وإسناده على شرط (الصحيحين)[1].

وسياق السورة يدل على أن فيها المكيَّ والمدنيَّ، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمنية الرسول مكية[2]، والله أعلم[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال الزجاج: تأويل هذا: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم ـ في كل شريعة نبي ـ المكان الذي يصلى فيه، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلى فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد.

وقال الأزهري: أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعه بعض الناس عن الفساد ببعضهم؛ لهدمت متعبَّدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان، فبدأ بذكر الصوامع والبيع؛ لأن صلوات من تقدم من بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن؛ وأخرت المساجد لأنها حدثت بعدهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد ﷺ (١/ ٢١٦)، والترمذي (٥/ ٣٠٤) في التفسير، باب: ومن سورة الحج، والحاكم (١/ ٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) إن كان هذا إشارة إلى قصة الغرانيق فهي قصة مكذوبة، قال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقال ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة، وانظر في إبطالها ـ إن رغبت ـ كتاب «الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية» لمؤلفه صالح أحمد الشامي، نشره المكتب الإسلامي. [الشامي].

(٣) زاد المعاد (٣/ ٧٠، ٧١).

وقال ابن زيد: الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو.

قال الأخفش: وعلى هذا القول: الصلوات لا تهدم، ولكن تحل محل فعل آخر، كأنه قال: تركت صلوات.

وقال أبو عبيدة: إنما يعني مواضع الصلوات.

وقال الحسن: يدفع عن مصليَّات أهل الذمة بالمؤمنين. وعلى هذا القول لا يُحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول؛ وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه: فإن الآية دلت على الواقع، ولم تدل على كون هذه الأمكنة ـ غير المساجد ـ محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقرَّ منها ما أقرَّ بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقرّ أهل الذمة وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعاً وقدراً: فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله ـ هو ابن موسى ـ عن إسرائيل، عن السدي، عمن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾ قال: الصوامع التي يكون فيها الرهبان، والبيع: مساجد اليهود، والصلوات: كنائس النصارى، والمساجد: مساجد المسلمين[١].

قال ابن أبي حاتم وأخبرنا الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن داود، عن أبي العالية قال: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ قال: صوامع وإن كان يشرك به! وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر!

وفي تفسير شيبان[٢] عن قتادة: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين[٣].

* * *

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٧٤ ـ ١٧٨)، والدر المنثور (٦/ ٦٠).

(٢) شيبان بن عبد الرحمٰن النحوي، الإمام الحافظ الثقة. انظر: ترجمته ومصادرها في السير للذهبي (٧/ ٤٠٦).

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٨).

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

ذكر ﷻ أنواع القلوب:

فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان. ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ فترقَّ للقرآن قلوبهم، وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل: خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

قال ابن عباس: المخبتين: المتواضعين.

وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله.

وقال الأخفش: الخاشعين.

وقال ابن جرير[١]: الخاضعين.

قال الزجاج: اشتقاقه من الخَبت وهو المنخفض من الأرض. وكل مخبت متواضع[٢].

فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

فإن قيل: فإذا كان معناه التواضع والخشوع، فكيف عدي بـ (إلى) في قوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]. قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود: أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتاً إليه وبعضها قاسياً، وجعل للقسوة آثاراً وللإخبات آثاراً.

---

(١) الطبري (١٧/ ١٦١ و١٩١، ١٩٢).

(٢) انظر أيضاً في معنى: الإخبات، لسان العرب (٢/ ١٠٨٧)، والمفردات للأصفهاني (١٤١).

فمن آثار القسوة تحريف الكلم عن مواضعه[١]؛ وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذكر به، وهو ترك ما أمر به علماً وعملاً، ومن آثار الإخبات وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه[٢].

□ □ □

واللام [في ليجعل] على بابها وهي لام الحكمة والتعليل، أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول محنة واختباراً لعباده، فافتتن به فريقان وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

وعلم المؤمنون أن القرآن والرسول حق وأن إلقاء الشيطان باطل، فآمنوا بذلك وأخبتت له قلوبهم، فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا في عامة كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة، إلا أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لم تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه

---

(١) قال الله تعالى ذكره: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ . .﴾ الآية [المائدة: ١٣].

(٢) شفاء العليل (١٠٦).

(٣) شفاء العليل (١٩٢).

كذلك؛ لفرط حره ويبسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات، هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفي وربيعي[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلٰهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صوراً وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإلٰه الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك، وتعاونوا عليه، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلٰهيتهم، أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً، واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سوّى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٢٨، ٢٢٩).

قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز، وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإلٰه والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب: الإلٰه الباطل، والمطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه، وقيل: الطالب: الذباب، والمطلوب: الإلٰه، . . .

والصحيح: أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود المستلِب والمستلَب، فمن جعل هذا إلٰهاً مع القوي العزيز، فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه[1].

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبيَّن إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يستكرهها غموض، ولم يُشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر، العظيم الشرف، البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ[2].

□ □ □

فما قَدَّره مَنْ عَبَدَ مِنْ دونه من لا يخلق ذباباً واحداً. . . ولما كان هذا من جهلهم بالله وترك تعظيمه الذي ينبغي له، قال كثير من المفسرين في معنى ذلك:

ما عظموه حق عظمته.

وقال بعضهم: ما عرفوه حق معرفته.

وقال بعضهم: ما عبدوه حق عبادته.

وقال آخرون: ما وصفوه حق صفته.

ولما كان أهل العلم والإيمان قد قاموا من ذلك بحسب قدرتهم وطاقتهم التي أعانهم بها، ووفّقهم بها لمعرفته وعبادته وتعظيمه لم يتناولهم هذا الوصف؛ فإن التعظيم له سبحانه والمعرفة والعبادة ووصفه به نفسه قد أمر به عباده وأعانهم عليه ورضي منهم بمقدورهم من ذلك، وإن كانوا لا يقدرونه قدره ولا يقدر أحد من العباد قدره، فإنه إذا كانت السمٰوات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا، والأرضون السبع في يده الأخرى كذلك، فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلاً عن أن يقبض بهما شيئاً؟ فلا يد عند المعطلة ولا قبض في الحقيقة،

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧). (٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٦، ٤٦٧).

وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له، وللجهمية والمعطلة نفاة الصفات من هذا الذم أوفر نصيب، وللمتفلسفة وأفراخهم وأتباعهم ذنوب مثل ذنوب أصحابهم وأكثر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨].

فأخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من: اجتبى الشيء يجتبيه إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين؛ ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلٰهاً معبوداً محبوباً على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلٰههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه وآثرهم بذلك على من سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه يسَّر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة، لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية، والتعظيم، والحبِّ، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والتفويض، والاستسلام؛ فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالى أنه نوه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم، وسمَّاهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم، ثم نوه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم؛ اعتناءً بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم.

ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله، ويشهدوا هم على الناس، فيكونوا مشهوداً لهم بشهادة الرسول، شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين.

والمقصود: أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالى، فمن المحال أن يحرمهم

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٣٦٣، ١٣٦٤).

كلهم الصواب في مسألة فيفتي فيها بعضهم بالخطأ، ولا يفتي فيها غيره بالصواب ويظفر فيها بالهدى من بعدهم، والله المستعان[1].

□ □ □

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فحقُّ جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانيَّ ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا.

واختلفت عبارات السلف في حقِّ الجهاد، فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه، وألا يخاف في الله لومة لائم.

وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله، واعبده حقَّ عبادته.

وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى.

ولم يصب من قال: إن الآيتين منسوختان[2] لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق.

وحقّ تقاته وحقّ جهاده: هو ما يطيقه كل عبد في نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة، والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

والحرج: الضيق، بل جعله واسعاً يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع كلّ حي وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما.

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي (٤٤).

قال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفيَّة السَّمْحَةِ»[١]، أي: بالملة، فهي حنيفيَّة في التوحيد، سمحة في العمل، وقد وسع الله ﷻ على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد، وفتح لهم باباً لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة.

وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه، وأطيب، وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه.

وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله، ويسراً بعده، (فلن يغلب عسر يسرين).

فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه[٢].

□ □ □

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾.

و«ملة» منصوب على إضمار فعل، أي: اتبعوا والزموا ملة إبراهيم، ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ﴾، وهذا هو الذي يقال له: الإغراء[٣].

وقيل: منصوب انتصاب المصادر، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله.

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢) عن حبيب بن ثابت مرسلاً، والخطيب في تاريخه (٧/ ٢٠٩)، وضعفه الألباني، كما في غاية المرام (٢٠) حديث رقم (٨). ويغني عنه ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (٣/ ٣٥٥) (المحققة) عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: (الحنفية السمحة)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٣٨٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٢٧) رقم (١١٥٧٢)، وأحمد في الزهد مرسلاً (٢٨٩ و٣١٠).
والبخاري معلقاً في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: الدين يسر (١/ ١١٦)، قال الحافظ ابن حجر: (إسناده حسن)، وكذا قال الألباني، كما في الصحيحة رقم (٨٨١)، وتمام المنة، ص(٤٥)، والله أعلم.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٨، ٩).

(٣) الإغراء هو: (أمر المخاطب بلزوم ما يحمد به). انظر: الألفية بشرح ابن عقيل (٣/ ٣٠١).

مسلماً وما كان من المشركين»[(١)][(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [**الحج**: ٧٨].

أي: متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله[(٣)].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه (٣/ ٤٠٧) عن عبد الرحمٰن بن أبزى، والدارمي (٢/ ٢٠٢) برقم (٢٦٩١)، والطبراني في الدعاء (٢/ ٩٢٦) برقم (٢٩٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٢) برقم (٣٣). قال النووي: (إسناده صحيح)، الأذكار (٦٨). وقال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح) مجمع الزوائد (٦/ ١١٦).

(٢) جلاء الأفهام (١٥٤).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٧٩، ١٨٠).

سُورَةُ المؤمنُون

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧].

علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه.

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات.

وأصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس: جنة ذات كروم مفردس، أي: معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد وقال: الفردوس ـ فيما سمعت من كلام العرب، الشجر الملتف والأغلب عليه العنب، وجمعه: الفراديس. قال: ولهذا سمي باب الفراديس بالشام، وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا   يا بعد ما بين أبواب الفراديس

---

(١) الجواب الكافي (٢٢٧).

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية. واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العرب، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثـواب الله كـل مـخـلـد   جنان من الفردوس فيها يخلد[١]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

فاستوعب سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل تراباً وماء، إلى حين بعثه يوم القيامة، فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم يقلب الله سبحانه تلك النطفة علقة: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى، ثم يصيرها سبحانه مضغة: وهي قطعة لحم أربعين يوماً، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٣].

إن الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، والزُّبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله، وما بعث الله به رسوله.

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحاً، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين، فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك ممتثلين لأمر الله قابلين لرحمته، حتى نشأت خلوف قطَّعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هذه الآيات ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان[٣].

---

(١) حادي الأرواح (٨٨، ٨٩)، وراجع الآية برقم (١٠٧) من سورة الكهف.

(٢) تحفة المودود (٢١٣).

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١].

روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات»[(١)].

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ ـ ٧١].

[جاء هذا] في إثبات نبوة رسوله ﷺ، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يعلم من نفس القول تارة وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب باد على صفحاته وباد على ظاهره وباطنه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور، بل قلب هذا وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضاً، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تتبين لهم حقيقة الأمر وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨). (٢) الجواب الكافي (٤٧).

(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).

وأخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

ومعلوم أن عند النفاة[1] يجوز أن يزد شرع الله ودينه بأهواء العباد، وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر، وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً.

وهذه مخالفة صريحة للقرآن وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم، وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك، ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به، ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإلٰه الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابديه النفع ويدفع عنهم الضر، فلو كان معه سبحانه إلٰه لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإلٰه الآخر معه، بل إن قَدِرَ على قهره والتفرد بالإلٰهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه.

فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

- إما أن يذهب كل إلٰه بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إلٰه واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإلٰه الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إلٰه غيره، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا ربَّ له غيره.

---

(١) أي: نفاة الحكمة والتعليل.

(٢) مفتاح دار السعادة (٣٣٨).

فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلٰهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان كذلك يستحيل أن يكون له إلٰهان معبودان[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

والهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد عن الكسائي:

همزته، ولمزته، ولهزته، ونهزته ـ إذا دفعته.

والتحقيق: أنه دفع بنخز وغمز، يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب.

قال ابن عباس والحسن: همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم.

وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد، وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون. وظاهر الحديث[٢]: أن الهمز نوع غير النفخ والنفث.

وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصابتهم لابن إدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، قال ابن زيد: في أموري.

وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن.

وقال عكرمة: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم[٣].

* * *

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٣، ٤٦٤).

(٢) هو قوله ﷺ: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»، رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٩٥، ٩٦).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أُمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى، فقال: (ارجعوني) ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: ﴿كَلَّآ﴾ لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمّرت ما يتذكر فيه من تذكر. ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله لسانه، وأنه لو رد لعاد لما نهي عنه وأنه من الكاذبين. فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد، والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السِّنَة والنوم واللُّغوب والحاجة واكترائه بحفظ السماوات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يُخْرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه، فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم.

فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلّهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه، كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧][2].

---

(١) عدة الصابرين (١٨٤، ١٨٥).

(٢) عدة الصابرين (١٦١).

سُورَةُ النُّور

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

والصواب: القول: بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأت من ادّعى نسخها بحجة البتة، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى.

فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، هل هو خبر أو نهي، أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة، وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله ـ تعالى ـ عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟

ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عامُّ اللفظ خاصُّ المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي «عناق» البغيّ وصاحبها فإنه أسلم، واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها، فنزلت هذه الآية[1].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧١)، وأبو داود (٦/ ٤٨) في النكاح، باب: في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، والترمذي (٥/ ٣٠٧) تفسير سورة النور، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٦/ ٦٦) في النكاح، باب: تزويج الزانية، والحاكم (٢/ ١٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

وهذا أيضاً فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان ذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا تُنَاقِضُ إحداهما الأخرى، بل أَمَرَ سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرم نكاح الزانية، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟

فإن قيل: فما وجه الآية؟

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أُمِرَ أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة[1]، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانياً، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله ـ سبحانه ـ حرم على عبده أن يكون قرْناناً[2] ديوثاً زوج بغي، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قحبة، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [المائدة: ٥].

(٢) القَرْنانُ: الذي يُشارِكُ في امرأته كأن يقرن به غيره، وهو نعت سوءٍ في الرجل الذي لا غيرة له. لسان العرب (٦/ ٣٦١٢).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٦٥، ٦٦).

﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ ـ ٩].

ثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد: أن عويمراً العجلاني قال لعاصم بن عدي: أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فسل لي رسول الله ﷺ.

فسأل رسول الله ﷺ، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ.

ثم إن عويمراً سأل رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: «قد نزل فيك وفي صاحبتك، فاذهب فائت بها».

فتلاعنا عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا قال: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ﷺ.

قال الزهري: فكانت تلك سنة المتلاعنين(١)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقاً. وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه. فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذباً، فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه(٣)؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك(٤).

* * *

(١) رواه البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢). (٢) زاد المعاد (٤/ ١٨٠).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٦٥). (٤) إغاثة اللهفان (١/ ٤٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: ٢٦].

وقد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين، والكلمات الطيبات للطيبين، وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين، وهي تعم ذلك وغيره. فالكلمات، والأعمال، والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات، والأعمال، والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين.

فالله ﷻ جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار. فجعل الدور ثلاثة: داراً أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب وهي الجنة، وداراً أخلصت للخبيث والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار، وداراً امتزج فيها الطيب والخبيث، وخلط بينهما وهي هذه الدار، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلٰهية.

فإذا كان يوم ميعاد الخليقة، ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة، وهي دار الطيبين، والنار، وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام.

حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليري عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩][1].

* * *

---

(١) زاد المعاد (١/ ٦٦).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

لما كان غض البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد، ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضِّه مطلقاً، بل أمر بالغضِّ منه.

وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

□ □ □

وجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى. فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله ﷻ خيراً منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده؛ كما قيل:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلَّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة، ينصب إليه القلب بكليته. ثم تقوى فتصير غراماً يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوى فيصير عشقاً، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفاً، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تتيُّماً، والتتيُّم التعبد، ومنه «تيمه الحب» إذا عبده، و«تَيْم الله» عبد الله. فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له. وهذا كله جناية النظر. فحينئذ يقع القلب في الأسر، فيصير أسيراً بعد أن كان

ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً، يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرف يقول: «أنا رائدك، ورسولك وأنت بعثتني». وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب. فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره.

الفائدة الثانية: نور القلب وصحة الفراسة.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فمنعهن من الضرب بالأرجل، وإن كان جائزاً في نفسه؛ لئلا يكون سبباً إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن[2].

وهذه الآية في سورة مدنية[3]، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم[4].

فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه[5].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ [النور: ٣٢، ٣٣].

فأمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محل كل من الآيتين؟

فالجواب: أن قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ في حق الأحرار، أمرهم الله تعالى أن يستعفوا حتى يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٧).
(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٨١).
(٣) قال القرطبي: «مدنية بالإجماع» (٦/ ٤٥٥٠).
(٤) مدارج السالكين (١/ ١٧٨).
(٥) مدارج السالكين (٣٠٥، ٣٠٦).

تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم.

وأما قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾. فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامى وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن. هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل، وإن استعمل في حق المرأة. ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولى في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم.

وقوله في هذا القسم: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ يعم الأنواع الثلاثة التي ذكرت فيه، فإن الأيم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة. وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقاً فلا يمكن أن يجعل لنكاحه غاية وهي غناه ما دام عبداً، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذي ينتظر بنكاح الحر، والله أعلم.

وفي المسند وغيره مرفوعاً[(١)]: «ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، .وذكر الثالث»[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

فهذا نهي عن إكراههن على كسب المال بالبغاء، كما قيل: إن عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين كان له إماء يكرههن على البغاء[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢/ ٤٣٧)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨).

(٢) روضة المحبين (٢٩٦، ٢٩٧).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٩).

قال أبيٌّ بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم.

وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكر.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا.

منهم من نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج، وآخر يعطى نوراً عل إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أعطي نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب.

□ □ □

وقد فُسر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بكونه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض. وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به. ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول كقوله ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى، إذا جاء لفصل القضاء.

ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور[1]: «أعوذ بنور وجهك الكريم: أن تُضلَّني، لا إله إلا أنت».

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وعند مسلم (٥/ ٥٦٧) الذكر، باب: الأدعية من حديث ابن عباس رضي الله عنه بلفظ: «اللهم لك أسلمت.... اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني...»، والإمام أحمد (١/ ٣٠٢)، وهو عند البخاري مختصراً (١٣/ ٣٨٠) في التوحيد، باب: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وفي الأثر الآخر: «أعوذ بوجهك، أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[(١)].

فأخبر ﷺ: أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى: أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي وغيرها: عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه»[(٢)].

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض.

وأما من فسرها بأنه مُنَوِّر السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود.

والحق أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «قام بيننا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(٣)].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: «سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنَّى أراه؟!»[(٤)].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه: كان ثَمَّ نور، وحال دون رؤيته نور، فأنَّى أراه؟

قال: ويدل عليه: أن في بعض الألفاظ الصحيحة: «هل رأيت ربك؟ فقال:

---

(١) وأثر مشهور في قصة الطائف، رواها ابن إسحاق بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً (٢/ ٢٨)، لكن الدعاء وأوله: «اللهم أشكو إليك..» رواه دون سند. قال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات» (٦/ ٣٥)، وانظر: فقه السيرة (١٣٣).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٠)، قال الهيثمي: «فيه أبو عبد السلام... مجهول...، وعبد الله بن مكرر أو مكرز على الشك لم أر من ذكره.

(٣) رواه مسلم (١٧٩).

(٤) رواه مسلم (١٧٨).

رأيت نوراً»[١].

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حتى صححه بعضهم فقال: «نور إني أراه» على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظاً ومعنى. وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ: أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه، وكان قوله: «أنى أراه» كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه.

وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج. وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه ﷺ رأى ربه ﷻ. ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس ﵄.

ويدل على صحته: ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر ﵁: قوله ﷺ في الحديث الآخر: «حجابه النور»، فهذا النور هو ـ والله أعلم ـ النور المذكور في حديث أبي ذر ﵁: «رأيت نوراً».

□ □ □

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به. وعلى هذا عامة أمثال القرآن.

فتأمل صفة المشكاة، وهي كُوَّة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء، قد وضع فيها مصباح. وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً، من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح، محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة. والآفات إلى الأطراف دونها. فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار،

(١) رواه مسلم (١٧٨).

فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وصفه في قلب عبده المؤمن، وخصّه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة: قلبه. شبّه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها. وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن، ويتحنن، ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه. ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى.

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقّها وأصلبها وأصفاها»[1]، والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق. وهي مادة المصباح التي يتّقد منها. والنور على النور نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان. فهذا علامة النور على النور.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩ - ٤٠].

[وهؤلاء هم] أهل الجهل والظلم، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٩١): أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير) وإسناده قوي.

وهؤلاء قسمان:

أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال. فهؤلاء أهل الجهل المركّب، الذين يجهلون الحق ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله: وهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب، الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه. ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان. كما هو حال من أمَّ السراب فلم يجده ماءً، بل انضاف إلى ذلك: أنه وجد عنده أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين ﷻ، فحسب له ما عنده من العلم والعمل، فوفّاه إياه بمثاقيل الذر. وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباءً منثوراً، إذ لم يكن خالصاً لوجهه، ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة كذلك هباء منثوراً، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

و«السراب» ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض، كأنه ماء يجري.

و«القيعة» والقاع: هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد.

فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله: بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه، فيخيب ظنه، ويجده ناراً تتلظى.

فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، وإذا أتوه وجدوا الله عنده، فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميماً، وسقاهم إياه، كما أن طعامهم: ﴿مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. وهو تلك العلوم، والأعمال الباطلة، التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهم الذين عنى الله

بقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

القسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات.

وهم المنغمسون في الجهل، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد، واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى.

فظلمات: جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور.

فإن المعرض عن ما بعث الله به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جَدَّ في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره. فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى. كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ووافقها قِطْعٌ من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار، ونحاتة الأذهان، جال وصال، وأبدى وأعاد، وقعقع وفرقع. فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحَجَر في جحرة الحشرات.

قوله: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ «اللجي» العميق، منسوب إلى لجة البحر. وهو معظمه.

وقوله تعالى ذكره: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه.

فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض.

والضمير الأول في قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ راجع إلى البحر. والضمير الثاني في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ عائد إلى الموج.

ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب.

فهاهنا ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكد يراها.

واختلف في معنى (لم يكد يراها)[١]:

والصحيح: أنها فعل يقتضي المقاربة. ولها حكم سائر الأفعال، ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها. فإنها لم توضع لنفيه، وإنما استفيد من لوازم معناها، فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً، فيكون منفياً باللزوم.

---

(١) فقال كثير من النحاة: هو نفي لمقاربة رؤيتها، وهو أبلغ من نفيه الرؤية، وأنه قد ينفي وقوع الشيء ولا تنفي مقاربته. فكأنه قال: لم يقارب رؤيتها بوجه.
قال هؤلاء: «كاد» من أفعال المقاربة، لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات. فإذا قيل: كاد يفعل فهو إثبات مقاربة الفعل. فإذا قيل: لم يكد يفعل، فهو نفي لمقاربة الفعل.
وقالت طائفة أخرى: بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد. وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر، لأجل تلك الظلمات.
قالوا: لأن «كاد» لها شأن ليس لغيرها من الأفعال. فإنها إذا أثبتت نفت، وإذا نفت أثبتت، فإذا قلت: ما كدت أصل إليك. فمعناه: وصلت إليك بعد الجهد والشدة. فهذا إثبات للوصول. وإذا قلت: كاد زيد يقوم فهي نفي لقيامه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]. وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً:

أنحوي هذا العصر: ما هي لفظة ... جرت في لسان جرهم وثمود
وإذا استعملت في صورة النفي أثبتت ... فإن أثبتت قامت مقام جحود؟

وقالت فرقة ثالثة، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره: إن استعمالها مثبتة يقتضي نفي خبرها، كقولك: كاد زيد يقوم. واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى. فهي عنده تنفي الخبر، سواء كانت منفية أو مثبتة. فلم يكد زيد يقوم أبلغ عنده في النفي من لم يقم، واحتج بأنها إذا نفيت وهي من أفعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل، وهو أبلغ من نفيه. وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها. وذلك يدل على عدم وقوعه. واعتذر عن مثل قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. وعن مثل قوله: وصلت إليك وما كدت أصل، وسلمت وما كدت أسلم، بأن هذا وارد على كلامين متباينين، أي: فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له. فالأول يقتضي وجود الفعل. والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له، بل كان آيساً منه. فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان.
وذهبت فرقة رابعة: إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها. فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل، سواء كانت بصفة الماضي أو المستقبل، وإن كانت في طرف النفي، فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفي الفعل ومقاربته نحو قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات، نحو قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.
فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة.

وأما إذا استعملت منفية فإن كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة، كما إذا قلت: لا يكاد البطال يفلح، ولا يكاد البخيل يسود، ولا يكاد الجبان يفرح، ونحو ذلك.

وإن كانت في كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد أن لم يكن مقارباً. كما قال ابن مالك[١].

فهذا التحقيق في أمرها.

والمقصود: أن قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة، وهو الأظهر. فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها؟ قال ذو الرمة:

إذا غَيَّر النأي المحبين، لم يكد رسيس الهوى من حب مَيَّة يبرح

أي: لم يقارب البراح وهو الزوال، فكيف يزول؟

□ □ □

فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد، فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه.

وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج، الذي قد غشيه السحاب من فوقه.

فيا له تشبيهاً ما أبدعه، وأشد مطابقته لحال أهل البدع والضلال، وحال من عبد الله ﷻ على خلاف ما بعث به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه.

وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم.

وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم. فهي سراب لا حاصل لها، وظلمات لا نور فيها.

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة، فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد. ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة. ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه[٢].

□ □ □

---

(١) راجع: شرح ابن عقيل على الألفية (١/ ٣٢٢).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٦ ـ ١٢).

فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاث المنعم عليهم، وهم أهل النور، والضالين، وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم: وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين: لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع.

والمثل الثاني: لأصحاب العلم الذي لا ينفع، والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق.

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثلين فيعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه، أن الموجب لذلك: أنه لم يجعل لهم نوراً، بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور، فإنه سبحانه وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها.

فنبه على الاشتراك والاختلاف فنشير إلى يسير منه: فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ما وراء ذلك، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال، واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره، واشتراك الماشي منها على بطنه في

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٩).

ذلك وتفاوت نوعه، واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت.

وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز عن كثير منها نوع الإنسان.

فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله، بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

أصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم.

كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: «من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[٢].

فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه.

فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور: ٥٨].

أمر تعالى مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ لئلا يكون دخولهم هجماً بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان

---

(١) شفاء العليل (٢٣١، ٢٣٢).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٥١٢) في التوحيد، باب: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ...﴾ الآية.
(٣) الرسالة التبوكية (٤٦، ٤٧).

في غيرها، وإن أمكن في تركه وجود هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه إذن فيه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وفيه قولان للمفسرين(٣):

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي: دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى: لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً. إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: دعاؤه إياكم(٤).

وقد يقال ـ وهو أحسن من القولين ـ: إن المصدر هنا لم يضف إضافته إلى فاعل ولا مفعول، وإنما أضيف إضافة الأسماء المحضة، ويكون المعنى: لا تجعلوا الدعاء المتعلق بالرسول المضاف إليه كدعاء بعضكم بعضاً، وعلى هذا فيعم الأمرين معاً، ويكون النهي عن دعائهم له باسمه كما يدعو بعضهم بعضاً وعن تأخير إجابته ﷺ، وعلى كل تقدير فكما أمر الله سبحانه بأن يميز عن غيره في خطابه ودعائه إياهم، قياماً للأمة بما يجب عليهم من تعظيمه وإجلاله، فتمييزه بالصلاة عليه عند ذكر اسمه من تمام هذا المقصود(٥).

* * *

---

(١) إعلام الموقعين (١٨١، ١٨٢).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨٧).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٧٧).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠).
(٥) جلاء الأفهام (٢٣٥).

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [**الفرقان**: ١].

البركة نوعان أيضاً.

أحدهما: بركة هي فعله ـ تبارك وتعالى ـ ، والفعل منها «بارك» ويتعدى بنفسه تارة وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها «مبارك» وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله ـ تعالى ـ.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها «تبارك»، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ولا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما. فجاء بناء «تبارك» على بناء «تعالى» الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك «تبارك» دال على كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه: أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه، وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، ومن هنا قيل: معناه: تعالى وتعاظم، وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي: باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك: المرتفع. ذكره البغوي[(١)]. وقيل: تبارك أي: البركة تكتسب وتنال بذكره، وقال ابن عباس: جاء بكل بركة. وقيل: معناه: ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة أن البركة: كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصْفاً وفعلاً منه ـ تبارك وتعالى ـ، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين[(٢)] لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل «تعالى» و«تقدس» و«تعاظم». ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس فكذلك «تبارك» لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى؟ هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر «تبارك» بمعنى: «ألقى البركة» و«بارك في غيره» لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً فتبارك من باب «مجد»، والمجد كثرة صفات الجلالة والسعة والفضل.

وبارك من باب «أعطى وأنعم» ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسَّر مَنْ فسّر مِنَ السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عِنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه.

وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكي»[(٣)]، وبيّنا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً ورسوله مباركاً وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصى مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة[(٤)].

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٤٠). (٢) تفسير الطبري (١٨/ ١٧٩).

(٣) هذا من الكتب التي لم تصلنا ـ في حدود علمي ـ ولعل الله يمن بظهورها.

(٤) هي أربعة مواضع [الأعراف: ١٣٧]، و[الإسراء: ١]. و[الأنبياء: ٧١، ٨١]، والله أعلم.

من الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[١]. فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً، وكذلك البركة فهو تبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركاً: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٢]. وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخِرُّ ساجداً لربي فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»، وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، فدل على أن لله ﷻ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه ،وبالله التوفيق[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ **[الفرقان: ٧، ٨]**.

---

(١) رواه مسلم (٥٩٢)
(٢) رواه أبو داود (١٤٢٧) والترمذي، (٣٥٦٦)، والنسائي (١٧٤٦)، وابن ماجه (١١٧٩).
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

أي: لو كان رسولاً لخالق السماوات والأرض، لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في طلب المعيشة ولأغناه عن أكل الطعام، ولأرسل معه ملكاً من الملائكة، ولألْقَى إليه كنزاً يغنيه عن طلب الكسب[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [**الفرقان**: ١٧ ـ ١٩].

وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير وبيان، فقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عام في كل عابد ومن عبده من دون الله. وأما قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، فقال مجاهد، فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح، عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة»[2]. وروى عنه ابن جريج نحوه، وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبدتها. ثم يأذن ـ سبحانه ـ لها في الكلام، فيقول: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾، قال مقاتل: يقول سبحانه: «أأنتم أمرتموهن بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل، أي: أم هم أخطأوا الطريق»؟ فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومَنْ عَبَدَهُمُ المشركون من أولياء الله، ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيهاً لك يا ربنا وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون]، ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم، وقال ابن عباس، ومقاتل: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إلٰه».

وفيها قراءتان:

أشهرهما: (نَتّخِذ) بفتح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل، وهي قراءة السبعة.

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٩٧).

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ١٨٩).

والثانية: (نُتخَذ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع[١].

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظاً ومعنى، فأيهما أحسن وأبلغ في المعنى المقصود، والبراءة مما لا يليق بهم؟ فإنهم على قراءة الضّم يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا ولياً من دونه، بل أنت وحدك ولّينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجلُّ من الأول وأكبر، فتأمله.

والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة، ومَنْ عبد مِنْ دون الله من أوليائه، وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر. وقد يقال: إن الله ـ سبحانه ـ أنطقها بذلك، تكذيباً لهم، ورداً عليهم، وبراءة منهم. كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]. وفي الآية الأخرى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين بالإيمان بالله ـ تعالى ـ بقولهم: ﴿وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

قال ابن عباس: «أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم، ووسعت لهم في الرزق».

وقال الفراء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قوماً بوراً، أي: هَلْكَى فاسدين. قد غلب عليهمُ الشقاء والخذلان، والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسي قوم ذكر الله ﷻ إلا باروا وفسدوا. والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾، أي: كذبكم المعبودون، بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون: إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا، أي: فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٤٧٢٦، ٤٧٢٧).

والأول أظهر. وعليه يدل السياق، ومَنْ قرأها بالياء ـ آخر الحروف ـ فالمعنى: فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ إخباراً عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله. قال ابن زيد: ينادي مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: مَنْ عُبدَ مِنْ دون الله، لا ينصر اليوم من عَبَدَهُ، والعابد لا ينصر إلٰهه: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمٰن، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢][1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك.

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة، وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين.

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم.

ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٢٣٨ ـ ٢٤٣).

ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، هؤلاء.

وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فإذا رأى الشريف الرئيسُ المسكينَ الذليل قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حَمِيَ وأَنِفَ أن يسْلِمَ، فيكون مثله، وقال: أُسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء؟

قال الزجاج: كان الرجل الشريف ربما أراد الإسلام، فيمتنع منه، لئلا يقال: أسلم قبله من دونه، فيقيم على كفره، لئلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل.

ومن كون بعض الناس لبعضهم فتنة: أن الفقير يقول: لِمَ لَمْ أكن مثل الغنى؟ ويقول الضعيف: هلا كنتُ مثلَ القوي؟ ويقول المبتلى: هلا كنت مثل المعافى؟

وقال الكفار: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال مقاتل: نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين، نحو: بلال وخباب، وصهيب، وأبي ذر، وابن مسعود، وعمار، كان كفار قريش يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً من موالينا وأراذلنا؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ ـ ١١١]. فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

قال الزجاج: أي: أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون.

قلت: قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هاهنا وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ [النحل: ١١٠].

فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة، من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. فالفتنة قسمت الناس، إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر

عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ **[الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]**.

فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا، هذا الخليل كنى عنه باسم فلان. إذا لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان.

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول واللعنة. كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧][٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ **[الفرقان: ٣٠]**.

هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هذا دَخَلَ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[٣].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٠ ـ ١٦٢). (٢) الرسالة التبوكية (٥٥).

(٣) الفوائد (٨٢).

قــولــه تــعــالــى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى، ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها، مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصف ـ سبحانه ـ به كتابه في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

فالحق: هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهي تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله في الظهور والبيان، وباقيه[1] في الاشتقاق الأكبر: الإسفار ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت وظهوره، ومنه السِّفْر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم وبيانه، فلا بد من أن يكون التفسير مطابقاً للمفسر مفهماً له، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن، ولهذا لا تجد كلاماً أحسن تفسيراً، ولا أتم بياناً، من كلام الله ـ سبحانه ـ، ولهذا سمّاه سبحانه بياناً، وأخبر أنه يسّره للذكر، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعاً من التيسير:

أحدها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب، لم يكن ميسَّراً له، بل كان معسَّراً عليه، فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، وهو مناف للتيسير؛ فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه ـ سبحانه ـ لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا مبايناً له، ولا محايثاً، ولا يرى بالأبصار عياناً، ولا له وجه، ولا يد، من قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١][2].

* * *

(١) أشار محقق الصواعق إلى أن في نسخة: و«تلاقيه»، وقال: ولعلها يلاقيه.
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فشبّه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق؛ فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون، ولا يهتدون، ولا يفرّقون بين ما يضرّهم وما ينفعهم.

والأنعام تفرّق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه، وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما أعطى وجعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار. فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل، أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

فأخبر تعالى: أنه بسط الظل ومدّه، وأنه جعله متحركاً تبعاً لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكناً لا يتحرك، إما بسكون المظهر له، والدليل عليه، وإما بسبب آخر. ثم أخبر أنه قبضه ـ بعد بسطه ـ قبضاً يسيراً، وهو شيء بعد شيء، لم يقبضه جملة. فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته، وكمال حكمته.

فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته. ولو شاء ربنا لجعله لاصقاً بأصل ما هو ظل له، من جبل وبناء وشجر وغيره. فلم ينتفع به أهله، فإن كان الانتفاع به تابعاً لمده وبسطه، وتحوله من مكان إلى مكان. وفي مده وبسطه، ثم قبضه شيئاً فشيئاً: من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى، فلو كان ساكناً دائماً، أو قبض دفعة واحدة: لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس، فمد الظل وقبضه شيئاً فشيئاً لازم لحركة الشمس، على ما قدرت عليه من مصالح العالم.

وفي دلالة الشمس على الظلال: ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى من

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢١٠).

اليوم، وما بقي منه. وفي تحركه وانتقاله: ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه.

وفي الآية وجه آخر، وهو: أنه سبحانه مد الظل حين بنى السماء، كالقبة المضروبة، ودحى الأرض تحتها، فألقت القبة ظلها عليها فلو شاء ـ سبحانه ـ لجعله ساكناً مستقراً في تلك الحال. ثم خلق الشمس ونصبها دليلاً على ذلك الظل، فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها، وينقص، ويمتد ويتقلص. فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر، وهو: أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه. وقوله تعالى: ﴿قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا﴾ كأنه يشعر بذلك. وقوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يشبه قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]. وقوله: ﴿قَبَضْنَهُ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك. كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]. والوجه في الآية: هو الأول(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢].

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

هذا من ألطف خطاب القرآن، وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه. وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له ـ سبحانه ـ كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٣).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥).

وعبارات السلف على هذا تدور.

ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.

وقال ليث عن مجاهد قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، ويعينه عليها. وقال زيد بن أسلم: ظهيراً، أي: موالياً.

والمعنى: أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه. فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلٰهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان، ومع نفسه وهواه وقربانه.

ولهذا صدّر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، وهذه العبادة: هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته، ومساخطه، بخلاف وليه ـ سبحانه ـ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه.

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق[1].

□ □ □

[وقد] نفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي، فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير بَيِّنٌ أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ **[الفرقان: ٦١، ٦٢]**.

فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خِلفَة، أي: يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما. وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار، كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا

(١) الفوائد (٧٩، ٨٠).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢، ٣).

يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه[(١)].

[والآية] تعظيم وثناء منه ـ تعالى ـ على نفسه بجعل هذا البروج والشمس والقمر في السماء، وقد اخْتُلِفَ في البروج المذكورة في هذه الآية فأكثر السلف على أنها القصور أو الكواكب العظام.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا موسى، حدثنا شجاع، حدثنا ابن إدريس عن أبيه عن عطية: ﴿جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾، قال: قصوراً فيها حرس.

حدثنا موسى، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو معاوية ووكيع عن إسماعيل عن يحيى بن رافع قال: قصوراً في السماء.

حدثنا موسى، حدثنا أبو بكر، حدثنا وكيع عن سفيان بن أبي نجيح عن مجاهد قال: النجوم يعني: بروجاً.

وكذلك قال عكرمة: حدثنا أبو أحمد، حدثنا يعلى، حدثنا إسماعيل عن أبي صالح: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال: النجوم الكبار[(٢)]، وهذا موافق لمعنى اللفظة في اللغة، فإن العرب تسمي البناء المرتفع برجاً.

قال ـ تعالى ـ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال الأخطل:

كَأَنَهَا بُرْجٌ رُومِيٌّ يُشَيِّدُهُ ... بَانٍ يَجُصُّ وَآجُرّ وأَحْجَارِ

قال الأعمش: كان أصحاب عبد الله يقرأونها: [تبارك الذي جعل في السماء قصوراً].

وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى البروج الاثني عشر التي تنقسم عليها المنازل، كل برج منزلتان وثلث، وهذه المنازل الثمانية والعشرون يبدو منها للناظر أربعة عشر منزلاً أبداً ويخفى منها أربعة عشر منزلاً، كما أن البروج يظهر منها أبداً ستة ويخفى ستة، والعرب تسمي أربعة عشر منزلاً منها شامية، وأربعة عشر يمانية، فأول الشامية السرطان وآخرها السماك الأعزل، وأول اليمانية

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) انظر: الدر المنثور (٦/ ٢٦٩)، وتفسير الطبري (١٩/ ٢٩).

العفر وآخرها الرشا. إذا طلع منها من المشرق غاب رقيبه من المغرب وهو الخامس عشر، وبها تنقسم فصول السنة الأربع، فللربيع منها: الحمل والثور والجوزاء ومنازلها الشرطين والبطين والثريا والديران والهقعة والهنعة والذراع، وللصيف منها: السرطان والأسد والسنبلة ومنازلها الثرة والطرف والجبهة والزبرة والضرفة والعواء والسماك، وللخريف منها: الميزان والعقرب والقوس ومنازلها الغفر والزبان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة، وللشتاء منها: الجدي والدلو والحوت ومنازلها سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية، والفرع المقدم ويسمى الأول، والفرع المؤخر ويسمى الثاني، والرشا ولما كان نزول القمر في هذه المنازل معلوماً بالعيان والمشاهدة ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٨، ٣٩].

فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس، وإن كانت مقدرة المنازل لظهور ذلك للحس في القمر وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل مَنْزِلٍ مُنْزَلٍ.

ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي، ولهذا قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾. ولم يقل ذلك في الشمس، ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله، لا على حساب الشمس وسيرها حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعذر الغلط والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب، فهذا الذي أخبرنا ـ تعالى ـ به من شأن المنازل وسير القمر فيها وجعل الشمس سراجاً، وضياء يبصر به الحيوان ولولا ذلك لم يبصر الحيوان، فأين هذا مما يدعيه الكذابون من علم الأحكام التي كَذِبُهَا أضعافُ صدقها[1]؟

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٥٣٨، ٥٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

إن الله ـ سبحانه ـ مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

فـ«سلاماً» هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه، أي: قالوا قولاً سلاماً، أي: سداداً وصواباً وسليماً من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل. فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلّموا عليهم، وليس هذا معنى الآية ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: بسكينة ووقار. والهَوْن بفتح الهاء من الشيء الهين وهو مصدر هان هوناً، أي: «سهل»، ومنه قولهم: يمشي على هينته ولا أحسبها إلا مولدة[1]. ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة، فهي فعلة من الهون وأصلها هِوْنة فقلبت واوها ياءً لانكسار ما قبلها، فاللفظة صحيحة المادة والتصريف، وأما الهُون بالضم فهو الهوان فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهَون.

فوصف مشيهم بأنه مشيُ حلم ووقار وسكينة لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم، فتأمله[2].

□ □ □

قال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سفه عليهم حلموا.

---

(١) لسان العرب (٨/ ٤٧٤١).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٨، ١٥٩).

«والهون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهُون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

والغرام: الشر الدائم واللازم والعذاب.

قال بشر:

وَيَوْمُ النِّسَارِ وَيَوْمُ الجِفَا رِكَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَاما

وقال الأعشى:

إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وَإنْ يُعْـ ـطِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لا يُبَالِي

وقال أبو عبيدة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كان هلاكاً ولزاماً لهم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النَّمط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين.

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح[٤].

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٧).
(٢) روضة المحبين (٥٨).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٢).
(٤) الجواب الكافي (٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»[1] [الفتح: ١، ٢].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة، فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها هاهنا»، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[2].

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر. فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب.

والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين

---

(١) أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه، كما في الدر المنثور (٦/ ٢٧٩).

(٢) رواه مسلم (١٩٠).

في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟ والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فَهْم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عُرفت عُرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه. فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيرَ الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح. وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول.

يوضحه: أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلّت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله، فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها.

يوضحه: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعاً، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب،

كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة. فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل، وأما في الحديث: فإن الذي عُذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبيّن ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: «أخبئوا عنه كبارها»، فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحاً واغتباطاً.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرضت عليه الصغائر، فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الرحيم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١].

التوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو **أحد التأويلات** في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

قال البغوي وغيره: ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ يعود إليه بعد الموت، متاباً حسناً يفضل عن غيره.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٤).

فالتوبة الأولى: وهي قوله: «ومن تاب»: ـ رجوع عن الشرك.

والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر، والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصاً، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه، والمعنى: فليعلم توبته إلى مَنْ؟ ورجوعه إلى مَنْ؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا ـ على أحد التأويلين ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. أي: اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته[١].

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوي العزم وصار جازماً: وُجد به فعل التوبة.

فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها.

والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها، والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً، وهذا نظير قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٢][٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ **[الفرقان: ٧٢]**.

قال محمد بن الحنفية: «الزور هٰهنا الغناء»، وقاله ليث عن مجاهد. قال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل. واللغو في اللغة: كل ما يلغى ويطرح.

والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل. وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه، أو يميلوا إليه. ويدخل في هذا: أعياد المشركين ـ كما فسرها به السلف ـ والغناء، وأنواع الباطل كلها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٠٧).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (١/ ٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣١٤، ٣١٥).

قال الزجاج: «لا يجالسون أهل المعاصي، ولا يمالئونهم عليها، ومرّوا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه، والاختلاط بأهله».

وقد روي: أن عبد الله بن مسعود ﷺ: مر بلهو فأعرض عنه فقال رسول الله ﷺ: «إن أصبح ابن مسعود لكريماً»[1].

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاصاً، فمعناها عام، متناول لكل من سمع لغواً فأعرض عنه، وقال بقلبه أو لسانه لأصحابه: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم».

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، ولم يقل: بالزور لأن «يشهدون» بمعنى: يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به، وفعله؟ والغناء من أعظم الزور، والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها. كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به، فقال: «هذا الزور» فالزور: القول، والفعل، والمحلُّ. وأصل اللفظ من الميل. ومنه الزَّوْر، بالفتح ومنه: زرت فلاناً، إذا ملت إليه، وعدلت إليه، فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفعلاً[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صماً، لم يسمعوه، وعمياناً: لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به.

وقال ابن عباس: لم يكونوا عليه صمّاً وعمياناً، بل كانوا خائفين خاشعين.

وقال الكلبي: يخرون عليها سمعاً وبصراً.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٤) عن إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف. . .، فذكره. قال الألباني: ضعيف، إبراهيم بن ميسرة تابعي ثقة، فهو مرسل، ومحمد بن مسلم، وهو الطائفي صدوق يخطئ. الضعيفة برقم (١١٦٧). وانظر: التهذيب (٩/ ٤٤٤)، والثقات لابن حبان (٧/ ٣٩٩)، والدر المنثور (٦/ ٣٨٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤١، ٢٤٢).

وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعوه، فذلك الخرور، وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني.

والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صمّاً وعمياناً.

وقال الزجاج: المعنى: إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكياً سامعين مبصرين كما أمروا به.

وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعميٌّ لم يروها[١].

قلت: هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه، وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً، أو بالبدن سجوداً، أو ليس هناك خرور وعبّر به عن القعود؟[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال سعيد بن منصور حدثنا حزم قال: سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؟ فقال: يا أبا سعيد ما هذه القرة أعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟

قال: لا، بل والله في الدنيا.

قال: وما هي؟

قال: والله أن يريَ اللهُ العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه، طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولداً أو والداً أو حميماً، أو أخاً، مطيعاً لله ﷻ[٣].

وإمام بمعنى: قدوة، وهو يصلح للواحد وللجمع كالأمة والأسوة، وقد قيل: هو جمع آمم كصاحب وصحاب، وراجل ورجال، وتاجر وتجار، وقيل: هو مصدر كقتال وضراب، أي: ذوي إمام.

---

(١) تفسير غريب القرآن (٣١٥).
(٢) الفوائد (٨٠).
(٣) تحفة الودود (١٣٤).

والصواب: الوجه الأول، فكل من كان من المتقين وجب عليه أن يأتم بهم، والتقوى واجبة، والائتمام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفتوا به مخالف للائتمام بهم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

قال محمد بن علي بن الحسين: الغرفة: الجنة، بما صبروا. قال: على الفقر في الدنيا.

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة. قالت عائشة: وَلِمَ يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً، يا عائشة! لا تردّي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقرّبيهم فإن الله يقربك يوم القيامة»[٢].

قلت: أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن معصيته، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دلَّ على جزاء الصابرين، دلَّ على جزاء الشاكرين أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا.

وأما الحديث فإنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح، بل قال فيه البخاري: منكر الحديث، ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنّه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته[٣].

إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٠).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٤٩٩) في الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة... والحديث صححه الألباني ـ حفظه الله تعالى ـ كما في الصحيحة برقم (٣٠٨)، وفي إرواء الغليل (٣/ ٣٥٨)، فانظره مفصلاً.

(٣) راجع: الإرواء كما سبق بيانه.

ليست مسكنة فقر المال، بل مسكنة القلب، وهي انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر، فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز، وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [**الفرقان**: ٧٧].

[أي]: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أيُّ شيءٍ يعبأه بكم لولا عبادتكم إياه فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل[٢].

وأصح الأقوال في الآية: أن معناها: ما يصنع بكم ربي لولا عبادتكم إياه، فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته[٣].

* * *

(١) عدة الصابرين (١٧٥، ١٧٦).

(٢) جلاء الأفهام (٨١).

(٣) مفتاح دار السعادة (٤١٨).

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

لا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة، فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

[انظر تفسيرها عند الآية (٨٠) من سورة الإسراء (ج٢، ص١٤٩)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

والسليم: هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف.

فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضاً فإنه ضد المريض، والسقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم.

والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم في محبته مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. هذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

---

(١) الجواب الكافي (٢٦٤).

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة، وتوكلاً، إنابة، وإخباتاً، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله وأمره كله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب، وهي العقائد. وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله، إلى ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قوة ولا عمل.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؟ أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرّب إلى الرب ﷻ، وابتغاء الوسيلة إليه ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤالك عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبّد، أي: هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص،

وهوى يعارض الاتباع. فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة[(١)].

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء:

من شرك يناقض التوحيد.

وبدعة تخالف السنة.

وشهوة تخالف الأمر.

وغفلة تناقض الذكر.

وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تنحصر[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومعلوم أنهم ما سووهم به ـ سبحانه ـ في الخلق، والرزق، والإماتة والإحياء، والمُلك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته وملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟[(٣)].

□ □ □

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٧، ٨).
(٢) الجواب الكافي (١٧٩).
(٣) الجواب الكافي (١٩٧).

والعبودية والتعظيم، ومع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة أن لا إلٰه إلا الله.

فحقيق لمن تصلح نفسه، وأحب سعادتها ونجاتها: أن يستيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجلّ علومه وأعماله. فإن الشأن كله فيها والمدار كله عليه، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إلٰه إلا الله»، وهذا حق فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها.

فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها، ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم الرسل؟ فالسؤال عما إذا كانوا يعبدون: هو السؤال عنها نفسها. والسؤال عما إذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه حقيق بأن تثني عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ولا يطلب على فضلة، والله الموفق لا إلٰه غيره ولا رب سواه[1].



(١) طريق الهجرتين (٣٨٣).

سُورَةُ النَّمْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثر سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصاً به. وأيضاً فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة أن يقال: «مات فلان وورثه ابنه»، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه. وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يبيّن أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٥، ١٦]، وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه وما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥، ٦].

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله، فيسأل الله العظيم ولداً يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٧٣).

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النملة، حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد»(١). وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبِّح، فهلَّا نملة واحدة»(٢)؟

وذكر هشام بن حسان: «أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكم ونفعل قال: فذهبن». وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٣٣٢ و٣٤٧)، أبو داود (١٤/ ١٧٨) في الأدب، باب: في قتل الذر، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٤) في الصيد، باب: ما نهي عن قتله، ورواه غيرهم، وصححه الألباني، كما في الإرواء (٨/ ١٤٢). و«الصُّرد» هو طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود. انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٢١).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١).

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم»[1]. ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره. وقال: الإمام أحمد حدثنا[2].

قال: «خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم». «ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها. قال: فرفعتُ ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية، فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب».

والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل، ويُذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وبسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاءً لنفسي. فعجب سليمان من شدة حرصها.

وهذا من أعجب الهداية والعطية، ومن حرصها، أنها تكدُّ طول الصيف وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها

(١) لم أهتد إليه في كتاب الزهد، وإنما وقفت على الذي بعده.

(٢) وفي الزهد حدثنا عبد الله حدثنا أبي حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي... فذكره. الزهد، ص(٨٣).

شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟ فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه من فتات الخبز من أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً، حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيراً فلا، ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً ويملأه ماءً، ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك. وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزاً له وهو أبعد مكان في المحيط[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

(١) شفاء العليل (٦٩، ٧٠).

لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٤].

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾، وفي ضمن هذا: أنِّي أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم به شأن فلذلك قال: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾.

والنبأ: هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفزعت قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلِّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذاناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصدَّ حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض.

وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض، قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك

بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض ـ جلت قدرته ولطف علمه ـ، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا، فكيف تجعلون معه إلٰهاً آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية: «أإلٰه مع الله فعل هذا» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إلٰه فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلٰهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى: «هل مع الله إلٰه آخر؟» من غير أن يكون المعنى: «فعل هذا»، فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير، أي: فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إلٰه آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلٰهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]، وهو كثير في القرآن، وبه تتم الحجة كما تبين[2].

□ □ □

(١) شفاء العليل (٧٠، ٧١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤١٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

هل السلام من الله؟ فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه؟ أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعاً؟

فالجواب عنه: أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح.

فيرجح كونه داخلاً في جملة القول لأمور:

منها: اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل. وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعاً على كل واحد منهما. هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد لله، وسبحان الله، فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها: أنه إذا كان معطوفاً على المقول كان عطف خبر على خبر، وهو الأصل. ولو كان منقطعاً عنه كان عطفاً على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب.

ومنها: أن قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، ظاهر في أن المسلم هو القائل: الحمد لله ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة، ولم يقل: سلام على عبادي.

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور:

أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن، من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى، كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

ومنها: أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم.

أما الأول: فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]. وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله، ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول ضُلَّال خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم، المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم أعدائهم لزم سلامة كل ما جاؤوا به من الكذب والفساد.

وأعظم ما جاؤوا به: التوحيد ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به

نفسه على ألسنتهم، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد: فهو الحق المحض. وما خالفه فهو الباطل والكذب المحال.

□ □ □

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاؤوا به من كل باطل.

فقابل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد بكون السلام هنا من الله تعالى، كما هو في آخر الصافات. وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره، فمنه قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ونظائره كثيرة جداً.

وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمها انتظاماً واحداً. فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس له فيه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه، وسلم على صفوة عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك. فإذا قال الرسول: «الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى»، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد الرب به نفسه وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد: اقتداء وطاعة.

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين[٢].

فأمر ـ سبحانه ـ بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، فإن كون العبد

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٠ ـ ١٧٢). (٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٧).

على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد. فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فوصف الكافر بأنه ميت، وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما[٢].

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين (٢٣٩).

(٢) شفاء العليل (١٠٤).

سُورَةُ القَصَصِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدواً وحزناً، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزناً لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون له فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون في قبضته وتحت تصرفه. فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

فهذا جعلٌ كونيٌّ قدري، أي: قدرنا ذلك وقضيناه، وجعل العبد إماماً يدعو إلى النار أبلغ من جعله يزني ويسرق ويقتل، وجعله كذلك أيضاً لفظ مجمل يراد به أنه جبره وأكرهه عليه واضطره إليه، وهذا محال في حق الرب تعالى، وكماله المقدس يأبى ذلك وصفات كماله تمنع منه كما تقدم، ويراد به أنه مكنه من ذلك وأقدره عليه من غير أن يضطره إليه ولا أكرهه ولا أجبره فهذا حق[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

---

(١) شفاء العليل (١٩١).
(٢) شفاء العليل (١٣٦).

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك؛ فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعاً الذين يقولون: إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط، والذين يقولون: إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلاً بدون البعثة فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين، ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه: أنها قبيحة في نفسها ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب، فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها وفرق بين الأمرين[١].

□ □ □

وهذا يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم. ولولا قبحه لم يكن سبباً لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم. فمنذ جاء الرسول انعقد السبب، ووجد الشرط، فأصابهم سيئات ما عملوا، وعوقبوا بالأول والآخر[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠].

فقسم الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر.

والمقصود: أن الواجب على الخلق بعد وفاته هو الواجب عليهم في حياته سواء، ففرض من سمع كلامه أن يأخذ به، ومن خفي عليه قوله سأل من يعرفه، فإذا سمعه ففرض عليه أن يأخذ به فإن خفي عليه، فغاية قول غيره أن يسوغ له الأخذ به؛ فيكون سائغ الاتباع بعد خفاء السنة لا واجب الإتباع، ولا سيما مع ظهور السنة وبالله التوفيق[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٤٩). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٢، ٢٣٣).
(٣) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٢٦، ١٥٢٧).

فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول، فهو من الهوى[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله ﷺ مكة فآمنوا به فعيرهم المشركون، وقالوا: قبحتم من وفد بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم، فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل، فقالوا: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[(٢)].

وكان رفع (السلام) متعيناً لأنه حكاية ما قد وقع، ونصب (السلام) في آية الفرقان متعيناً لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل.

فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة، والله المحمود وحده على ما منّ به وأنعم[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله ﷻ ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد اعبدوهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

ليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨١).

(٢) ذكره ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤١٨).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٩، ١٦٠).

المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار هاهنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، فإنه لا يخلق إلا باختياره، وداخل في قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ فإن المشيئة هي الاختيار.

وإنما المراد بالاختيار هاهنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص، وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق.

وأصح القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، ويكون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفياً، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع، وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٣٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي: على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقاً له إذ أُعطيته. وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود (النبي) فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل: هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، يعني: أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلي به فشكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه[1].

ولهذا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ [القصص: ٧٨].

فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضاء الله سبحانه عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده، لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته، علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨].

قال البخاري في صحيحه: يقال: كل شيء هالك إلا وجهه: إلا ملكه، وقال: إلا ما أريد به وجهه[3].

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب، لأنه سقف الجنة، والله ﷻ عليه فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا

(١) الفوائد (٢٠٠). (٢) شفاء العليل (٣٧).
(٣) رواه البخاري معلقاً (٨/ ٣٦٤) في التفسير، أول سورة القصص، والطبري (٢٠/ ١٢٧).

وَجْهَهُۥ﴾، فذلك أن الله ﷻ أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦]. وقالت الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السماوات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: كل شيء هالك ـ يعني: ميت ـ إلا وجهه لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الإصطخري ذكره أبو الحسين في (كتاب الطبقات) قال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: «هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة والمتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، خلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً.

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وبنحو هذا من متشابه القرآن؟ قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك. وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة ولا أبداً. لأن الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع، وقد ضل عن سواء السبيل. وخلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمٰن ﷻ فوق الماء، وأن الله ﷻ على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السماوات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، وما في قعر البحر ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة وعدد كل كلمة وعدد الحصى والتراب والرمل ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة ودونه حجب من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم بها.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، ونحو هذا من متشابه القرآن، فقل: إنما يعني بذلك: العلم، لأن الله ﷻ على العرش فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كله، وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان(١).

❁ ❁ ❁

(١) حادي الأرواح (٤٩ ـ ٥١).

سُورَةُ العَنْكبُوتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ② وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ③ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ④ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ⑤ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٦].

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره.

وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل. وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه.

وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق. والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم. ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإنَّ بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر عنه.

فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت،

وإما أن لا يقول بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنا، امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلي به من قال: آمنت.

فمن آمن به وبرسله فلا بد أن يبتلى من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلا بد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين.

فلا بد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها يتألمون بفقدها ابتداء ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها.

فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات. فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث، فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم وللسرور والحزن والفرح والغم، وذلك من جهتين:

من جهة تركيبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لا بد أن يبغي بعضها على بعض فيخرج عن حد الاعتدال. فيحصل الألم.

ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته، كما لم يوافقهم على مراداتهم فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك.

فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على

أمور يعلم أنها عقائد باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصاً من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر.

فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم، أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلاً أضعاف أضعاف ما فر منه. وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم، وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة. وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لا بدَّ من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

ولما كان زمن التألم والعذاب فصبره طويل فأنفاسه ساعات وساعته أيام وأيامه شهور وأعوام، سلَّى سبحانه الممتحنين فيه بأن لذلك الابتلاء أجلاً ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلاً للقائه يسليهم به ويسكِّن نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلي سبحانه وإثابته هان عليه ما هو فيه، وخف عليه حمله.

ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره، كان أتم اجتهاداً وأوفر سعياً، فقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأيضاً فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما يعود مضرته وعنته عليهم في معاشهم ومعادهم.

فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم، واقتضت حكمته أن نصب

ذلك سبباً مفضياً إلى تميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي ومن يصلح له ممن لا يصلح. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم وجيدهم من رديئهم، فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان.

ثم لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه؛ لأنه لما آمن به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **[العنكبوت: ٨]**.

ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به، فيصبر على هذه المحنة والفتنة ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفاً، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله. وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **[العنكبوت: ١٠]**.

ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء، وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه وفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الله له على الإيمان بالله ورسوله، وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله.

وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهم من المفتونين المعذبين وإن فرَّ من عذاب الناس له على الإيمان.

ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نُصروا لجأ إليهم وقال: كنت معكم والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم بالغرق(١).

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

يقول تعالى: انظروا كيف بدأتُ الخلق فاعتبروا الإعادة بالابتداء(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ

(١) شفاء العليل (٢٤٥ ـ ٢٤٧).
(٢) زاد المعاد (٣/ ١٣ ـ ١٨).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٩٧).

ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم، وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً، وهو أوهن البيوت وأضعفها.

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء ضِعفاً كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده.

وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم ذلك بقوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؟.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه، يفيدهم عزاً وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر،

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر[(١)].

وقد أخبر سبحانه عن أمثاله التي يضربها لعباده، يدلهم على صحة ما أخبر به، أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها.

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه بكى، ويقول: لست من العالمين[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فقيل: المعنى: أنكم في الصلاة تذكرون الله، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ قال: هو قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء.

وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾؟ ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق» الحديث[(٣)].

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول: الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩). (٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥١).
(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ١٩٥)، والترمذي (٣٣٧٧).

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس: أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر.

وفي السنن عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى»[١]. رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧ ـ ٤٩].

إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم.

وسواء كان المعنى: أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين.

أحدهما: أنه آيات بينات.

الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم. أو كان المعنى: أنه آيات بينات في صدورهم، أي: كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم. والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم، فتأمله[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ذكر هذا جواباً لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل لم يكن دليلاً على صدقه فضلاً عن أن يكون كافياً. والمقصود أن الله سبحانه تمم

---

(١) رواه أبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢).

(٢) الوابل الصيب (٩٤، ٩٥) دار البيان. (٣) مفتاح دار السعادة (٥٤).

الدين وأكمله بنبيه وما بعثته به فلم يحوج أمته إلى سواه، فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه لم يكن كافياً للأمة ولا كان تاماً في نفسه.

في مراسيل أبي داود: أن الرسول ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة فيها شيء من التوراة فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على نبي غير نبيهم»، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1][2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [**العنكبوت**: ٦٤].

والمراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وإن الآخرة يعني: الجنة لهي دار الحياة التي لا موت فيها، فقال الكلبي: هي حياة لا موت فيها.

وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة. وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى: الحياة.

قال أبو عبيدة وابن قتيبة: «الحياة: الحيوان»، قال أبو عبيدة: الحياة والحيوان الحي ـ بفتح الحاء ـ واحد.

قال أبو علي: يعني: أنها مصادر، فالحياة فعلة كالجلبة، والحيوان كالنزوان والغليان، والحي كالعي، قال العجاج:

كُنا بِها إذا الحياة حي

أي: إذا الحياة حياة، أما أبو زيد فخالفهم. وقال: الحيوان: ما فيه روح، والموتان والموات: ما لا روح فيه.

والصواب: أن الحيوان يقع على ضربين:

أحدها: مصدر كما حكاه أبو عبيدة.

والثاني: وصف كما حكاه أبو زيد على قول أبي زيد: الحيوان مثل الحي خلاف الميت.

---

(١) لم أهتد إليه بهذا اللفظ، لكن جاء هذا المعنى في أحاديث أخر بلفظ: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟...»، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ٩٥) قريب منه، في العلم، باب: ما يتقي من تفسير حديث النبي ﷺ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧) ورواه غيرهم، والحديث حسنه الألباني، كما في السنة (١/ ٢٧)، والمشكاة (١/ ٦٣) وحسنه، وفصل تخريجه في الإرواء (٦/ ٣٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٢٦، ٨٢٧).

ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان.

وأجاب من رجح القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضاً، قالوا: رجل ضميان للسريع الخفيف، وزفيان قال في الصحاح: ناقة زفيان سريعة، وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم.

فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ معنيين:

أحدهما: أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي: لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار فيكون الحيوان مصدراً على هذا.

الثاني: أن يكون المعنى: أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه[٢].

❁ ❁ ❁

(١) حادي الأرواح (٨٧، ٨٨).
(٢) الفوائد (٥٨).

سُورَةُ الرُّومِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١ ـ ٤].

روى الترمذي في جامعه عن ابن عباس: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، لأنهم أولياؤهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر رضي الله عنه، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «أما إنهم سيغلبون»، فذكروه لهم فقالوا: اجعلوا بيننا وبينكم أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا.

فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلت إلى دون العشرة».

قال سعيد بن جبير: والبضع ما دون العشرة.

قال: ثم ظهرت الروم بعد. قال فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيات[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٤، ١٥].

قال صاحب السماع[2]: جاء في التفسير أنه السماع، ولو كان حراماً لما كان من أفضل نعيم الجنة.

(١) الفروسية (٤).

(٢) مناظرة بين مبيح السماع المحرم وبين صاحب القرآن المقسط.

قال صاحب القرآن: لو أمسكتم عن استدلالكم لصحة ما ذهبتم إليه؛ لكان أستر له وأروج عند من قل نصيبه من البصيرة والعلم، ولكن يأبى الله إلا أن يكشفه ويهتكه على ألسنتكم.

ولا ريب أنه قال بعض السلف[١]: إن الحبرة ههنا السماع الحسن في الجنة، وإن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع خلائق بأحسن منها، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له.

وذكر أبو نعيم في صفة الجنة[٢] من حديث سعيد بن أبي مريم: حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط. إن مما يغنين: نحن الخيرات الحسان، نحن أزواج قوم كرام، ينظرون بِقُرَّةِ أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه، نحن الآمنات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنه»، تفرد به سعيد بن أبي مريم[٣].

وروي من طريق الوليد بن أبي ثور: حدثني سعد الطائي عن عبد الرحمٰن بن سابط عن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: فذكر حديثاً فيه: «أنه تجتمع الحور العين في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات حسان لم يسمع الخلائق مثلهن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن، طوبى لمن كان لنا وكنا له»[٤].

وروي من طريق ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن عون بن الخطاب عن ابن

---

(١) وهو أحد القولين اللذين ذكرهما ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٢٧، ٢٨).

(٢) صفة الجنة (٣/ ٢٧٨).

(٣) سعيد بن أبي مريم هو «سعيد بن الحكم» ثقة ثبت فقيه من كبار العاشرة، التهذيب (٤/ ١٧، ١٨)، والحديث رواه الطبراني في الأوسط والصغير (١/ ٢٥٩، ٢٦٠)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٥٥٧).

(٤) صفة الجنة (٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» برقم (٢٢٤) من وجه آخر، والحديث ضعفه العراقي، كما في تعليقه على الإحياء (٤/ ٥٢٥)، والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (١٩٨٢).

لأنس بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحور العين يغنين في الجنة: نحن الحور الحسان خلقنا لأزواج كرام»[١].

ومن طريق يزيد بن واقد عن رجل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة جذوعها من ذهب وفروعها من زبرجد ولؤلؤ، فتهب لها ريح فتصفق فما سمع السامعون بصوت شيء قط ألذ منه»[٢].

ومن طريق خالد بن معدان عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزامير الشيطان»[٣].

وروى الترمذي: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الرحمٰن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم يسمع الخلائق مثلها، قال: يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»[٤]. وقال: حديث غريب.

وروى الطبراني من حديث سليمان بن أبي كريمة ـ وفيه كلام ـ عن هشام بن حسان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة، قالت: قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي، مجامرهن الدرر وأمشاطهن الذهب، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ألا ونحن

---

(١) صححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٥٩٨)، وانظر: تخريجه مفصلاً في صفة الجنة (٣/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٢) صفة الجنة (٣/ ٢٨٢)، وقال محققه: إسناده ضعيف جداً، فيه مسلمة بن علي هو ابن خلف الخشني، ضعفه جداً غير واحد.

(٣) صفة الجنة (٣/ ٢٨٢، ٢٨٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٣) برقم (٧٤٧٨)، وحسنه الحافظ العراقي كما في الإحياء (٤/ ٥٢٦) في باب: صفة الحور العين والولدان.

(٤) رواه الترمذي (٤/ ٦٠٠) كتاب صفة الجنة، باب: ما جاء في كلام الحور العين. وقال: «غريب»، أي: ضعيف.

الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا...»[١] الحديث.

فيقال لكم: هل يلزم من كون الشيء ينعم الله به عباده في الآخرة أن يكون مباحاً لهم في الدنيا؟ فإن قلتم: لا يلزم ذلك؛ بطل استدلالكم. وإن قلتم: يلزم؛ قيل لكم: فالله سبحانه ينعمهم في الآخرة بلباس الحرير وأساورة الذهب فجوزوا لهم لباس ذلك في الدنيا وخالفوا دينه وأمره، وأيضاً فإن الله ﷻ ينعمهم في الجنة بالخمر، فجوزوا لهم شربها في الدنيا على طرد قولكم، وأيضاً فإنهم في الجنة يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة، وقد قال ﷺ: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[٢]، وطرد قولكم: إنها كما هي للمسلمين في الآخرة تكون مباحة لهم في الدنيا، وقد قال النبي ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[٣]. وقال في صحاف الذهب والفضة: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». فأخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا من المطعوم والملبوس وغيرهما لم يستعملها في الآخرة، فإما أن يستعملها أهل الجنة ويحرمها هو وإن دخلها، كما روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا حسن ـ يعني: ابن علي بن حسن البراد ـ عن حميد الخراط عن محمد بن كعب قال: من شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة. قال: قلت: فإنه تاب حتى أدخله الله الجنة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]. قال: ينسيهم الله ذكرها أو أن ذلك وعيد له بأنه لا يدخل الجنة.

فإن هذه الأمور يستعملها أهل الجنة فمن لم تحصل له في الآخرة لم يكن من أهل الجنة. وهما تأويلان للسلف في هذه الأحاديث.

فلو قيل: إن هذا السماع اللذيذ الموعود به في الجنة، إنما هو لمن نزه سمعه في الدنيا عن سماع الغناء والملاهي اعتباراً بنظيره من اللباس وشرب الخمر واستعمال

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٦٧) برقم (٨٧٠). وانظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٧). وفيه سليمان بن أبي كريمة «ضعيف».

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).

(٣) هذان حديثان أولهما: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة...»، رواه مسلم (٢٠٠٣)، والجزء الثاني: «من لبس الحرير... إلخ»، رواه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

آنية الذهب والفضة، لكان هذا أشبه بالصواب وأصح من استدلالكم على إباحته في الدنيا باستعمال أهل الجنة له(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

فدل بالنظير على النظير وقرب أحدهما من الآخر جداً بلفظ الإخراج، أي: يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٠ ـ ٢٥].

ونوَّع سبحانه الآيات في هذه السور، فجعل خلق السماوات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون. فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكر والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإلٰه الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل، والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم.

وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم، كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه.

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٤٦ ـ ٢٥٥). (٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

وجعل إراءهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون. فإن هذه أمور مرئية بالإبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها.

وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت آية له، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]. فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا مفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلُّوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه؛ ولكن غيرت الفطر وأفسدت، كما قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تُنتَج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟ ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٠٣، ٢٠٤). (٢) الجواب الكافي (٢٠٧).
(٣) رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا، إنه قال: كل مال نحلته عبداً فهو له حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[١]، فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره.

وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السمٰوات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره.

فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك. كما أنه الغني القادر الحي القيوم السميع البصير فهو سبحانه الإلٰه الحق المبين، والإلٰه هو الذي يستحق أن يؤله محبة وتعظيماً وخشية وخضوعاً وتذللاً وعبادة، فهو الإلٰه الحق ولو لم يخلق خلقه، وهو الإلٰه الحق ولو لم يعبدوه؛ فهو المبعود حقاً، الإلٰه حقاً المحمود حقاً.

ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يؤلِّهوه، فهو الله الذي لا إلٰه إلا هو قبل أن يخلقهم، وبعد أن خلقهم، وبعد أن يفنيهم، لم يستحدث بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاق إلٰهية وحمد؛ بل إلٰهيته وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له لحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله.

فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يعبد، وإن لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتاباً ولو لم يخلق جنة أو ناراً؛ علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه.

وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفضيله وزيادته حسناً إلى حسنه.

فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا، وتوافقا وظهر أنهما من مشكاة واحدة؛ فعبدوه وأحبوه ومجّدوه وحمدوه بداعي الفطر وداعي الشرع وداعي العقل، فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة، ودعتهم إلى وليهم وإلٰههم وفاطرهم، فأقبلوا إليه

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريباً وشكاً، ولا أَمْرَهُ شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه، فأجابوا دواعي المحبة والطاعة إذ نادت بهم: حي على الفلاح، وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل أخي السماح، وحمدوا عند الوصول إليه مسراهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح، فدينهم دين الحب وهو الدين الذي لا إكراه فيه، وسيرهم سير المحبين وهو الذي لا وقفة تعتريه[(١)].

□ □ □

وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وهذا يعم جميع الناس، فعلم أن الله سبحانه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وأيضاً فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم؛ فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة كدين الله وبيته وناقته، وأيضاً فإنه قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وأيضاً فإن هذا تفسير السلف، قال ابن جرير: يقول: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك الله يا محمد لطاعته، وهي الدين ﴿حَنِيفًا﴾ يقول: مستقيماً لدينه وطاعته ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها، ونصب فطرة على المصدر من معنى قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ لأن المعنى: فطر الله الناس على ذلك فطرة.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يقول: لا تغيير لدين الله، أي: لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يفعل، قال ابن نجيح: عن مجاهد ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله، ثم ذكر أن مجاهداً أرسل إلى عكرمة يسأله عن قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، قال: هو الخصا، فقال مجاهد: أخطأ، لا تبديل لخلق الله، إنما هو الدين ثم قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، وروي عن عكرمة: لا تبديل لخلق الله قال: لدين الله، وهو قول سعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وابن زيد.

وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد: هو الخصا[(٢)] ولا منافاة بين القولين، كما قال تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]. فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصا وقطع آذان

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٢١ ـ ٤٢٣).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٢١/ ٤٠ ـ ٤٢)، وقد حاولت ضبط المنقول منه بقدر استطاعتي.

الأنعام تغيير لخلقه أيضاً، ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر، فأولئك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلقة، فذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

نزِّلْ هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض.

وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً؛ أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم.

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم، وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة ذكرها في «مسنده» على أثر حديث رواه.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكماً قسطاً وقضاء عدلاً.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل»، وكذلك سلط الله ﷻ الريح على قوم[٢] سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة.

وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سبباً لمنع الغيث من

---

(١) شفاء العليل (٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

السماء والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين وتعدي القوي على الضعيف سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها؛ فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزاً؛ لتحق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له.

والعاقل يُسَيِّرُ بصيرته بين أقطار العالم؛ فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، وبالله التوفيق[١].

□ □ □

قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد؛ فيحبس الله بذلك القطر؛ فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ثم قال: أما والله ما هو بَحركم هذا؛ ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر.

وقال عكرمة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء. وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف.

وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها، فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول، فالمراد بالفساد: النقص والشر، والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة. كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الفساد المراد به:

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).

الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، فهذا حالنا وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فهذا حق أحقه على نفسه فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على(٢).

* * *

(١) الجواب الكافي (٨٩، ٩٠).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٢).

سُورَةُ لُقْمَان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦، ٧].

قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير، ومقسم عنه، وقاله عبد الله بن مسعود في رواية أبي الصهباء عنه، وهو قول مجاهد وعكرمة.

وروى ثور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، قال: هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلاً ونهاراً.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: «هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل، وهذا قول مكحول، وهذا اختيار أبي إسحاق أيضاً.

وقال: أكثر ما جاء في التفسير: أن لهو الحديث ههنا هو الغناء؛ لأنه يلهي عن ذكر الله تعالى. قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في كل من اختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال والاختيار وهو كثير في القرآن. قال: ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية: لعله أن لا يكون أنفق مالاً، قال: وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق.

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء. ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة بإعلان الغناء.

قال: وأما غناء القينات: فذلك أشد ما في الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه، وهو ما روي: أن النبي ﷺ قال: «ومن استمع إلى قنية صب في أذنيه الآنك

يوم القيامة»[١]. الآنك: الرصاص المذاب.

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

ففي مسند الإمام أحمد ومسند عبد الله بن الزبير الحميدي وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة والسياق للترمذي: أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهم حرام»، في مثل هذا نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد بن زحر عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زَحْر ثقة، والقاسم ثقة وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله تعالى، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه: الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود، قال أبو الصهباء: سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾؟ فقال: والله الذي لا إله غيره، هو الغناء ـ يرددها ثلاث مرات.

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً أنه: الغناء. قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتاب المستدرك: ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند[٢].

وقال في موضع آخر من كتابه: هو عندنا في حكم المرفوع. وهذا وإن كان فيه نظر فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله ﷻ من كتابه. فعليهم نُزل وهم أول من خوطب به من الأمة. وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علماً وعملاً، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل.

ولا تعارض بين تفسير ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث[٣] يحدث به أهل مكة يشغلهم به عن القرآن. فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: لهو الحديث: الباطل والغناء.

فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر ومنهم من جمعهما.

---

(١) قال الألباني: «موضوع» رواه ابن عساكر. ضعيف الجامع رقم (٥٤١٨).

(٢) المستدرك للحاكم (٢/٢٥٨) في التفسير، سورة الفاتحة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/٣١٩، ٣٢٠).

والغناء أشد لهواً وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم؛ فإنه رقية الزنا ومنبت النفاق، وشرك الشيطان، وخمرة العقل، وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل؛ لشدة ميل النفوس إليه، ورغبتها فيه.

إذا عرف هذا. فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه. فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبراً كأن لم يسمعه كأن في أذنيه وقراً، وهو: الثِّقل والصمم. وإذا علم منه شيئاً استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم.

يوضحه: أنك لا تجد أحداً غنى بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى، علماً وعملاً، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ، ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيب وافر من هذا الذم إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها؛ فأما من مات قلبه وعظمت فتنته، فقد سد على نفسه طريق النصيحة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٤١][1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ **[لقمان: ٨]**.

هذا أيضاً اسم جامع لجميع الجنات؛ لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن[2].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٣٨ ـ ٢٤١).
(٢) حادي الأرواح (٨٩).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك، فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك؛ كانت إلٰهيتها باطلاً ومحالاً[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥].

وكل من الصحابة منيب إلى الله؛ فيجب اتباع سبيله وأقواله، واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم، وقد قال: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣][2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر. والشيخ[3] دائماً يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور، وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ﴾.

فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي[4].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٥). (٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٦٣).

(٣) يعني: الشيخ الجليل قدوة العارفين شيخ الإسلام وسلطان المشايخ، وسيد الطريقة في وقته، محيي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلي، صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف، الحنبلي رحمه الله تعالى. وكلامه هذا في كتابه «فتوح المعارف». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٣٩)، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).

(٤) عدة الصابرين (٢٩).

فأمر لقمان ابنه أن يغض من صوته وأن يقصد في مشيه، كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، وأصحاب السماع لا هذا ولا هذا ولا هذا؛ بل إطلاق البصر ورفع الأصوات والرقص[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مداداً، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً، وجميع أشجار الأرض أقلاماً. وهو ما قام منها على ساق من النبات والأشجار المثمرة وغير المثمرة وتستمد بذلك المداد؛ لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

فأين هذا مِنْ وَصْفِ مَنْ يصفُه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد لا ينقضي، ولا يتجزأ، ولا له بعض ولا كل، ولا هو سور وآيات، ولا حروف وكلمات؟[٢].

* * *

(١) الكلام في مسألة السماع (٣٥٤). (٢) المنار المنيف (٣٧، ٣٨).

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢].

فجعل سبحانه من أعظم أدلة صدقه نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب التي هي أصل مطالب بني آدم وأجل معارفهم وعلومهم على الإطلاق، فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل؛ لكان فيه أعظم الريب ولا اطمأنت به القلوب ولا ثلجت به الصدور[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٤ ـ ٦].

وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين. فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين: بقدم العالم، وأنه لم يزل، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازماً لذاته أزلاً وأبداً غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستوياً على عرشه، ولا

(١) الصواعق المرسلة (١١٧).

ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه، ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عياناً بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: «اللهم اشهد»(١).

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في: أن الله ﷻ فوق كل شيء وأنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرَّة الأعين في الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾».

وفي لفظ آخر فيهما: «يقول الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً بَلْه ما أطلعتكم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ الآية(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٦٧٠) في الحج، باب: الخطبة أيام منى. ومسلم (٤/ ٢٤٩) في القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء...

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤).

وفي بعض طرق البخاري: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت مع النبي ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ[1] مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس، على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن؛ لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر: أن له فيه عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا؛ فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمّله[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات[4].

* * *

(١) رواه مسلم (٢٨٢٥).
(٢) حادي الأرواح (٢٢٣).
(٣) الروح (٧٥، ٧٦).
(٤) زاد المعاد (٣/ ١٠).

سُورَةُ الأَحْزَابِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ ـ ٣].

أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه، محبة له وخشية ورجاء فإن التقوى لا تتم إلا بذلك، واتباع ما أوحي إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصة، وبالتوكل عليه. وهو يتضمن اعتماد القلب عليه وحده وثقته به وسكونه إليه دون غيره، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

فأنت تجد تحت هذه اللفظ: أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد. فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه؛ وإلا انصرف ذلك إلى غيره. ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب.

وقد اختلف الناس في هذه المسألة، فقالت طائفة: ليس للقلب إلا وجهة واحدة إذا توجه إليها لم يمكنه التوجه إلى غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً فلا يكون فيه حبان. وكان الشيخ إبراهيم الرَّقي رَحِمَهُ اللهُ يميل إلى هذا.

وقال طائفة: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجه إلى أحدهما ولا يشغله عن توجهه إلى الآخر، قالوا: والقلب حمال، فما حملته تحمل، فإذا حملته الأثقال حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده، ولا يشغله واحد من ذلك عن الآخر.

فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجه في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال من يصلي خلفه، «وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يشق على أمه»(١). أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأمرين؟ ولا يظن أن هذا من خصائص النبوة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آن واحد، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه.

قالوا: وكمال العبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته، فلا يشغله أحد الأمرين عن الآخر.

قالوا: وهذا موجود في الشاهد، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده؛ فإن قلبه يتسع لمراعاة عمله وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له، بل هذا شأن كل محب يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته.

قالوا: وهذا رسول الله ﷺ: «بكى يوم موت ابنه إبراهيم»(٢)، فكان بكاؤه رحمة له، فاتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله، ولم يشغله أحدهما عن الآخر، ولكن الفُضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضحك، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله تعالى قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه.

ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله ﷺ حينئذ تفاوتاً لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ.

ونظير هذا اتساع قلب رسول الله ﷺ لغناء الجويريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها(٣)؛ فلم يشغله ذلك عن ربه، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوعت ببذل ما عليها من الحق، ولم يتسع قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره، وكم بين من ترد عليه الواردات، فكل منها يثير همته ويحرك قلبه إلى الله، كما قال القائل:

يذكرنيك الخير والشر والذي ... أخاف وأرجو والذي أتوقع

ومن يرد عليه من الواردات فيشغله عن الله، ويقطعه عن سير قلبه إليه. فالقلب

---

(١) رواه البخاري (٧٠٨)، ومسلم (٤٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٣) رواه البخاري (٩٥٢)، ومسلم (٨٩٢).

الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالقفار والجبال والخلوات، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله، فإن لم يسر معه سار هو وتركه، ولا ينكر هذا، فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا في المغني إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ أكبادهم وكثافة طبعهم. وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى له قوته وحجته.

والتحقيق: أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالَم ربان متكافئان مستقلان، فليس الذي يحب لذاته إلا الإلٰه الحق الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير بذاته إليه وأما ما يحب لأجله سبحانه فيتعدد. ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه ولا يشركه معه في الحب. فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته وأحبهن إليه عائشة رضي الله عنها، وكان يحب أباها ويحب عمر رضي الله عنه. وكان يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم، ومع هذا فحبه كله لله، وقوى حبه جميعها منصرفة إليه سبحانه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم، وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

---

(١) روضة المحبين (٢٧٢ ـ ٢٧٥).

فيا عجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد.

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد بالصحة قَبِلَه، وإن شهد له بالبطلان رده. وإن لم تتبين شهادته له بصحة ولا ببطلان، جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به؟.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الخلق إليه من كل جهة[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سئل الصادقون وحُوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟ قال مقاتل: يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين ـ يعني: النبيين ـ عن تبليغ الرسالة. وقال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعني: هل بلغوا عنهم، كما يسأل الرسل هل بلغوا عن الله تعالى.

والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود، وعن العبادة[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

الزيغ: يوصف به القلب والبصر.

---

(١) الرسالة التبوكية (٣٨، ٣٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٨٣، ٨٤).

قال قتادة ومقاتل: شخصتْ فرقاً، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرف، ومنه شخص بصر الميت.

ولما مالت الأبصار عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب، اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه وشخصت بالنظر إلى الأحزاب.

وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم.

وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعباً، شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه؛ فإنه فر من الموت لما كان يسوءه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم يعلمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه، وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن؛ فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهْنَؤه وعلى مخلفه وزره.

وكذلك من رفَّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله؛ أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى. واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فسَّاق ذريته، وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

---

(١) شفاء العليل (١٠٠).

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله أو يبذل ماله في مرضاته أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لا بد أن يذل لمن لا يسوى ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته؛ عقوبة له كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته، أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠ ـ ٣١].

وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها، فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح.

وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٣].

وأمرهن أن لا يلن في كلامهن كما تلين المرأة المعطية الليان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يغشن في القول بحيث يلتحق بالفحش؛ بل يقلن قولاً معروفاً[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٤، ١٩٥).
(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٠٩).
(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٤).
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٤).

ذلك؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً[(١)].

□ □ □

فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان.

وقد حكى الشافعي رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، على أن «من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه.

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياذاً بالله من الخذلان[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ **[الأحزاب: ٣٧]**.

زعم بعض من لم يقدّر رسول الله ﷺ حق قدره، أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش وأنه رآها فقال: «سبحان مقلب القلوب»[(٣)]، وأخذت بقلبه وجعل يقول لزيد بن حارثة: أمسكها.

فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة. وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٦).
(٢) الرسالة التبوكية (٤٤، ٤٥).
(٣) هذا من أبطل الباطل الذي جنته أيدي الضعفاء والمجروحين، فهذا مما رواه الواقدي، محمد بن عمر، وهو وإن كان من أوعية العلم لكنه مع هذا قد انعقد الإجماع على عدم الاحتجاج به، كما في سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٦٩). وروى عنه ذلك ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٠١، ١٠٢). والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥) وغيرهما. والأنبياء عليهم من الله تعالى أزكى صلاة وأطيب سلام معصومون من الذنوب، فينبغي عدم الكلام عليهم إلا بما ورد عنهم عن الله تعالى أو صح من حديث دون زيادة أو نقصان، وهذا مما لا ينبغي الخوض فيه لمنزلة هؤلاء الكرام سادة العالمين. انظر: ما قاله ابن العربي رحمه الله في أحكامه (٣/ ١٥٤٢). وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٨٣، ٣٨٤).

وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه.

فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ[1] قد تبناه، وكان يُدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفُّع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس: إنه تزوج امرأة ابنه لأن زيداً كان يدعى ابنه، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له.

ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج مما أحله له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زوَّجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها؛ لتقتدي أمته به في ذلك ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال في هذه السورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٤].

فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب؛ بل صح أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[2]، وفي لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمٰن»[3][4].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

والأصيل: قال الجوهري: هو الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أصل وآصال وأصائل[5].

---

(١) انظر: البخاري (٨/٣٨٣) في التفسير، باب: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ ...﴾ الآية.
(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢). (٣) زاد المعاد (٤/٢٦٦، ٢٦٧).
(٤) رواه مسلم، (٢٣٨٣). (٥) الوابل الصيب (١٢٧).

إن الذكر يوجب صلاة الله ﷻ وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣]. فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم، وأي شر لم يندفع عنهم؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله! وبالله التوفيق[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

صلاة الله سبحانه على عباده نوعان: عامة، وخاصة.

أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾. ومنه دعاء النبي ﷺ بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله[٢]: «اللهم صل على آل أبي أوفى». وفي حديث آخر[٣]: «أن امرأة قالت له: صلّ علي وعلى زوجي، قال: صلى الله عليك وعلى زوجك».

النوع الثاني صلاته **الخاصة**: على أنبيائه ورسله، خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال:

أحدها: إنها رحمة.

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٢) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٣) حديث صحيح: رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٣٩٨)، و(٣/ ٣٠٣)، وأبو داود (٤/ ٣٩٣) في الصلاة، الصلاة على غير النبي ﷺ، والدارمي (١/ ٢٨) في المقدمة، باب: ما أكرم به النبي ﷺ في بركة طعامه، وابن حبان برقم (١٩٥٠) الموارد، وأبو يعلى (٤/ ٥٩)، وابن حبان (٥/ ٤٨٤) كلهم من طريق: «نبيح العنزي» وهو ثقة، وثقه الترمذي (٤/ ١٨٧) حديث رقم (١٧١٧)، والعجلي برقم (١٦٨٢)، ص(٤٤٨)، وابن حبان في الثقات (٥/ ٤٨٤)، ونقل ابن حجر تصحيح حديثه عن الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم. تهذيب التهذيب (١٠/ ٤١٧).

قال إسماعيل[1]: حدثنا نصر بن علي قال: حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك قال: «صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء».

وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رحمة[2]، واستدعاء الرحمة من الله.

وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: إن صلاة الله مغفرته.

قال إسماعيل[3]: حدثنا محمد بن أبي بكر: حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾، قال: «صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء».

وهذا القول هو من جنس الذي قبله. وهما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته. فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما. هذا أصل العطف.

وأما قولهم:

وأَلْـفَـى قَـوْلَـهـا كَـذِبـاً ومَـيْـنـاً

فهو شاذ نادر، لا يحمل عليه أفصح الكلام، مع أن المين أخص من الكذب.

الوجه الثاني: أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمرتها.

فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمراتها ومقصودها. وهذا كثيراً ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن.

والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلوازمها وجزء معناها، كتفسير الريب بالشك، والشك

---

(١) رواه القاضي إسماعيل «في فضل الصلاة على النبي ﷺ»، ص(٨٠) برقم (٩٦)، وقال محققه الشيخ الألباني: «إسناده موقوف ضعيف جداً، جويبر هو ابن سعيد الأزدي»، قال الحافظ في التقريب: «ضعيف جداً» (١/ ١٣٦).

(٢) هكذا في الطبعة المنيرية، والمحمدية، وفي طبعة «دار التراث: رِقّة»، ص(١٢٢).

(٣) إسناده ضعيف مثل رقم (٢) السابق.

جزء مُسمَّى الريب، وتفسير المغفرة بالستر، وهو جزء مُسمَّى المغفرة. وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة. ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين، واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال، سنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى. فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى: الرحمة، لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها، إذا قال: اللهم ارحم محمداً، وآل محمد. وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره، ورقّ عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه: صلى عليه. ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه، فيجد في قلبه له رحمة، ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لا بد فيها من كلام. فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه، وتنويه به وإشادة لمحاسنه وما فيه، وذكره. ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال[1]: «صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة».

وقال إسماعيل في كتابه[2]: حدثنا نصر بن علي، قال: حدثنا خالد بن يزيد، عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال: صلاة الله ﷻ ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء».

الوجه الثامن: أن الله سبحانه فرَّق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعها في فعل واحد. فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾. وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه سبحانه، وثناء ملائكته عليه.

---

(١) ذكره البخاري معلقاً عنه (٨/ ٣٩٢)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم...، وانظر: الدر المنثور (٦/ ٦٤٦)، وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ، وقال المحقق فضيلة الشيخ الألباني: «إسناده موقوف حسن، رجاله ثقات غير أبي جعفر وهو الرازي اختلف في اسمه، وفيه ضعف لسوء حفظه، فمثله إنما يتقى من حديثه ما كان مرفوعاً، وأما كان منه موقوفاً كهذا فلا بأس به إن شاء الله تعالى...»، ص(٨٠) رقم (٩٥)، وراجع: رقم (١) السابق.

ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك، ويجوز أن يستعمل في معنييه معاً، لأن في ذلك محاذير متعددة.

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد، كما نص على ذلك أئمة اللغة: منهم المبرد وغيره. وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقياً، بسبب تعدد الواضعين ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه، لا بطريق الحقيقة، ولا بطريق المجاز، وما حكي عن الشافعي ﷺ من تجويزه ذلك فليس بصحيح عنه. وإنما أخذ من قوله: إذا أوصى لمواليه، وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم. فظن من ظن أن لفظ المولى مشترك بينهما، وأنه عند التجرد يحمل عليهما. وهذا ليس بصحيح، فإن لفظ المولى من الألفاظ المتواطئة، فالشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ. وهو عنده عام متواطئ لا مشترك.

وأما ما حكي عن الشافعي ﷺ أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]. قد قيل له: وقد يراد بالملامسة المجامعة. قال: هي محمولة على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازاً. فهذا لا يصح عن الشافعي، ولا هو من جنس المألوف من كلامه، وإنما هذا من كلام بعض الفقهاء المتأخرين. وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً في بضعة عشر دليلاً في مسألة «القرء» من كتاب «التعليق على الأحكام»[(١)].

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن الصلاة في الآية مشتركاً محمولاً على معنييه، بل يكون مستعملاً في معنى واحد. وهذا هو الأصل في الألفاظ[(٢)].

* * *

(١) قال فضيلة الشيخ «بكر أبو زيد» حفظه الله تعالى: «لم أر من ذكره من مترجمين سوى ما جاء في مقدمة شرح النونية لابن عيسى. .»، التقريب لفقه ابن قيم الجوزية (١/١٩٣).

(٢) جلاء الأفهام (٨١ ـ ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

يحتمل أن تكون الهبة شرطاً، ويكون فعل الإرادة جواباً له، ويكون التقدير: إن وهبت نفسها للنبي، فإن أراد النبي أن يستنكحها فخالصة له، ويحتمل أن تكون الإرادة شرطاً والهبة جواباً له، والتقدير: إن أراد النبي أن يستنكحها فإن وهبت نفسها، فهي خالصة له يحتمل الأمرين. فهذا ما ظهر لي من التفصيل في هذه المسألة وتحقيقها، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦](٢).

إن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقبَ إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه، والمعنى: أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله، فصلوا أنتم عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً، لما نالكم ببركة رسالته ويُمنِ سِفارته من خير شرف الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم: أنه لو عبر عن هذا المعنى بـ«الرحمة» لم يحسن موقعه، ولم يحسن النظم، فينتقض اللفظ والمعنى، فإن التقدير يصير إلى: أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه، فادعوا أنتم له وسلموا.

وهذا ليس مراد الآية قطعاً، بل الصلاة المأمور بها فيها، هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه، وإظهار لفضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، فهي تتضمن الخبر والطلب.

وسُميَ هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه، لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه، والإشارة بذكر شرفه وفضله، والإرادة والمحبة كذلك من الله تعالى، فقد تضمنت الخبر والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سُميَ منا صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلي عليه، فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٠).

(٢) سبق شرح معنى: «صلاة الله على النبي ﷺ» عند شرح الآية (٤٣) من هذه السورة.

وإذا ثبت هذا، فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي الرحمة، لم يصحَّ أن يقال لطالبها من الله: مصلياً، وإنما يقال له: مسترحماً له[(١)].

والفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ كثيرة:

منها: امتثال أمر الله تعالى.

ومنها: موافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف كما تقدم.

ومنها: حصولُ عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

ومنها: أنه يرفع عشر درجات، ويكتب له عشر حسنات، ويمحىٰ عنه عشر سيئات.

ومنها: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامَه.

ومنها: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له، أو أفردها.

ومنها: أنها سبب لغفران الذنوب.

ومنها: أنها سبب لكفاية الله العبدَ ما أهمَّه.

ومنها: أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

ومنها: أنها سبب لرد النبي ﷺ الصلاة والسلام على المصلي والمسلِّم عليه.

ومنها: أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب، واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه له وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه.

ومنها: أنها متضمنة لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله وذكر رسوله، وسؤاله: أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

---

(١) جلاء الأفهام (١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) جلاء الأفهام (٣٣٥ ـ ٣٤٣) باختصار.

وليس أذاه سبحانه من جنس الأذى الحاصل للمخلوقين، كما أن سخطه وغضبه وكراهته ليست من جنس ما للمخلوقين[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق[٢].

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٥٠، ١٤٥١).

(٢) الرسالة التبوكية (٥٥، ٥٦).

سُورَةُ سَبَأ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١، ٢].

وأما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ، ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبداً، فإنه حمد يستحقه لذاته وكمال أوصافه وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبداً.

وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه وكمال من حمده وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً، والحمد بلا ملك يستلزم عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم.

فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفاً بحمدٍ قبله وحمدٍ بعده، ثم عقب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تعلق بمراد إلا لحكمة بالغة وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق

ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة.

فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها.

فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه، ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما: الرحمة والمغفرة، فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته. فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾. فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمه ومغفرته، وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

ومن الثاني: والله عليم حليم فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك. فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم.

وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير. ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وهذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضاً للعقل ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك. فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده. فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه.

فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها؛ ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له. ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن[٢].

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؛ وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فهو الذي يأذن للشافع فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٥٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

إن الله سبحانه إذا تكلم بالوحي صعقت الملائكة، وأخذهم شبه الغشي من تكلم الرب جل جلاله. فإذا كشف الفزع عن قلوبهم وخلي عنها، وأفاقوا من ذلك الغشي، قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيستخبر كل أهل سماء من يليهم. حتى ينتهي الأمر إلى أهل السماء السابعة، فيسألون جبريل: يا جبريل، ماذا قال ربنا؟ فيقول: قال الحق. وهو العلي الكبير[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: ٢٤].

هل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]، وبين قوله في سورة سبأ؟

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقاً.

فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم. إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: لا بد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية، إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لا سيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر،

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦١).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣١٤).

فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه. وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره، فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، هو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره.

وأما الآية التي في سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾، ولم يقل: سيقولون: الله. فأمر نبيه ﷺ أن يجيب بأن ذلك: هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

فمن آمن، ليس داخلاً في الأموال والأولاد، ولكنه من الكلام المحمول على المعنى، لأنه تعالى أخبر أن أموال العباد وأولادهم لا تقربهم إليه، وذلك يتضمن أن أربابها ليسوا هم من المقربين إليه، فاستثنى منهم من آمن وعمل صالحاً، أي: لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحاً، سواء كان له مال وولد أو لم يكن له، والانقطاع فيه أظهر، فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير (لكن) هاهنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء.

---

(١) بدائع الفوائد (١/١١٧، ١١٨).

وإذا تأملت الكلام العربي رأيت كثيراً منه وارداً على المعنى لوضوحه، فلو ورد على قياس اللفظ مع وضوح المعنى لكان عياً.

وبهذه القاعدة تزول عنك إشكالات كثيرة، ولا تحتاج إلى تكلف التقديرات التي إنما عدل عنها المتكلم لما في ذكرها من التكلف، فقدر المتكلفون لنطقه ما فر منه وألزموه بما رغب عنه، وهذا كثير في تقديرات النحاة التي لا تخطر ببال المتكلم أصلاً، ولا تقع في تراكيب الفصحاء ولو سمعوها لاستهجنوها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق والصواب حالتان:

إحداهما: أن يكون مناظراً مع الله.

والثانية: أن يكون مناظراً لغيره.

أمرهم بخصلة واحدة وهي: أن يقوموا لله اثنين اثنين فيتناظران، ويتساءلان بينهما، وواحداً واحداً، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه، ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال، فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف المبين والنصح التام(٢).

فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة، وفرادى إلى النظر والتفكر، وكل منهما ينقسم إلى محمود ومذموم، فالنظر المحمود؛ النظر في الطريق الصحيح ليتوصل به إلى معرفة الحق، والنظر المذموم نوعان:

أحدهما: النظر في الطريق الباطل وإن قصد به التوصل إلى الحق، فإن الطريق الباطل لا يفضي إلى الحق.

والثاني: النظر والتفكر الذي يقصد به رد قول خصمه مطلقاً حقاً كان أو باطلاً، فهو ينظر نظراً يرد به قول من يبغضه ويعاديه بأي وجه كان.

فأما المناظرة فتقسم إلى: محمودة ومذمومة، والمحمودة نوعان، والمذمومة نوعان، وبيان ذلك: أن المناظر إما أن يكون عالماً بالحق، وإما أن يكون طالباً له، وإما أن لا يكون عالماً به ولا طالباً له، وهذا الثالث هو المذموم، وأما الأولان

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧١، ٧٢).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٢).

فمن كان عالماً بالحق فمناظرته التي تحمد أن يبين لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشداً طالباً للحق، أو تقطعه أو تكسره إن كان معانداً غير طالب للحق، ولا متبع له أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق إن كان يظن أنه على الحق وقصده الحق[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

فهذا نص صريح في أن هدي الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحي، فيا عجباً! كيف يحصل الهدى بغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان؟ وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى، والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين[2].

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٥، ١٢٧٦). (٢) الرسالة التبوكية (٥٤).

سُورَةُ فَاطِرٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

الجمال الظاهر زينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة.

والقلوب كالمطبوعة على محبته، كما هي مفطورة على استحسانه، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قالوا: يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون نعله حسنة وثوبه حسناً، فذلك من الكبر؟ قال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَر الحق وغمط الناس»[١]؟

فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس: النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم، ولا بأس بهذا إذا كان لله، وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراء واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده، فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أي: فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) روضة المحبين (٢٣٧).

(٣) زاد المعاد (٣/٦).

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميتُ القلوبَ وقد يورث الذل إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب وخير لنفسك عصيانُها
وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها(١)

فمن كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

بيّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه. وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلّة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له.

والمقصود: أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقة أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً(٢).

---

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٨١). (٢) طريق الهجرتين (٨).

وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه أحد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

فجعل من اهتدى بهداه، واستنار بنوره بصيراً حياً في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيراً بنوره، والآخر أعمى ميتاً في حر الكفر والشرك والضلال منغمساً في الظلمات(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية، حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع، فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه. وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس، فإنها كانت عن علم لا عن جهل وبقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

---

(١) الروح (١٥٠). (٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٤).

[البقرة: ١٤٦]، يعني: القرآن أو محمداً ﷺ، وقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، والجحود إنكار الحق بعد معرفته، وهذا كثير في القرآن.

قيل: حجج الله لا تتناقض بل كلها حق يصدق بعضها بعضاً، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء، وقد أقرَّ به وبرسالته وبأنه حرم ذلك وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟

وقد سمى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم. فقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة، وعلموا أنه صادق، وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالجاهلون هنا الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل، بل يثبت له العلم وينفى عنه في موضع واحد، كما قال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت لهم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار وهذا نكتة المسألة وسرّ الجواب، فما دخل النار إلا عالم ولا دخلها إلا جاهل.

وهذا العلم لا يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد، يوضحه أن الهوى والغفلة والإعراض تصد عن كماله واستحضاره ومعرفة موجبه على التفصيل، وتقيم لصاحبه شبهاً وتأويلات تعارضه فلا يزال المقتضى يضعف، والعارض يعمل عمله حتى كأنه لم يكن، ويصير صاحبه بمنزلة الجاهل من كل وجه.

فلو علم إبليس أن تركه للسجود لآدم يبلغ به ما بلغ، وأنه يوجب له أعظم العقوبة وتيقن ذلك لم يتركه، ولكن حال الله بينه وبين هذا العلم ليقضي أمره، وينفذ قضاؤه وقدره، ولو ظن آدم وحواء أنهما إذا أكلا من الشجرة خرجا من الجنة وجرى عليهما ما جرى، ما قرباها، ولو علم أعداء الرسل تفاصيل ما يجري عليهم وما يصيبهم يوم القيامة وجزموا بذلك لما عادوهم.

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]. وقال: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾

[سبأ: ٥٤]، وقال عن المنافقين وقد شاهدوا آيات الرسول وبراهين صدقه عياناً: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤] وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. وهو مرض الشك ولو كان هذا لعدم العلم الذي تقوم به الحجة عليهم، لما كانوا في الدرك الأسفل من النار، بل هذا بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الذي لم ينفعهم، فالعلم يضعف قطعاً بالغفلة والإعراض واتباع الهوى وإيثار الشهوات.

وهذه الأمور توجب شبهات وتأويلات تضاده.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أسرار القدر والشرع والعدل. فالعلم يراد به العلم التام المستلزم لأثره، ويراد به المقتضى، وإن لم يتم بوجود شروطه وانتفاء موانعه، فالثاني يجامع الجهل دون الأول، فتبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم.

وإن كان كذلك فعدم العلم ليس أمراً وجودياً، بل هو لعدم السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والعدم ليس شيئاً حتى يستدعي فاعلاً مؤثراً فيه، بل يكفي فيه عدم مشيئة ضده، وعدم السبب الموجب لضده والعدم المحض لا يضاف إلى الله، فإنه شر والشر ليس إليه، فإذا انتفى هذا الجازم عن العبد، ونفسه بطبعها متحركة مريدة وذلك من لوازم شأنها، تحركت بمقتضى الطبع والشهوة وغلب ذلك فيها على داعي العلم والمعرفة فوقعت في أسباب الشر ولا بد[1].

□ □ □

ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته، قال النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[2][3].

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

(١) شفاء العليل (١٧٢، ١٧٣). (٢) مدارج السالكين (١/١٣٦، ١٣٧).
(٣) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٢ ـ ٣٣].

[السائرون] إلى الله، وإلى دار السلام ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات: همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل. فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسراناً بيناً أن يمر عليه وقت في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه، فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة.

فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب.

فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة

مُيزَ ربحه من خسرانه، وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله.

وأما **المقتصدون**، فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم. فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام، والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلاً بها قائماً بأعيانها مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول.

فهو كذلك سائر يومه. فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما **السابقون بالخيرات** فهم نوعان: أبرار ومقربون.

وهؤلاء الأصناف الثلاثة: هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون، وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمناً عند الإطلاق، وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

□ □ □

وقد اختلف في قوله: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ الآية. هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم؟ على قولين:

فذهبت طائفة إلى أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة، وهذا يروى عن ابن مسعود وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين.

قال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج[1].

قال أبو داود الطائي: أنبأنا الصلت بن دينار حدثنا عقبة بن صبهان الهنائي،

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٤).

قال: سألت عائشة عن قول الله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾. فقالت لي: يا بني، كل هؤلاء في الجنة، فأما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به. وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك قال: فجعلت نفسها معنا[(١)].

وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله: ما هؤلاء؟ وهو أعلم بهم، فتقول الملائكة: هم مذنبون، إلا أنهم لم يشركوا. فيقول الله: أدخلوهم في سعة رحمتي[(٢)]. وقال كعب: تحاذت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم.

وقال الحسن: السابقون من رجحت حسناتهم، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم من خفت موازينه.

واحتجت هذه الفرقة بأنه سبحانه سمى الكل «مصطفين»، وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد، ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفين، لأن الاصطفاء هو الاختيار، وهو الافتعال من صفوة الشيء وهو خياره، فعلم أن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق، وبعضهم خيرٌ من بعض: فسابقهم مصطفى عليهم، ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم، ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك.

وقالت طائفة: بل الوعد بالجنات إنما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه، فإن الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق، والظالم لنفسه هنا هو الكافر، والمقتصد المؤمن العاصي، والسابق المؤمن التقي.

وهذا يروى عن عكرمة والحسن وقتادة، وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم: صاحب الكشاف[(٣)]، ومنذر بن سعيد في تفسيره، والرماني، وغيرهم.

قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم، وهي نظير قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الآية [الواقعة: ٧ ـ ١٠].

قالوا: فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة الظالمون لأنفسهم، والسابقون السابقون هم السابقون بالخيرات. قالوا: ولم يصطف الله من خلقه ظالماً

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٠٩). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٦).
(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٣٤). (٣) الكشاف (٣/ ٣٧٥).

لنفسه، بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين، ويتناولهم فعل الاصطفاء؟

قلت: روي من حديث معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال: «هم أمة محمد، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»(١).

وروي من حديث عثمان بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، حدثنا عمران بن محمد بن أبي ليلى، حدثنا أبي عن الحكم عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن البراء بن عازب ـ أو عن رجل عن البراء بن عازب ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله»، قال: «كلهم ناج وهي هذه الأمة»(٢).

ورواه الفريابي: حدثنا سفيان عن أبي ليلى عن الحكم عن رجل حدثه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية قال: «كل ناج»(٣).

وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا أبو فضالة عن الأزهري عبد الله الخزاز، حدثنا من سمع عثمان بن عفان يقول: ألا إن سابقنا أهل جهادنا، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا(٤).

وقد تقدم حديث عائشة وأبي الدرداء وحذيفة، قالوا: فهذه الآثار يشد بعضها بعضاً، وأنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها، وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلا تعدل عنها(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

---

(١) ورواه الطبري (٢٢/ ١٣٣). وهذا منقطع؛ لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما ولم يره.

(٢) ورواه الفريابي وابن مردويه كما في الدر المنثور (٧/ ٢٥)، ومحمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى سيء الحفظ.

(٣) انظر: الحديث السابق.

(٤) ضعيف؛ للإبهام وحال محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى كما تقدم.

(٥) طريق الهجرتين (١٧٤ ـ ١٨٨).

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه، وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته.

فإن العبد على جناح سفر، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل.

فالمسافر إما صاعد وإما نازل، وفي الحديث المرفوع: «خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله»(١).

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، وجعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله من أفراح آخرته.

فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده، كان رحمة به وخيراً له، وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه، وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالى. فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك: هو الصبر وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله(٣).

* * *

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه، كما في كشف الخفا.
(٢) الفوائد (١٨٩).
(٣) عدة الصابرين (٢٧٧، ٢٧٨).

سُورَةُ يس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يسٓ: ١ ـ ٤].

الصحيح أن يسٓ بمنزلة حم وألم، ليست اسماً من أسماء النبي ﷺ.

وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وجوز فيه ثلاثة؛ أن يكون خبراً بعد خبر فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم.

وأن يكون متعلقاً بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله، أي: أرسلتك على صراط. وهذا يحتاج إلى بيان تقدير المجعولين على صراط مستقيم وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يسٓ: ٧ ـ ٩].

قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله.

وقال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلب كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان، فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟ قيل: لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٦).

محله، والمراد به القلب كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك، وهذا في عنقك، ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق، ومن هذا قال الفراء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ حبسناهم عن الإنفاق. قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي: لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق.

قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا وقلدتك كذا. ومنه: قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة، ومكان الطوق.

قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلاناً حكم كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه، وقد سمى الله التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فشبهها بالأغلال؛ لشدتها وصعوبتها. قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم. وقال ابن قتيبة: هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ وجعلها أغلالاً؛ لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد.

وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾. قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها، قالوا: لأن الغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد؛ ولذلك سمي جامعة، وعلى هذا فالمعنى: فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم. هذا قول الفراء والزجاج.

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى الأغلال وهذا هو الظاهر.

وقوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، أي: واصلة وملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق، حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، قال الفراء والزجاج: المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الإقماح في اللغة: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح.

وقال الأصمعي: بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم، ورؤوسهم صعداً كالإبل الرافعة رؤوسها. انتهى.

فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟

قيل: أحسن وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة، ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، قال ابن عباس: منعهم من الهدى لما سبق في علمه. والسد الذي جعل من بين أيديهم، ومن خلفهم، هو الذي سد عليهم طريق الهدى.

فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم، وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة، وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان، كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يسٓ: ١٢].

فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعدما أماتهم للبعث ويجازيهم بأعمالهم ونبه بكتابته لها على ذلك.

قال مقاتل: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ ما سنُّوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم.

وقال ابن عباس في رواية عطاء: آثارهم ما أثروا من خير أو شر، كقوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

فإن قلت: قد استفيد هذا من قوله: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾، فما أفاد قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ على قوله؟

---

(١) شفاء العليل (٩٤، ٩٥).

قلت: أفاد فائدة جليلة وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولَّد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سلمة أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»، وقد روى مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس[(١)].

وفي هذا القول نظر فإن سورة يس مكية[(٢)] وقصة بني سلمة بالمدينة، إلا أن يقال: هذه الآية وحدها مدنية، وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها، وذكروا بها عندها إما من النبي ﷺ وإما من جبريل، فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك: نزلت مرتين.

والمقصود: أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم. قال عمر بن الخطاب: لو كان الله سبحانه تاركاً لابن آدم شيئاً لترك ما عفت عليه الرياح من أثر. وقال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة.

---

(١) الذي في صحيح البخاري (٢/ ١٦٣، ١٦٤) في الأذان، باب: احتساب الآثار و(٤/ ١١٨) في فضائل المدينة، باب: كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، عن أنس ﷺ: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم؟ فأقاموا وذلك حين أرادوا التحول قرب المسجد، وليس فيه ذكر للآية، وكذا عند مسلم (٢/ ٣١٢) في المساجد، باب: فضل الصلاة المكتوبة في جماعة، من حديث جابر ﷺ، دون ذكر للآية.
ولكن عند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري (٥/ ٣٣٩) في التفسير، باب: من سورة يس... وذكر الآية.
وقال: حسن غريب، وصححه الألباني. صحيح الترغيب (١/ ١٢٣)، وصحيح الترمذي (٣/ ٩٧).

(٢) قال القرطبي: «وهي مكية بإجماع، إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ مدنية» (٦/ ٥٤٤٥).

والمقصود: أن قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يسٓ: ٢٠ ـ ٢٤].

فنبه على موجب الاتباع وهو كون المتبوع رسولاً لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى وأنه على هداية. ونبه على انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر فلا يريد منكم دنيا ولا رياسة، فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه منتف وهو طلب العلو في الأرض والفساد وطلب الأجر.

ثم قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾. أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه ونعمه كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقه، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم ومحبة المحسن ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع.

ثم أقبل عليهم مخوفاً لهم تخويف الناصح فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دونه أنها باطلة وأن عبادتها باطلة فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وإنما إذا أرادني الرحمٰن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذونني بها من ذلك الضر، ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر، فبأي وجه

(١) شفاء العليل (٣٩، ٤٠).

يستحق العبادة و﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾. إن عبدت من دون الله مما هذا شأنه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يسٓ: ٥٤].

فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه في سيئاته أو ينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره، لا على وجه الجزاء فإن انتفاعه بما يُهدى إليه ليس جزاء على عمله، وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعي منه، بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يسٓ: ٦٩، ٧٠].

أخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان؛ بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك فأرسل إليه رسوله، فأمره ونهاه؛ فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: إنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: و﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]. وحق عليه العذاب. كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال وكلمة العذاب كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم، لا مع مراد أنفسهم. فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم. فاستحقوا كرامته.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٤ ـ ٤٩٧). (٢) الروح (١٢٩).

وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده وعلم سبحانه منهم: أنهم لا يؤثرون مراده البتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم فأمرهم ونهاهم، فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله؛ فعاقبهم بظلمهم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يسٓ: ٧٧ ـ ٨٣].

تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة [على البعث]:

[١] أحدها: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يسٓ: ٧٧]، فذكّره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية.

[٢] ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل. فتحت قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ ألطف جواب، وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئاً: فلان جحدني الإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

[٣] ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فهذا جواب واستدلال قاطع.

[٤] ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه بجميع الخلق، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه، أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً، قال له: كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولى، ولا عن خلق السماوات والأرض.

[٥] ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف

---

(١) مدارج السالكين (١/٢١٨، ٢١٩).

الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، فإن هذا دليل على تمام قدرته، وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء، وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموت بارد يابس، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل، فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد، ليلزم ما قالوا؟! بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

[٦] ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السماوات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما؟ ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس، كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

[٧] ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به، فقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

[٨] ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه، ولا عن شيء أبداً فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يمكنه الاستعصاء عليه ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته.

[٩] ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد، معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده، يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاءه فيه.

[١٠] ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، كما أنهم ابتدأوا منه هو، فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ، وإليه المعاد، وهو الأول والآخر، وأن إلى ربك المنتهى[١].

□ □ □

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٩ ـ ١٩١).

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان، لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾، ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدء كونه وذكر خلقه لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكتة له عن هذا السؤال.

ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ وصرح به جواباً له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى عن النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر والأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ الصَّافَّات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالصَّٰفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ﴾ **[الصافات: ١ ـ ٥]**.

أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تصفُّون كما تصف الملائكة عند ربها؟ تتمون الصفوف الأولى، وتراصون في الصف»[1]. وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]. والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء. والزاجرات: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله ﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ﴾ التي تتلو كلام الله.

وقيل: الصافات: الطير. كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَٰفَّٰتٍ﴾ [النور: ٤١]. والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله، والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى.

وقيل: الصافات للقتال في سبيله، فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه، فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم.

وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله. فالتاليات آياته.

واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة. فإن الإقسام كالدليل، والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة وبواسطتها كان.

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلٰهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال:

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥].

من أعظم الأدلة على أنه إلٰه واحد، ولو كان معه إلٰه آخر لكان الإلٰه مشاركاً له في ربوبيته، كما شاركه في إلٰهيته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلٰهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده.

وخص المشارق هاهنا بالذكر إما لدلالتها على المغارب، إذ الأمران المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظاً من كل شيطان، فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق؛ والله تعالى أعلم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [**الصافات**: ٦، ٧].

فجعل المصابيح زينة لظاهرها ولباطنها بالحراسة من الشياطين، فهي زينة الظاهر والباطن[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [**الصافات**: ٢٢، ٢٣].

قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: (أزواجهم) أشباههم ونظراءهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار[(٣)].

وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امرئ بشيعته؛ اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني.

وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٧، ٤٢٨). (٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٧٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٦).

وفي الآية ثلاثة أقوال أخر:

أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها.

الثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها.

الثالث: أنه تزويج المؤمنين الحور العين وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأول أظهر الأقوال. والله أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [**الصافات: ٣٥ ـ ٣٧**].

أي: مجيئه تصديق لهم من جهتين: من جهة إخبارهم بمجيئه وبعثه، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به ومطابقة ما جاء به لما جاؤوا به، فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يعلم إلا بالوحي ثم جاء نبي آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان، ولا تلقى عنه ما جاء به وأخبر بمثل ما أخبر به سواء، دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث يعلم أنه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمن تلقى عنه، فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواء، فإنه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني.

والمعنى الثاني: أنه لم يأت مكذباً لمن قبله من الأنبياء مزرياً عليهم كما يفعل الملوك المتغلبون على الناس بمن تقدمهم من الملوك، بل جاء مصدقاً لهم شاهداً بنبوتهم ولو كان كاذباً متقوّلاً منشئاً من عنده سياسة لم يصدق من قبله، بل كان يزري بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الأنبياء(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [**الصافات: ٥٠ ـ ٥٧**].

---

(١) طريق الهجرتين (٣٩٦).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

أخبر ﷻ أن أهل الجنة، أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة، إلى أن قال قائل منهم: إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة، ويقول ما حكاه الله عنه يقول: أإنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً؟ ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون في النار لننظر منزلة قريني هذا وما صار إليه؟

وهذا أظهر الأقوال. وفيها قولان آخران:

أحدهما: أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً: هل أنتم مطلعون؟ رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: أنه من قول الله ﷻ لأهل الجنة يقول لهم: هل أنتم مطلعون؟

والصحيح القول الأول. وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه، والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه، قال كعب: بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوى.

وقوله: (فاطلع)، أي: أشرف. قال مقاتل: لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون؟ قالوا له: أنت أعرف به منا، فاطلع أنت فأشرف فرأى قرينه في سواء الجحيم، ولولا أن الله عرفه إياه لما عرفه، لقد تغير وجهه ولونه وغيره العذاب أشد تغيير، فعندها ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾. أي: إن كدت لتهلكني، ولولا أن أنعم الله علي بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ **[الصافات: ٦٢ ـ ٦٤]**.

قال قتادة: لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: يكون في النار شجرة، والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فأخبرهم أن غذاءها من النار، أي: غذيت بالنار.

قال ابن قتيبة: قد تكون شجرة الزقوم نبتاً من النار، ومن جوهر لا تأكله النار،

---

(١) حادي الأرواح (٢١٠).

وكذلك، سلاسل النار وأغلالها وأنكالها، وعقاربها، وحياتها، ولو كانت على ما يعلم الناس، لم تبق على النار.

وإنما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها، وجميع آلاتها على مثل ذلك.

والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [**الصافات**: ٧٨ ـ ٨٠].

فالذي تركه سبحانه على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور.

وقد حكى غير واحد الإجماع على أن الصلاة على جميع النبيين مشروعة.

منهم الشيخ محيي الدين النووي وغيره، وقد حكي عن مالك رواية: أنه لا يصلى على غير نبينا ﷺ، ولكن قال أصحابه: هي مؤولة بمعنى: أنه لم نتعبد بالصلاة على غيره من الأنبياء، كما تعبدنا الله بالصلاة عليه ﷺ(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [**الصافات**: ٨٥ ـ ٨٧].

أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمٰن بذاته فلا يحتاج إلى رحمته إلى من يستعطفه.

وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء؛ فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويعينهم إلى قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٣).
(٢) جلاء الأفهام (٢٧١ ـ ٢٧٦).

ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، والعالم بكل شيء، الرحمٰن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلٰهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح يوضح هذا: أن العابد معظم لمعبوده، متأله له خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [**الصافات**: ٩٦].

ظن كثير من الناس أن (ما) مصدرية واحتجوا بها على خلق الأعمال، وليست مصدرية، وإنما هي موصولة، والمعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه وتنحتونه من الأصنام، فكيف تعبدونه وهو مخلوق لله؟ ولو كانت مصدرية لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم أقرب من أن يكون حجة عليهم، إذ بكون المعنى: أتعبدون ما تنحتون والله خلق عبادتكم لها، فأي معنى في هذا وأي حجة عليهم؟ والمقصود: أنه كثير ما تدخل إحداهما على الأخرى ويحتملها الكلام سواء[٢].

والصواب أنها موصولة وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية، بل هي حجة عليهم، مع كونها موصولة.

وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير وهي: أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والغاية بحال ما يحتج له وعليه، فإذا كان المستدل محتجاً على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك، فإنه يجرد الغاية إلى بيان بطلان تلك الدعوى، وأن ما ادعى له ذلك الوصف هو متصف بضده لا متصف به، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا.

---

(١) الجواب الكافي (٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٤٣، ١٤٤).

وإذا تقرر هذا فالله سبحانه أنكر عليهم عبادتهم الأصنام وبين أنها لا تستحق العبادة، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة، فلو أنه قال: لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون، لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنى: الذي، إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم وأوجد أعمالكم، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق، فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية.

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبين هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة.

وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]. كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له سبحانه وهي غير خالقة؟

فهذا يبين المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، أي: هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك، فكيف تعبدون المخلوق؟.

وتأمل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته، وانفراده بالخلق، كقول صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]، فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها ذكر الموجب لذلك وهو كونه خالقاً لعابده، فاطراً له. وهذا إنعام منه عليه فكيف يترك عبادته؟ ولو كان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كان يقتضي أن يقال: ألا يعبدون الله وهو خالقهم وخالق أعمالهم؟ فتأمله فإنه واضح.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون «ما» موصولة؟ قيل: نعم قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه وآن إبرازه.

ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير أن الله سبحانه أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان سبحانه هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق أن يكون خالقها بجملتها، أعني: مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما

أن مادتها كذلك لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة؛ لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها، كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل «ما» مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]، والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد.

ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه سبحانه هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم.

ونظيره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٨٠]، والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتاً بعملهم.

فإن قلت: المراد من هذا الكلام المادة لا الصورة. قلت: المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم[1].

فالأولى أن تكون «ما» موصولة، أي: والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم، ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير معمولة لهم وإنما يصير معمولاً بعد عملهم[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

إن إبراهيم ﷺ لما بلغ ما بلغ ـ هو وولده ـ في المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به ألقاه الوالد على جبينه في الحال، وأخذ الشفرة وأهوى إلى حلقه، أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفني بأمر الله عنهما، فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم على الله. وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

---

(١) بدائع الفوائد (١/١٤٦ ـ ١٥٣).
(٢) شفاء العليل (٥٥).

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾، أي: استسلما وانقادا لأمر الله فلم يبق هناك منازعة لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف وتسليم محض.

قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، أي: صرعه على جبينه وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم، وتلك هي هيئة ما يراد ذبحه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

فهذه فيها قراءتان:

إحداهما: ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾ بوزن إسماعيل وفيه وجهان:

أحدهما: أنه اسم ثان للنبي إلياس وإلياسين كميكال وميكائيل.

والوجه الثاني: أنه جمع وفيه وجهان:

أحدهما: أنه جمع إلياس وأصله: إلياسيين بيائين كعبرانيين، ثم خففت إحدى اليائين فقيل: إلياسين، والمراد: أتباعه، كما حكى سيبويه: الأشعرون ومثله الأعجمون.

والثانية: أنه جمع إلياس محذوف الياء.

والقراءة الثانية: (سلام على آل ياسين)، وفيه أوجه:

أحدها: أن ياسين اسم لأبيه، فأضيف إليه الآل، كما يقال: آل إبراهيم.

الثاني: أن آل ياسين: هو إلياس نفسه، فيكون آل مضافة إلى يس، والمراد بالآل: يس نفسه كما ذكر الأولون.

والثالث: أنه على حذف ياء النسب، فيقال: يس، وأصله: ياسيني كما تقدم، وآلهم: أتباعهم على دينهم.

والرابع: أن يس هو القرآن، وآله هم أهل القرآن.

والخامس: أنه النبي ﷺ، وآله: أقاربه وأتباعه كما سيأتي.

هذه الأقوال كلها ضعيفة، والذي حمل قائلها عليها استشكالهم إضافة آل إلى يس، واسمه إلياس وإلياسين، ورواها في المصحف مفصولة، وقد قرأها بعض القراء «آل يس»، فقال طائفة منهم: له أسماء: يس وإلياسين وإلياس.

---

(١) مدارج السالكين (٣/٢٠٦).

وقالت طائفة: «يس» اسم لغيره، ثم اختلفوا فقال الكلبي: يس محمد ﷺ وقالت طائفة: هو القرآن. وهذا كله تعسف ظاهر لا حاجة إليه.

والصواب ـ والله أعلم في ذلك ـ أن أصل الكلمة: آل ياسين، كآل إبراهيم فحذفت الألف واللام من أوله لاجتماع الأمثال ودلالة الاسم على موضع المحذوف، وهذا كثير في كلامهم إذا اجتمعت الأمثال كرهوا النطق بها كلها فحذفوا منها ما لا إلباس في حذفه، وإن كانوا لا يحذفونه في موضع لا تجتمع فيه الأمثال، ولهذا يحذفون النون من «إني، وأني، وكأني، ولكني»، ولا يحذفونها من ليتني، ولما كانت اللام في «لعل» شبيهة بالنون حذفوا النون معها، ولا سيما عادة العرب في استعمالها للاسم الأعجمي وتغييرها له، فيقولون مرة: «إلياسين»، ومرة: «إلياس»، ومرة: «ياسين»، وربما قالوا: «ياس»، ويكون على إحدى القراءتين قد وقع السلام عليه، وعلى القراءة الأخرى على آله.

وعلى هذا ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل: أن الآل إن أفرد دخل فيه المضاف إليه، كقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. ولا ريب في دخوله في آله هاهنا. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ونظائره.

وقول النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[(١)]، ولا ريب في دخول أبي أوفى نفسه في ذلك، وقوله: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم»، هذه أكثر روايات البخاري وإبراهيم هنا داخل في آله، ولعل هذا مراد من قال: آل الرجل نفسه.

وأما إن ذكر الرجل، ثم ذكر آله لم يدخل فيهم، ففرق بين اللفظ المجرد والمقرون. فإذا قلت: أعط هذا لزيد وآل زيد لم يكن زيد هنا داخلاً في آله، وإذا قلت: أعطه لآل زيد تناول زيداً وآله.

وهذا له نظائر كثيرة قد ذكرناها في غير هذا الموضع، وهي أن اللفظ تختلف دلالاته بالتجريد والاقتران، كالفقير والمسكين، هما صنفان إذا قرن بينهما، وصنف واحد إذا أفرد كل منهما، ولهذا كانا في الزكاة صنفين، وفي الكفارات صنف واحد، وكالإيمان والإسلام، والبر والتقوى، والفحشاء والمنكر، والفسوق

(١) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

والعصيان، ونظائر ذلك كثيرة ولا سيما في القرآن[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤١].

يقول تعالى: فقارع فكان من المغلولين، فهذان نبيّان[٢] كريمان استعملا القرعة، وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠].

فنزه سبحانه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن اتبعهم[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

فنزه نفسه عما يصفه به الخلق، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد.

ومن هاهنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن إدريس الشافعي ـ قدس الله روحه ونوَّر ضريحه ـ خطبة كتابه[٥] حيث قال: «الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه». فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته إنما تتلقى بالسمع، لا بآراء الخلق، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق، فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، وأن ما وصف به نفسه فهو الذي يوصف به، لا ما وصفه به الخلق، ثم قال:

---

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (١١٧ ـ ١١٩).
(٢) أي: سليمان ويونس عليهما السلام.
(٣) الطرق الحكمية (٢٩٤).
(٤) جلاء الأفهام (٩١).
(٥) انظر: الرسالة للإمام الشافعي، ص(٨).

«والحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدي شكر ماضي نعمه بأدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها».

فأثبت في هذا القدر أن فعل الشكر إنما هو بنعمته على الشاكر، وهذا يدل على أنه رحمه الله مثبت للصفات، والقدر.

وعلى ذلك درج بُدَّلُ[١] الإسلام والرعيل الأول، ثم فرق[٢] على أثرهم التابعون، وتبعهم على منهاجهم اللاحقون، يوصي بها الأول والآخر، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق وهم في ذلك بنبيهم مقتدون، وعلى منهاجه سالكون[٣].

❀ ❀ ❀

---

(١) أي: أصحاب العقول والآراء القارحة. انظر: نهج البلاغة (٢٢).

(٢) فرق: قال الزمخشري: «وفرق لي الطريق فروقاً وانفرق انفراقاً: إذا اتجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما، وطريق أفرق: بيّن»، نهج البلاغة (٣٤٠).

(٣) الصواعق المرسلة (١/١٥٣، ١٥٤).

سُوْرَةُ صٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِی ٱلذِّكۡرِ﴾ [صٓ: ١].

فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقاً من عند الله غير مفترى، كما يقوله الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين، متقدميهم ومتأخريهم: أن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق[١]. وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك[٢].

[وانظر تفسير الآية الأولى من سورة البقرة (١/ ٩١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡـَٔالِهَةَ إِلَـٰهࣰا وَ ٰحِدًاۖ﴾ [صٓ: ٥].

تأمل ما اشتملت عليه سورة صٓ من الخصومات المتعددة.

فأولها: خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡـَٔالِهَةَ إِلَـٰهࣰا وَ ٰحِدًاۖ﴾ إلى آخر كلامهم.

ثم اختصام الخصمين عند داود.

ثم تخاصم أهل النار.

ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات.

ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم.

ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

فليتأمل اللبيب الفطن، هل يليق بهذه السورة غير «صٓ»؟ وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١١٨).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (١٠/ ١٣).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [صٓ: ٢٥].

فزاده على المغفرة أمرين:

الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف.

والثاني: حسن المآب وهو حسن المنقلب، وطيب المأوى عند الله، قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة على صحة ما قلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [صٓ: ٢٦].

فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [صٓ: ٢٧].

والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين، بل الذي ظنوه: أنه لا شرع ولا جزاء ولا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب، فأخبر: أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه، وذلك هو الحق الذي خلقت به، وهو التوحيد وحقه وجزاؤه وجزاء من جحده وأشرك بربه(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [صٓ: ٢٨].

قد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين كالتسوية بين الأبرار والفجار.

---

(١) طريق الهجرتين (٢١٧).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨١).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فدل على أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وأنه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة، فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، تعالى الله عن فعله(١).

وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [صٓ: ٣٩].

أي: أعط من شئت وامنع من شئت، لا نحاسبك وهذه المرتبة هي التي عرضت على نبينا ﷺ(٣)، فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها وهي مرتبة العبودية المحضة التي تصرف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد في كل دقيق وجليل(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ﴾ [صٓ: ٤٤].

قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ﴾.

هذه الجملة خرجت مخرج التعليل، كما في نظائرها. فعلم أن الله ﷻ إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره وتخفيفاً عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٨، ٣٣٩). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨).

(٣) عن أبي هريرة ﷺ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبياً يجعلك، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: «بل عبداً رسولاً».
رواه الإمام أحمد (١٢/ ١٤٢، ١٤٣) برقم (٧١٦٠)، وصحح إسناده أحمد شاكر. قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح، مجمع الزوائد (٩/ ١٩).

(٤) زاد المعاد (٥/ ٨٣).

اليمين، وأيضاً فإن الله ﷻ إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث كما أخبر تعالى[١].

ومن العجب أن يحتج بهذه الآية من يقول: إنه لو حلف: ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة، لم يبر في يمينه. هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد.

وقال الشافعي: إن علم أنها مسته كلها بر في يمينه، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر. وإن شك لم يحنث، ولو كان هذا موجباً لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب تعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضرب بها ضربة واحدة، وهذا إنما يجزي في حق المريض، كما قال الإمام أحمد في المريض عليه الحد: «يضرب بعثكال يسقط عنه الحد».

واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: «كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدج، فلم يُرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها، قال: فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان ذلك الرجل مسلماً فقال: اضربوه حده، فقالوا: يا رسول الله: إنه أضعف مما تحسب، لو ضربناه مائة قتلناه، فقال: خذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ ثم اضربوه ضربة واحدة، ففعلوا»[٢].

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق، فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته، وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك فقال: إنه الشيطان، ثم حلف: لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط، فكانت معذورة محسنة في شأنه.

ولم يكن في شرعهم كفارة، فإنه لو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط، فيضرب بها ضربة واحدة. وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٢٢)، وأبو داود (١٢/ ١٦٩، ١٧٠) في الحدود، باب: إقامة الحد على المريض. وصححه الألباني، كما في صحيح ابن ماجه (٢/ ٨٥) في الحدود، باب: الكبير والمريض يجب عليه الحد.

فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة.

فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى فلا يتعدى بها عن محلها.

فإن قيل: فقولوا: هذا في نظير ذلك، ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة وكانا معذورين، لا ذنب لهما: أنه يبر بجمع ذلك في ضربة بمائة شمراخ.

قيل: قد جعل الله له مخرجاً بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر عن يمينه ولا يعصي الله بالبر في يمينه هاهنا، ولا يحل له أن يبر فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة، ولا يحل له أن يضربها لا مفرقاً ولا مجموعاً.

فإن قيل: فإذا كان الضرب واجباً كالحد هل تقولون: ينفعه ذلك؟

قيل: إما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر والبرد الشديد والمرض اليسير، فهذا ينتظر زواله ثم يحد الحد الواجب، كما روى مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه: «أن أمةً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم زنت فأمرني أن أجلدها فأتيتها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «أحسنت، اتركها حتى تماثل»[(١)][(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [صٓ: ٤٥، ٤٦].

أي: خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال ﷻ عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

---

(١) رواه مسلم (١٧٠٥).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٧ ـ ٩٩).

فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم، ومتابعتهم وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم(١).

[و] الأيدي: القوي في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق، وأكرمهم على الله تعالى(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾.

فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبيائه ورسله من اختصاصهم بالآخرة، وفيها قولان:

أحدهما: إن المعنى: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا، وذكرها، وإيثارها والعمل بها.

والقول الثاني: إنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة، واختصصناهم به عن العالمين(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: ٤٧].

أخبر سبحانه أنه أخلصهم، ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله ﷻ اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كرامته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عُبِد وأطيع، وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [صٓ: ٥٠، ٥١].

---

(١) الجواب الكافي (١١٤).
(٢) الجواب الكافي (١٣٤).
(٣) طريق الهجرتين (٣١٧).
(٤) طريق الهجرتين

[انظر] كيف تجد تحته معنى بديعاً وهو: أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي.

وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨]، أي: مطبقة مغلقة ومنه سمي الباب وصيداً، وهي: ﴿مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨، ٩]. قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل: يعني: أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد.

وأيضاً فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وثبوتهم في الجنة حيث شاؤوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت.

وأيضاً أشار إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٥٧ ـ ٦١].

فقولهم: لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار، أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع وقالوا: بل أنتم لا مرحباً بكم، أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان:

أحدهما: إنه ضمير الكفر والتكذيب، ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى: أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين، والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاؤوا به والشرك بالله ﷻ، أي: بدأتم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي: بئس المستقر والمنزل.

---

(١) حادي الأرواح (٥٤).

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: أنتم قدمتموه لنا ضمير العذاب، وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه. ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم ضعفاً وهم الشياطين[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [صٓ: ٧٥].

فهذا كلام ورد في معرض التوبيخ والتبكيت للَّعين على امتناعه من السجود، ولم يستحق هذا التبكيت والتوبيخ حيث كان السجود لمن يعقل، ولكن للمعصية والتكبر على ما لم يخلقه إذ لا ينبغي التكبر لمخلوق على مثله، إنما التكبر للخالق وحده فكأنه يقول سبحانه: لم عصيتني وتكبرت على ما لم تخلقه وخلقته أنا وشرفته وأمرتك بالسجود له؟

فهذا موضع «ما» لأن معناها أبلغ ولفظها أعم، وهو في الحجة أوقع، وللعذر والشبهة أقطع، فلو قال: ما منعك أن تسجد لمن خلقت؟ لكان استفهاماً مجرداً من توبيخ وتبكيت ولتوهم أنه وجب السجود له من حيث كان يعقل. ولعله موجود في ذاته وعينه وليس المراد كذلك، وإنما المراد توبيخه وتبكيته على ترك سجوده لما خلق الله وأمره بالسجود له.

ولهذا عدل عن اسم آدم العلم مع كونه أخصّ وأتى بالاسم الموصول الدال على جهة التشريف المقتضية لإسجاده له كونه خلقه بيديه، وأنت لو وضعت مكان «ما» لفظة «من» لما رأيت هذا المعنى المذكور في الصلة، وأن «ما» جيء بها وصلة إلى ذكر الصلة، فتأمل ذلك. فلا معنى إذاً للتعيين بالذكر إذ لو أريد التعيين لكان بالاسم العلم أولى وأحرى[2].

□ □ □

ومن أقبح الغلط والتلبيس تأويل اليدين بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول: لفلان عندي يد، وقال عروة بن مسعود للصديق: لولا يد لك عندي لم أجزك بها

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٧، ١٨). (٢) بدائع الفوائد (١/ ١٣٢).

لأجبتك[١]، ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه ثم تعدي الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير: كتبت بالقلم وهي اليد، وجعل ذلك خاصة خص بها صفيه آدم دون البشر، كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه، وخص موسى بأن كلمه بلا واسطة، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة، وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [صٓ: ٧٩].

وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به، وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه، فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [صٓ: ٨٢ ـ ٨٣].

لا يفهم منها إلا أن المخلصين لا يتمكن من إغوائهم[٤].

* * *

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٩٢، ١٩٣).
(٣) مفتاح دار السعادة (٩٨).
(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٥٩).

سُوْرَةُ الزُّمَرْ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره؛ فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة لله موصوفاً بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابدٌ الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره ولم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده، فله الحمد والمنة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

فإن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه، فذكر سبحانه أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلى حال وذكر ظلمات الحجب التي على الجنين فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، فإن كل واحد منها حجاب على الجنين، وقال آخرون: هي ظلمة أصلاب الآباء، وظلمة بطون الأمهات وظلمة المشيمة، وأضعف من هذا القول قول من قال: ظلمة الليل وظلمة البطن وظلمة الرحم، فإن الليل والنهار بالنسبة إلى الجنين سواء(٢).

* * *

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٣٧).

(٢) تحفة الودود (٢١٧).

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

قال صاحب الغناء: قد أمر الله رسوله أن يبشر من استمع القول واتبع أحسنه فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. قال: والألف واللام في القول تقتضي العموم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الحسن من القول، وهذا يعم كل قول فيدخل فيه قول السماع وغيره.

قال صاحب القرآن: قد كان ينبغي لك أن توقر كلام الله وتجله أن تنزله على أقوال المغنين والمغنيات وإخوانهم من النائحين والنائحات، وأن يحمل على رقية الزنا ومنبت النفاق وداعي الغي والهوى. فيكفي في فساد القول أنه لم يقله قبلك أحد من أئمة التفسير على اختلاف طبقاتهم.

ويدل على بطلانه وأنه يمتنع أن يراد بكلام من لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجوه عديدة:

أحدها: أن الله ﷻ لا يأمر بل لا يأذن في استماع كل قول حتى يقال: «اللام» للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]. . .

الوجه الثاني: أن المراد بالقول في هذه الآية التي احتججتم بها القرآن، كما جاء ذلك في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١]، فالقول الذي بشر مستمعيه ومتبعي أحسنه هو القول الذي وصله وحض على تدبره. وكلام الله يفسر بعضه بعضاً ويحمل بعضه على بعض.

الوجه الثالث: أن الألف واللام هنا لتعريف العهد وهو القول الذي دعي إليه المخاطب وأمر بتدبره، وأخبر بتوصيله له وهو كالكتاب والقرآن، والألف واللام فيه كالألف واللام في الكتاب سواء وكذلك الألف واللام في الرسول في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وفي قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. فهل يجوز أن يقال: إن اللام في الكتاب والرسول للاستغراق فتحمل على كل كتاب وعلى كل رسول؟

الوجه الرابع: أنها وإن كانت للعموم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾، فهي إنما تعم القول الذي أنزل الله ومدحه وأثنى عليه وأمر باتباعه واستماعه وتدبره وفهمه، فهي تقتضي العموم والاستغراق في جميع هذا القول، فإنها تقتضي عموم ما عرفته وقصد بمصحوبها.

الوجه الخامس: أن السياق كله من أول السورة إلى هذه الآية إنما هو في القرآن، قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣]، فذكر في أول السورة كتابه ودينه والكلم الطيب والعمل الصالح، فخير الكلام كتابه وخير العمل إخلاص الدين له، ثم أعاد ذكر الأصلين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ [الزمر: ١٧]، فهذا إخلاص الدين له، ثم قال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾، فهذا كتابه فتضمنت ذكر كتابه ودينه كما تضمنت (ذلك) أول السورة، فما لأقوال المغنين والمغنيات هاهنا.

الوجه السادس: أنه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥].

فهذا الأحسن الذي أمر باتباعه هنا هو الأحسن الذي بشر من اتبعه في أول السورة وهو أحسن المنزل في الموضوعين، ونظير هذا قوله تعالى لموسى في التوراة: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فهذا كله إذا تدبره المؤمن الناصح لنفسه؛ علم علماً يقينياً أن الكتاب والقول والحديث الذي أمر الله باستماعه وتدبره وفهمه واتباع أحسنه، هو كلامه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما مدح الاستماع لكل قول فهذا لا يليق نسبته إلى العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن الله سبحانه في كتابه إنما أثنى على المستمعين للقرآن وحمد هذا السماع وذم المعرضين عنه، وجعلهم أهل الكفر والجهل، الصم البكم الذين لا يعقلون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ

تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وهذا كثير في القرآن وكتاب الله يبين بعضه بعضاً.

الوجه الثامن: أن المعروف في القرآن إنما هو ذم استماع القول الذي هو الغناء، كما قال تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١]. قال غير واحد من السلف: هو الغناء، يقال: سمد لنا، أي: غنى لنا.

الوجه التاسع: أنه سبحانه قال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]. فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومن المعلوم أن كثيراً من القول بل أكثره ليس فيه حسن، فضلاً عن أن يكون أحسن بل غالب القول: يكب قائله في النار على منخره.

الوجه العاشر: أنه سبحانه علق الهداية على اتباع أحسن هذا القول، فقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، ومن المعلوم بالاضطرار أن الهداية إنما حصلت لمن اتبع القرآن، فهو الذي هداه الله فأين الهدي في أقوال المغنين والمغنيات؟

وبالجملة ففساد هذا القول، الذي حملتم عليه كتاب الله وألصقتموه به وهو منه بريء وحملتموه إياه وليس خليقاً بحمله معلوم لكل من في قلبه حياة ونور، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠][(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له، فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلٰهه الحق، لا يستويان[(٢)].

* * *

(١) السماع (٢٣٤ ـ ٢٤٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال أبو عبد الله بن منده: حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن حسين الحراني، حدثنا جدي أحمد بن شعيب، حدثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: «بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها»(١). وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا الحسين حدثنا عامر، حدثنا أسباط عن السدي، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذكران ويتعارفان قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها».

وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس.

وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً والمرسلة من توفيت وفاة النوم.

والمعنى على هذا القول: أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية: أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توَفَّى وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله.

واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال: عليه يدل القرآن والسنة، قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول؛ لأنه سبحانه أخبر بوفاتين، وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم، وقسم الأرواح قسمين؛ قسماً قضى عليها

(١) رواه الطبري عن سعيد بن جبير (٢٤/٩).

بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاها وفاة الموت، وقسماً لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً، فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها، فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين: وفاة موت ووفاة نوم، لم يقل: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، فإنها من حين قبضت ماتت وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾؟

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، بعد أن توفاها وفاة الموت فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك.

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين، فإنه سبحانه ذكر وفاتين؛ وفاة نوم ووفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة ويرسل نفس من لم يمت، فقوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

أخبر أن الشفاعة لمن له ملك السماوات والأرض وهو الله وحده، فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده.

وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ

---

(١) الروح (٢٠، ٢١).

يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]. وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور، فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك، فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول: اشفع في فلان، ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له وإذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمرهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه.

فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محال ممتنع شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج.

وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي، والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب والسيد والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير، والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع، لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضى.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السماوات والأرض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلٰهيته مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن حال ملكه للسماوات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع، والذي وفَّقه لفعل ما يستحق به الشفاعة، وقوله: فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده إلٰهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه

الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه، هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾[١]

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وقال البغوي[٢]: على علم من الله أني له أهل.

وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله.

وقال آخرون: بل العلم له نفسه ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب. قاله قتادة وغيره.

وقيل: المعنى: قد علمت أني لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها ومحنة نمتحنه بها لا يدل على اصطفائه واجتبائه، وأنه محبوب لنا مقرب عندنا[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾، هي في حق التائب؛ لأنه أطلق وعمم فلم يخصها بأحد ولم يقيدها بذنب، ومن المعلوم بالضرورة أن الكفر لا يغفره، وكثير من الذنوب لا يغفرها.

فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب فكل من تاب من أي ذنب كان؛ غفر له[٤].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢).
(٢) تفسير البغوي (٧/ ٧٩).
(٣) شفاء العليل (٣٧).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٢٦).

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر: ٥٤].

الإنابة: إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع.

وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤]، فهذا حالهم بعد الإنابة.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلٰهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه فإن الله سبحانه اسم للإلٰه الموصوف بكل صفة كمال المنزه عن كل صفة نقص ومثال.

والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته(٣).

---

(١) الجواب الكافي (٢٥٠). (٢) مدارج السالكين (١/ ٤٣١).

(٣) قال ابن القيم: قالت القدرية: نحن نقول: إن الله خالق أفعال العباد لا على أنه محدثها ومخترعها لكن على معنى: أنه مقدرها فإن الخلق التقدير، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض ... القوم يخلق ثم لا يفري =

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وهذا الذي وصف به نفسه هاهنا يتضمن من اقتداره على تغيير العالم وتبديله ما

= أي: لأنت تمضي ما قدرته وتنفذه بعزمك وقدرتك وبعض القوم يقدر ثم لا قوة له ولا عزيمة على إنفاذ ما قدره وإمضائه، فالله تعالى مقدر أفعال العباد وهم الذين أوجدوها وأحدثوها.

قال أهل السنة: قدماؤكم ينكرون تقدير الله سبحانه لأعمال العباد البتة فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك، ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها وليس التقدير عندكم جعلها على قدر كذا وكذا، فإن هذا عندكم غير مقدور للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنع العبد وإحداثه فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر وهذا لا يسمى خلقاً في لغة أمة من الأمم، ولو كان هذا خلقاً لكان من علم شيئاً وعلم أسماءه وصفاته وأخبر عنه بذلك خالقاً له، فالتقدير الذي أثبتموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلاف مذهبكم، وإن لم يتضمن تأثيراً في إيجاده فهو راجع إلى محض العلم والخبر.

قالت القدرية: قوله: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من العام المراد به الخاص، ولا سيما فإنكم قلتم: إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم ومنعهم.

قالت أهل السنة: القرآن كلام الله سبحانه وكلامه صفة من صفاته وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق فإن الخالق غير المخلوق، فليس هاهنا تخصيص البتة بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق وكل ما عداه مخلوق وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه، إذ ليس إلا الخالق والمخلوق، والله وحده الخالق وما سواه كله مخلوق. وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم وإنما أفعالهم القائمة بهم وأنهم هم الذين فعلوها فكلها حق نقول بموجبها، ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالاً لهم ومخلوقة مفعولاً لله فإن الفعل غير المفعول، ولا نقول: إنها فعل لله والعبد مضطر مجبور عليها، ولا نقول: إنها فعل للعبد والله غير قادر عليها ولا جاعل للعبد فاعلاً لها، ولا نقول: إنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير، وهذه الأقوال كلها باطلة.

قالت القدرية: يعني: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما لا يقدر عليه غيره، وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال.

قالت أهل السنة: إضافتها إليهم فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقاً ومشيئة، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يقدر عليه ولا خلقه [شفاء العليل (٥٣ ـ ٥٤)].

يبطل قول أعدائه الملاحدة المكذبين بالمبدأ والمعاد، أئمة هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل والرأي[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ **[الزمر: ٦٨].**

فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السماوات ومن في الأرض من هذا الصعق، فقيل: هم الشهداء، هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير.

وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وهذا قول مقاتل وغيره.

وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها.

قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا، وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان.

أما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فتفسير هذه الآية [الآية] التي في البقرة وهي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها.

ففي الحديث الصحيح: «أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور»[2]. فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]، ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرى.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٦٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٣)، رواه البخاري (٢٤١١، ٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٣، ٢٣٧٤).

وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء، فقال أبو عبد الله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السماوات والأرض قال: فتستقل الأحاديث والآثار.

ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش، قال: وهذا إنما عند نفخة الفزع.

قال أبو عبد الله: وقال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال ـ إن شاء الله تعالى ـ أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي ﷺ: «أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء»[(١)]، وأنه ﷺ: «اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصاً بموسى».

وقد أخبر أنه: «ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام»[(٢)]، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٨)، وأبو داود (٣/ ٣٧٠، ٣٧١) في الصلاة، تفريع أبواب الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة وليلتها، والنسائي (٣/ ٩١، ٩٢) في الجمعة، باب: إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، وابن ماجه (١/ ١٧٨) صحيح ابن ماجه في الصلاة، باب: فضل الجمعة، كلهم من حديث أوس بن أوس ﷺ، وصححه الألباني، كما في فضل الصلاة، برقم (٢٢/ ٢٣) والإرواء (١/ ٣٤).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود (٦/ ٣١) في المناسك، باب: زيارة القبور.

قال النووي في رياض الصالحين: «إسناده صحيح» رقم (١٤٠٩). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥/ ٣٣٨) برقم (٢٢٦٦).

راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا تراهم، وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق، ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «فأكون أول من يفيق»، فنبينا ﷺ أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى فإنه حصل فيه تردد، هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً؛ لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً. انتهى.

قال أبو عبد الله القرطبي: إن حُمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حُمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى: إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح؛ لأنه ﷺ تردد، هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى: لا أدري أصعق أم لم يصعق، وقد قال في الحديث: فأكون أول من يفيق، وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأنَّ التردد حصل في موسى، هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق، ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت.

وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى، نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ، وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش».

قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا والحديثان هكذا:

أحدهما: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق».

والثاني: هكذا: «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة». ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ[(٢)] يقول ذلك، (فإن قيل): فما تصنعون بقوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ»، والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة لا من صعقة يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل: هذا ـ والله أعلم ـ غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة[(٣)]، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»، فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثني منها، وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث، فكيف يقول: لا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

فتأمله، وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعاً، وأما موسى ﷺ فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة. فتأمل هذا المعنى العظيم ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٨) في المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ، وابن ماجه (٢/ ٤٣٠) صحيح ابن ماجه للألباني في الزهد، باب: ذكر الشفاعة. وانظر: الصحيحة حديث رقم (١٥٧٢).

(٢) ما نقله ابن القيم عن المزي ـ رحمهما الله تعالى ـ ذكره ابن حجر في فتح الباري دون تعليق (٦/ ٥١٢) في أحاديث الأنبياء، في ذكر موسى عليه السلام.

(٣) انظر: فتح الباري (٦/ ٥١٣)، وفيه بحث نفيس لابن حجر رحمه الله تعالى.

لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكور والقمر يخسف ويذهب نورهما وحجابه تبارك وتعالى النور. قال أبو موسى: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(٢)]، ثم قرأ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]. فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

[وسرّ حذف الواو في قوله: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أنه] فاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله فيها، فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر، إلا أنه متوقع منه شراً عظيماً ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه.

وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه.

وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحاً فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، وحذف الجواب تفخيماً لأمره وتعظيماً لشأنه على عادتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد، وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو، ومن دعوى كونها واو الثمانية؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحداً

---

(١) الروح لابن القيم (٣٥ ـ ٣٧). (٢) رواه مسلم (١٧٩).
(٣) الوابل الصيب (٧٣، ٧٤).

بعد واحد فينتهون إلى السبعة ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو، وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها، فتأمله.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق ﷺ: «يأتي باب الجنة فيلقاه مغلقاً حتى يستفتحه»، قلنا: هذا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح لأهلها إلا على يديه، فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها هو وأهلها لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه، وأنه هو الذي استفتحها لهم.

ألا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ولم يمكنهم فتحه، حتى جاء رجل ففتحه لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه كان في ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجدوه مفتوحاً[١]؟

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وكلمته سبحانه إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ويفرح بعضهم ببعض. وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمراً يلعن بعضهم بعضاً ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحداً واحداً فلا تهمل تدبر قوله: زمراً.

وقال خزنة الجنة لأهلها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ فبدأوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، أي: سلامتكم وداخلوها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٤، ١٧٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢١٩).

وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن، وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه من توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

فاعترفوا وقالوا: بلى فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوى لهم.

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ادخلوها، وقول خزنة النار لأهلها: ادخلوا أبواب جهنم، تجد تحته سراً لطيفاً ومعنى بديعاً لا يخفى على المتأمل وهو: أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء وأشده حراً وأعظمه غماً يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها، ويدنو من الغم والحزن والكرب بدخول الأبواب، فقيل: ادخلوا أبوابها صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فبشروا من أول وهلة والدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

فحذف فاعل القول؛ لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه، فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار، قال الحسن أو غيره: «لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً».

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر: ٧٢]، وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]. كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب(٢).

* * *

(١) حادي الأرواح (٥١ ـ ٥٤).
(٢) روضة المحبين (٧٤، ٧٥).

سُورَةُ غَافِرٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ١ ـ ٣].

فأتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين الأخيرين؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه.

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة.

وحَسَّنَ العطف هاهنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن؛ ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. وترك في قوله: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقوله: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وأما ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطَوله لا ينافي شدة عقابه بل هما مجتمعان له، بخلاف الأول والآخر فإن الأولية لا تجامع الآخرية ولهذا فسرها النبي ﷺ بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[1]، فأوليته أزليته وآخريته أبديته[2].

□ □ □

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥٢، ٥٣).

تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي «رحمة» قبله وصفة «رحمة» بعده. فقبله ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وبعده ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾، ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[1]، وفي لفظ: «سبقت غضبي»[2]، وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت.

وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك.

وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه. فهذا يدل على شيئين:

أحدهما: علوه تعالى على خلقه.

والثاني: أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه، وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً كما أنه منه تنزيلاً، فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به، ومثل هذا: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، ومنه: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ومثله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فاستمسك بحرف ﴿مِّنَ﴾ في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية.

وتأمل كيف قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ﴾ [فصلت: ٢] ولم يقل تنزيله فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه وثبوت الرسالة.

ثم قال: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فتضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم وخلق أعمال العباد وحدوث كل ما سوى الله؛ لأن القدرة هي قدرة الله كما قال «أحمد بن حنبل»، فتضمنت إثبات القدر؛ ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه، أو أن يشاء ما لا يكون، فكأن عزته تبطل ذلك، وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل شيء وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك.

ثم قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ والذنب مخالفة شرعه وأمره، فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله.

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٢).

ثم قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذا جزاؤه للمذنبين، و﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ جزاؤه للمحسنين فتضمنت الثواب والعقاب.

ثم قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فتضمن ذلك التوحيد والمعاد.

فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو والكلام والقدرة والعلم والقدر وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد.

وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة.

فهذه عشر قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة ولكن حور تزف إلى ضرير مقعد، فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؟ وهكذا سائر آيات القرآن فما أشدها من حسرة وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، فالله المستعان[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

ومن الثاني: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]. فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»[(٢)].

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحمد والرحمة إنما يحسنان مع العلم وقدم الرحيم في هذا الموضع؛ لتقدم صفة العلم فحسن ذكر الرحيم بعده؛ ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة؛ لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩١ ـ ١٩٤).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٧٤) عن هارون بن رئاب بلفظ: «حملة العرش ثمانية...»، وقال: أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان، وذكره ابن كثير (٤/ ٧٨) عن تفسير الآية عن شهر بن حوشب.

اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم؛ لأجل ما قبله قدم على الغفور[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء، وإن كان قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ.

فإن قيل: فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها: الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ[(٢)].

ولا يرد على هذا قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها.

وقيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها.

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله تعالى بسعة علمه وسعة رحمته.

فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم، إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٠).

(٢) في خطبة الحاجة من قوله: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك ما يكره، فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل التي يحبها، ثم سألوه أن يقيم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها. وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب من جملتها: دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي ﷻ ما شاء، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروح، فقدْ فَقَدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك.

وأما في الآخرة: فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧].

قرأ أهل الكوفة: [وَصُدَّ] على البناء للمفعول حملاً على زين، وقرأ الباقون: (وَصَدَّ) بفتح الصاد ويحتمل وجهين:

أحدهما: أعرض فيكون لازماً.

---

(١) الجواب الكافي (١٦٩ ـ ١٧١).

(٢) مدارج السالكين (٣/١٥٨).

والثاني: يكون صد غيره فيكون متعدياً والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه وغرهم فاتبعوه، ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله، فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولهذا كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»(٢).

والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع؛ ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصي الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته.

ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر، كما أن الإيمان يتفاوت فإيمان أفضل من إيمان، فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات، ولا يظلم الله من خلقه أحداً وهو الغني الحميد(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

[أما القول]: إن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة، ففي غاية الفساد، فإن المراد من الخلق هاهنا الفعل لا نفس المفعول، وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد، أي: أن الذي خلق السماوات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقاً جديداً؟

ونظير هذا في قوله في سورة يسٓ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ

---

(١) شفاء العليل (٩٦).
(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).
(٣) طريق الهجرتين (٣٨٠، ٣٨١).

أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يٓس: ٨١]. أي: مثل هؤلاء المنكرين، فهذا استدلال بشمول القدرة للنوعين وأنها صالحة لهما فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر، فكذلك قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي كيف يعجز عن خلق الناس خلقاً جديداً بعدما أماتهم[١].

❁ ❁ ❁

(١) مفتاح دار السعادة (٥٤١، ٥٤٢).

سُورَةُ فُصّلَتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلٰهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلٰهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي ـ وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد.

والتزكية: جعل الشيء زكياً إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يقال: عدَّلته وفسَّقته إذا جعلته كذلك في الخارج وفي الاعتقاد والخبر[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

فهي أربعة باليومين الأولين، ولولا ذلك لكانت أيام التخليق ثمانية، ونظيره: قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان». سئل أبو نصر بن الصباغ عن القيراطين: هل هما غير الأول، أو به، فقال: بل القيراطان: الأول وآخر معه[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

لا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياماً نحسات عليهم؛ لأن النحس أصابهم فيها، وإن كانت أيام خير لأوليائه

---

(١) إغاثة اللهفان (٤٩).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٧).

المؤمنين، فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين، وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم.

قال مجاهد: أيام نحسات مشائيم.

وقال الضحاك: معناه: شديد، أي: شديد البرد حتى كان البرد عذاباً لهم.

وقال ابن عباس: نحسات: متتابعات، وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]. وكان اليوم نحساً عليهم لإرسال العذاب عليهم، أي: لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين للرسل. ومستمر: صفة للنحس لا لليوم، ومن ظن أنه صفة اليوم وأنه كان يوم أربعاء آخر الشهر وأن هذا اليوم نحس[1] أبداً، فقد غلط وأخطأ فهم القرآن، فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه، وكم لله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه، كما يقع ذلك في غيره من الأيام.

فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل. واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين.

فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس، وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك؟ ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحساً على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب نحساً لطائفة سعداً لطائفة فهذا هو المحال[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ **[فصلت: ١٧].**

يعني: بينا لهم ودللناهم وعرفناهم، فآثروا الضلالة والعمىٰ، فهذه هداية البيان

---

(١) رحم الله تعالى هذا الإمام النابه الحكيم، فهذا من أفسد الأخلاق المبثوثة بين الناس ممن يدَّعون ـ للأسف ـ الحضارة والمدنية شرقاً وغرباً، ولا يتحرك أحدهم إلا بعد النظر في برجه وقراءة ما اطلع عليه منجمه ـ زعم ـ من غيب، وما هذا إلا نوع من عبادة الشياطين واتباع الضالين والزنادقة الملحدين، عن دين الله يصدون، وللشرك يدفعون، وأتباعهم في غفلة ساهون سكارى حائرون، فهذا ديننا يعلمنا حسن التوكل مع الحكمة في الأخذ بالأسباب، ويحرم على المسلم الانصراف إلى هذه الضلالات، فلا فأل إلا فأل الله، ولا طير إلا طيره، ولا إلٰه غيره. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٣٧).

والدلالة، التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق.

فيا للّه، ما ظن أصحاب الكبائر الظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟!

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعمال ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن.. وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز. كما في الترمذي من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[٢].

وبالجملة: فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

وأما استعتب فللطلب، أي: طلب الإعتاب، فهو لطلب مصدر الرباعي الذي هو أعتب، أي: أزال عتبه لا طلب الثلاثي الذي هو العتب.

أي: وإن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم، ويقال: عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه، ثم يقال: استعتب السيد عبده، أي: طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده، أي: أزال عتبه بطاعته، ويقال: استعتب العبد سيده أي: طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده، أي: فأزال عتب نفسه عنه.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي: وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم ولا يقبل فيها توبتهم، وقوله: ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٤).
(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩).
(٣) الجواب الكافي (٢٧).

[النحل: ٨٤] أي: لا يطلب منهم إعتابنا، وإعتابه تعالى إزالة عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله.

وكذلك قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقول النبي ﷺ في دعاء الطائف: «لك العتبى»[1]، هو اسم من الإعتاب لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه ولك عليَّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك فافعل ما ترضى به عني، وما يزول به عتبك عليّ. فالعتب منه على عبده والعتبى والإعتاب له من عبده فها هنا أربعة أمور:

[الأول:] العتب: وهو من الله تعالى، فإن العبد لا يعتب على ربه فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم، ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط.

الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين، فإعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي تزول بها عتب الله عليه.

الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضاً ومن العبد بالاعتبارين، فالله يستعتب عباده أي: يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: «إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه»، والعبد يستعتب ربه، أي: يطلب منه إزالة عتبه.

الرابع: العتبى: وهي اسم الإعتاب.

فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبيط كثير من المفسرين لهذه المواضع، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإما محسن فلعله أن يزداد وإما مسيء فلعله أن يستعتب»[2]، أي: يطلب من ربه إعتاباً إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه فيزول عتبه عليه.

والاستعتاب: نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى، وفي الأثر: إن العبد ليسترضي ربه فيرضى عنه، وإن الله ليسترضى فيرضى. لكن الاسترضاء فوق

---

(١) رواه ابن إسحاق دون سند (٢/ ٢٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني... عن عبد الله بن جعفر... وفيه من لم أعرفه»، مجمع الزوائد (٦/ ٣٥)، وضعفه الألباني، كما في «دفاع عن الحديث النبوي»، ص(١٩)، وتعليقه على «فقه السيرة»، ص(١٣٤).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الاستعتاب، فإنه طلب رضوان الله، والاستعتاب: طلب إزالة غضبه وعتبه وهما متلازمان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٥].

ومعنى الآية: أن الله قيض للمشركين ـ أي: سبب لهم ـ قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

وقيل عكس هذا، وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع: وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولم يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي: زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها؛ ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره(٢).

وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ﴾.

أي: وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم(٣).

* * *

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٨١، ١٨٢).
(٢) تفسير البغوي (٦/ ١١٠).
(٣) طريق الهجرتين (٣٨٩، ٣٩٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

فالمَلَكُ يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ودفع عدوه عنه والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله فهو أنيسه في الوحدة ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن جأشه ومرغبه في الخير ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم،وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية(٢)، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً(٣).

وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في

---

(١) روضة المحبين (٢٤٦). (٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٣) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٤٣٧)، (٥/ ١٨٣) وغيرها، والترمذي (٥/ ٣٤) في العلم، باب: ما جاء في تعظيم الكذب على رسول الله ﷺ، وأبو داود (١٠/ ٩٤، ٩٥) في العلم، باب: فضل نشر العلم. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٤٠٤).

أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه، وهم كما قال فيهم عمر بن الخطاب في خطبته التي ذكرها ابن وضاح[١] في كتاب «الحوادث والبدع» له قال: «الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويحيون بكتاب الله أهل العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال تائه قد هدوه، بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، يقبلونهم في سالف الدهر وإلى يومنا هذا فما نسيهم ربك وما كان ربك نسياً. جعل قصصهم هدى وأخبر عن حسن مقالتهم. فلا تقصد عنهم فإنهم في منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضيعة».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام ولياً من أوليائه يذب عنها وينطق بعلاماتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله».

ويكفي في هذا قول النبي ﷺ لعلي ولمعاذ أيضاً: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[٢]، وقوله ﷺ: «من أحيا شيئاً من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين»[٣]، وضم بين إصبعيه، وقوله: «من دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل أجر من اتبعه إلى يوم القيامة»[٤].

فمتى يدرك العامل هذا الفضل العظيم والحظ الجسيم بشيء من عمله، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فحقيق بالمبلغ عن رسول الله ﷺ الذي أقامه الله في هذا المقام أن يفتتح كلامه بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده، والاعتراف له بالوحدانية وتعريف حقوقه على العباد، ثم بالصلاة على رسول الله ﷺ وتمجيده والثناء عليه وأن يختمه أيضاً بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تسليماً[٥].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

---

(١) انظر: «البدع والنهي عنها» لابن وضاح، ص(٣).
(٢) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٣) رواه الترمذي بلفظ قريب من هذا، (٢٦٧٧، ٢٦٧٨).
(٤) رواه مسلم (٢٦٧٤).
(٥) جلاء الأفهام (٢٤٩، ٢٥٠).

فهذا لدفع شياطين الإنس ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. فأكد بإن، وبضمير الفصل، وأتى باللام في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة وهذا المعنى شامل للموضوعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه بهم كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود، قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر؛ قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣]»[1].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سياق هذا الإنكار، أي: هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون.

وحَسَّنَ ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضاً فإن السياق هاهنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده؛ ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

[فصلت: ٣٧]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة.

والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعيذ بأن له رباً يسمع ويعلم وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه، ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها فإنه سميع عليم وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تسوونها به في العبادة، فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة (حمٓ المؤمن)[١] هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر، قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[فصلت: ٣٩]**.

فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة: هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ **[فصلت: ٤٤]**.

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن وهو عليهم عمى، أعمى الله

---

(١) أي: سورة «غافر».
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٦، ٩٧).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

قلوبهم فلا يفقهون: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء.

وقال مجاهد بعيد من قلوبهم.

وقال الفراء: نقول للرجل الذي لا يفهم: كذلك أنت تنادى من مكان بعيد. قال: وجاء في التفسير كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى.

والمعنى: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [**فصلت**: ٤٩، ٥٠].

قال ابن عباس: [هذا لي] يريد من عندي.

وقال مقاتل: يعني: أنا أحق بهذا.

وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به.

وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحقيته، فوصف الإنسان بأقبح صفتين إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: وما أظن الساعة قائمة، ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

أي: أن القرآن حق فأخبر أنه لا بد أن يريهم من آياتهم المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق.

ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله.

---

(١) شفاء العليل (٩٦).

(٢) شفاء العليل (٣٨).

فآياته شاهدة بصدقه وهو مشاهد بصدق رسوله بآياته فهو الشاهد والمشهود له وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء! فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه؛ ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه[١].



(١) الفوائد (٢٣).

سُوْرَةُ الشُّورَى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ **[الشورى: ١٠].**

وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده، وهو الحاكم فيه على لسان رسوله، فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بوحيه وكتابه[١].

* * *

- **قوله تعالى:** ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ **[الشورى: ١١].**

قوله: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾.

قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج. ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل والمعنى: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر: من جعله لكم أزواجاً فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان: بالأزواج. والضمير في قوله: «فيه» يرجع إلى الجعل ومعنى (الذرء): الخلق، وهو هنا الخلق الكثير فهو خلق وتكثير، فقيل: «في» بمعنى: الباء أي: يكثركم بذلك، وهذا قول الكوفيين.

والصحيح: أنها على بابها والفعل تضمن معنى: «ينشئكم»، وهو يتعدى بفي كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، فهذا تفسير الآية ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح وهو سبحانه الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذرءاً، والله أعلم[٢].

□ □ □

قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٢٨).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٩، ٣٠٠).

فإنه سبحانه ذكر ذلك بعد ذكر نعوت كماله وأوصافه فقال:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ [الشورى: ١ ـ ٦] إلى قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة، والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية، وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السماوات والأرض وهو السميع البصير، فهذا هو الذي ليس كمثله شيء، لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله وثبوتها له على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء.

فالمثبت للصفات والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء هو الذي يصفه سبحانه بأنه ليس كمثله شيء.

وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه له بأنه ليس كمثله شيء مجاز لا حقيقة كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

ولهذا قال من قال من السلف: إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل فسموا تعطيلهم تنزيهاً، وسموا ما وصف به نفسه تشبيهاً، وجعلوا ما يدل على ثبوت صفات الكمال وكثرتها دليلاً على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله له نوراً واغتر به من شاء وهدى الله من اعتصم بالوحي والعقل والفطرة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/١٠٢٨ ـ ١٠٣٠).

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ﴾ [الشورى: ١٣ ـ ١٥].

فأخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحاً والنبيين من بعده وهو دين واحد ونهانا عن التفريق فيه. ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق، وأن الحامل على ذلك التفرق: البغي من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها، ولقولها دون غيرها.

وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادراً عن هذا بعينه.

ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه وحذره من اتباع أهواء المتفرقين وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحقق أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت.

ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم وهذا يعمم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم.

فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى القدر المشترك بينهما من الحق فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به.

ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره.

ثم قال: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ والحجة هاهنا هي الخصومة، أي: للخصومة ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم بعدما ظهر الحق وأسفر صبحه وبانت أعلامه وانكشفت الغمة عنه.

وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول، وأن الدين لا احتجاج فيه، كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية، وأجوبة لمعارضتهم وإفساد لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين،

وإخبار عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد لحجج الخصم.

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته واختار بعضهم مسالمته ومتاركته وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة ولم يجد إلى ردها سبيلاً، وما خالفه أعداؤه إلا عناداً منهم وميلاً إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع، فما قام الدين إلا على ساق الحجة.

فقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة، فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع، فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحوداً وعناداً لم يبق للاحتجاج فائدة، فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار، فقد وضح الحق واستبان ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد، والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق على المبطل وإليه المصير[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

[انظر في تفسيرها: تفسير الآيتين ١٥ ـ ١٦ من سورة هود: (٢/٤٧)].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ﴾ [الشورى: ٢٢].

هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب، أو عند الموت، فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش؛ لأنه قد علم أنه صائر إليه، كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها فهو مشفق منها إذا رآها؛ لعلمه بأنه صائر إليها[2].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣٨٩ ـ ٣٩١).

(٢) طريق الهجرتين (٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

استدل شيعي على الوصية لأهل البيت بهذه الآية.

فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم، لا وصية إليهم، فهي حجة على خلاف قول الشيعة، لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي، وهذا القول دون الأول[٢] لوجوه:

أحدها: أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم: أن محمداً كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جواب وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه فيعود المعنى إلى: أنه لو افترى علي لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والإخبار بالغيوب ما لم يكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه، فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟

الوجه الثاني: أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٩).

(٢) (دون الأول) يقصد المؤلف: أنه أقرب من الأول [الشامي].

الثالث: أن الرابط على قلب العبد لا يقال له: ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار قي جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]. ونظائره، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]. والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

الرابع: أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم: «إنه افتراه» لا يجيبهم عليه هذا الجواب بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الأحقاف: ٨]. وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

الخامس: أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه، وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

السادس: أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة ولا التضمن ولا اللزوم، فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى فيحمل عليه بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه فقد ذكره في مواضع.

السابع: أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ﴾ [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدوراً لي لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكن أوحاه إلي وأذن لي في

تلاوته عليكم وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذباً وافتراءً كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته؛ لأن الكذب لا يعجز عنه البشر وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٦]. تعلمون حالي ولا يخفى سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي، ومن هذا لم أتمكن من قول شيء البتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمُّل ولا تعلم ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه ولا من بعضه. وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إلي وأنزله علي ولو شاء ما فعل، فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ولم أكن قبل أن يوحى إلي تالياً له، ولا لبعضه.

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. وهذا هو المناسب لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ [الشورى: ٢٤]. ولقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]. وهو برهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة، والله أعلم.

الثامن: أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ﴾ [الشورى: ٣٣]. وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [سبأ: ٩]. ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفياً.

التاسع: أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١]. ومعنى الربط في اللغة: الشد؛ ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب، ومنه يقال: هو رابط الجأش، وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة والمعنى: يربط قلوبكم وليس كما ظن؛ بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر

فإنه يقال: ربط الفرس والدابة ولا يقال: ربط عليها، فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه كأنه أحاط عليه بالرباط، فلهذا قيل: «ربط على قلبه»، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه، والمقصود: أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

العاشر: أن الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فهو مانع يمنع العلم والتقصد، والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترى القرآن ويشعر به فلم يجعل الله على قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به، فإذا قيل: الأمر كذلك ولكن جعل الله على قلبه مانعاً من التأذي بقولهم قيل: هذا أولى أن يسمى ختماً وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له فإنه لم يؤذَ نبي ما أوذي، فالقول في الآية هو قول قتادة، والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [**الشورى: ٣٦، ٣٧**].

فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾. فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله[٢].

* * *

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [**الشورى: ٣٩**].

فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخُلُق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨٥ ـ ١٩٠). (٢) الفوائد (٨١).

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار، وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: «كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا»، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي أثر معروف: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»؛ ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أي: إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهي كمال القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك.

إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر عن المسيء والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزاً ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو؛ ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط[١].

وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ **[الشورى: ٤٨]**.

كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى (بإذا)، وأتى في

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧). (٢) الروح لابن القيم (٢٤٢).

إصابة السيئة (بإن) فإن ما يعفو الله عنه أكثر. وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق ولا بد، وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم وإنها مذوقة لهم والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها، وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾، وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم.

وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية.

وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضاً لمقته أن يتسخط ما وهبه.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث فقيل: جبراً لهن؛ لأجل استقبال الوالدين لمكانهما.

وقيل: ـ هو أحسن ـ إنما قدمهن؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر: وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن، أي: هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر.

وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث وعرّف الذكور فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنزيه كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم.

ثم لما ذكر الصنفين معاً قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٤٧، ٤٨).

والمقصود: أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله سبحانه في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]. وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]. ومن هنا عبّر بعض المعبرين لرجل قال له: رأيت كأن وجهي أسود فقال له: ألك امرأة حامل؟ قال: نعم، قال: تلد لك أنثى[(١)].

□ □ □

وذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال.

إحداها: من تلد الإناث فقط.

الثانية: من تلد الذكور فقط.

الثالثة: من تلد الزوجين الذكر والأنثى، وهو معنى التزويج هنا: أن يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى.

الرابعة: العقيم التي لا تلد أصلاً.

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يُدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحي، ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، قال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟»، قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين»، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: «زيادة كبد حوت ذي النون» قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين تسمى سلسبيلاً»، قال: صدقت، وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نَبي أو رجل أو

---

(١) تحفة الودود في أحكام المولود (٢٣، ٢٤).

رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟»، قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مَنِي الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه وما لي علم به حتى أتاني الله به»[1].

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعاً، فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه فيلتقي الماءان على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له.

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال: بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن آنفاً جبريل»، فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها»، فقال: أشهد أنك رسول الله[2]، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: «نعم إذا رأت الماء الأصفر». فضحكت أم سلمة، فقالت: أوتحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: «فبم يشبهها الولد»[3]؟

فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين، وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره الآخر وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له، وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحي وليس في صناعتهم أيضاً ما ينافيها.

---

(١) صحيح مسلم (٣١٥). (٢) رواه البخاري (٣٩٣٨).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها (٣٣٢٨)، ومسلم (١٣١٣).

على أن في النفس من حديث ثوبان[1] ما فيها، وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي، وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام؛ ولذلك لم يخرجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر بن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة، فإذا أراد أن يخلقها قال: قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»[2]. أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل؟ أولا ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه أبلغ من الشبه، والله أعلم. وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق، وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث، والله أعلم[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين فهو روح تحيا به القلوب ونور تستضيء وتشرق به[4].

وقد اختُلف في الضمير في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ فقيل: يعود على الكتاب وقيل: على الإيمان. والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾.

---

(١) قال ابن القيم في الطرق الحكمية (٢٢٩): «وسمعت شيخنا رحمه الله يقول: في صحة هذا اللفظ نظر.
قلت: لأن المعروف المحفوظ في ذلك، إنما هو تأثير سبق الماء في الشبه، وهو الذي ذكره البخاري من حديث أنس..»اهـ.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦١٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢٧٨ ـ ٢٨٠).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٢١).

فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحاً ونوراً وهدى؛ ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة»، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أوليائهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات[1].



(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥).

سُوْرَةُ الزّخْرُفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٤].

قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقري عندنا.

قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ. وأم الكتاب: أصل الكتاب. وأم كل شيء: أصله، والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقول، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فتبّت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب.

وقوله: ﴿لَدَيۡنَا﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب، أي: أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس، ويجوز أن يكون من صلة الخبر أنه علي حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به، أي: وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ **[الزخرف: ٥].**

على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم[٢]؟!

* * *

---

(١) شفاء العليل (٤١، ٤٢).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٧، ١٨].

احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات وإذا بشر بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر فيه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتاً فكيف تجعلونها لي، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه له وأنه أنقص الجنسين؛ ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وأضعفهما بياناً، فقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. فأشار بنشأتهن في الحلية إلى أنهن ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وأنهن عييات فلا يبن عن حجتهن وقت الخصومة مع أن في قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ تعريضاً بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن، وتعريضاً بأنهن لا ينشأن في الحرب والطعان والشجاعة، فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز والوهن(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة: لا إله إلا الله وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره وهو كتابه الذي أنزله على رسوله فأعرض

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥). (٢) الجواب الكافي (٢٩٤، ٢٩٥).

عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه؛ قيض الله له شيطاناً عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في المسير، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير:

رضيعا لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددتني عن الحق وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم، ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية؛ أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩][١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

المراد بسؤالهم: سؤال أممهم عما جاؤوا به: هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إلٰه غيره؟

قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم.

وقال قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلاً من قبلك، وهم أهل الكتاب.

وعلى كل تقدير، فالمراد: التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات

---

(١) الجواب الكافي (١٣٦، ١٣٧).

والتوحيد، وأن الله أرسل رسلاً، أو أنزل كتباً، أو حرم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم. وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [**الزخرف**: ٨٧].

أي: فأين يصرفون عن شهادة لا إله إلا الله وعن عبادته وحده وهم يشهدون: أنه لا رب غيره ولا خالق سواه[2]؟

❀ ❀ ❀

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ١١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤١١).

سُورَةُ الدُّخَان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [الدخان: ١ ـ ٥].

وهذه هي ليلة القدر قطعاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط.

قال مجاهد: ليلة القدر ليلة الحكم.

قال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم.

قال ابن علية: حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر، في كل رمضان هي؟ قال: نعم ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها.

وذكر يوسف بن مهران عن ابن عباس، قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.

وعن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

* * *

---

(١) شفاء العليل (٢٢).

لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي: اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم، وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

والحق هو: الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله وهو أنواع كثيرة.

منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب ويعاقب، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً فيحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهينه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها وأنه وحده إلهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه فتشهد حكمته الباهرة.

---

(١) شفاء العليل (٣٢).

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ولا بد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً.

ومنها: أنه يحب أن يثني عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلٰهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق.

فخلق مخلوقاته؛ بسبب الحق؛ ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق وهو في نفسه حق، فمصدره حق وغايته حق وهو متضمن للحق.

وقد أثنى تعالى على عباده المؤمنين حيث نزّهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [صٓ: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول: إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة، ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة.

وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده، بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران لحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإن الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه، فإنهم أثبتوا خلقاً وأمراً لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة وينهى عما فيه مصلحة والجميع بالنسبة إليه سواء.

ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه وينهى عن جميع ما أمر به ولا فرق بين هذا وهذا؛ إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به، والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول، وإلا فهو جائز عليه وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه، ولا

ينزهونه عن هذا الظلم والجور ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته، وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات، والله ولي التوفيق[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٦].

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار وحسن اللباس، وكمال العشرة؛ لمقابلة بعضهم بعضاً، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً.

والحور: جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرف. وعين: حسان الأعين.

وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون.

وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين.

واختلف في اشتقاق هذه اللفظة، قال ابن عباس: الحور في كلام العرب البيض، وكذلك قال قتادة: الحور البيض، وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه.

وقال مجاهد: الحور العين التي يحار فيهن الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة وصفاء اللون.

وهذا من الاتفاق وليست اللفظة مشتقة من الحيرة.

وأصل الحور: البياض، والتحوير: التبييض.

والصحيح: أن الحور مأخوذ من الحَوَر في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين.

---

(١) شفاء العليل (١٩٨، ١٩٩).

وفي الصحاح: الحور شدة بياض العين في شدة سوادها. امرأة حوراء: بينة الحور.

وقال أبو عمر: الحور: أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر، وليس في بني آدم حور، وإنما قيل: النساء حور العين؛ لأنهن شبهن بالظباء والبقر.

وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين؟

قلت: خالف أبو عمرو أهل اللغة في اشتقاق اللفظة ورد الحور إلى السواد، والناس غيره إنما ردوه إلى البياض أو إلى بياض في سواد والحور في العين: معنى يلتئم من حسن البياض والسواد وتناسبهما واكتساب كل واحد منهما الحسن من الآخر، عين حوراء: إذا اشتد بياض أبيضها وسواد أسودها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينيها بياض لون الجسد.

والعين جمع عيناء وهي العظيمة العين من النساء، ورجل أعين إذا كان ضخم العين، وامرأة عيناء، والجمع عين، والصحيح أن العين اللائي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة.

قال مقاتل: العين حسان الأعين ومن محاسن المرأة اتساع عينها في طول، وضيق العين في المرأة من العيوب، وإنما يستحب الضيق منها في أربعة مواضع: فمها، وخرق أذنها، وأنفها، وما هنالك[(١)].

□ □ □

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، و(المقام): موضع الإقامة و(الأمين): الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي جمع صفات الأمن كلها فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون من الخروج والنغص والنكد (والبلد الأمين): الذي قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم.

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾. فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتاً[(٢)].

□ □ □

(١) حادي الأرواح (١٧٨).
(٢) حادي الأرواح (٨٩).

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

فهذا الاستثناء؛ هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جار في كل منقطع فتأمله، فإنه من أسرار العربية[1].

❀ ❀ ❀

(١) مدارج السالكين (١/ ٣١٩).

سُورَةُ الجَاثِيَة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].

قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

فالشريعة التي جعله ربه عليها تتضمن ما أمره به، ورضيه له، وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لا يعلمون، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به، ويتخذه ديناً، وينهى عما يبغضه ويذمه إلا بهدى من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله وأمره والمؤمنين باتباعها؛ ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء في الدين: من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء؛ فيذمونهم بذلك ويحذرون عنهم ولو ظهر عنهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥١).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

قال يونس بن عبد الأعلى: قلت للشافعي: تدري ما قال صاحبنا؟ ـ يريد الليث بن سعد ـ كان يقول: لو رأيته ـ يريد صاحب البدعة ـ يمشي على الماء لا تثق به ولا تعبأ ولا تكلمه. قال: قصّر والله، يريد أقبح من ذلك[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [**الجاثية**: ٢١].

فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حكم سيء، والحاكم به مسيء ظالم.

ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به، لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء، المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم. ولا كان هنا حكم سيء في نفسه ينكر على من حكم به[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [**الجاثية**: ٢٣].

قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه، وقال أيضاً: على علم قد سبق عنده، وقال أيضاً: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه.

وقال أبو إسحاق: أي: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين.

وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره، قال: وقيل: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج ابن الجوزي قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي[3].

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية؛ هذا أحدهما، قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه، قال: وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول: يكون على علم حال من الفاعل، المعنى: أضله الله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه.

---

(١) الكلام في مسألة السماع (٢٨١، ٢٨٢). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٤/ ١٥٩، ١٦٠).

وعلى الثاني: حال من المفعول، أي: أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول، فالمعنى: أضله الله عالماً به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليس أهلاً أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها.

فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال.

وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه، وإعطاء الخير من يستحقه، ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه، وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر، كما قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] [الأنعام: ١٢٥].

□ □ □

[وفي] قول آخر: إنه على علم الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر، فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة، لم يضله على جهل وعدم علم، وهذا يشبه قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، ونظائره كثيرة. وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده وهو يراها عياناً، كما في الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[2]. فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعاً لهواه عالماً بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

---

(١) شفاء العليل (٣٠).

(٢) ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٤): «رواه الطبراني في الصغير وفيه عثمان البري قال الفلاس: صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة، ضعفه أحمد والنسائي والدارقطني»، وضعفه الألباني كما في الضعيفة (٤/ ١٣٨) رقم (١٦٣٤). فانظره مفصلاً.

(٣) شفاء العليل (٣٩).

الغشاوة: هي غطاء العين، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه، وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديداً أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه، وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول، وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك الغشاوة غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم[2].

قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة، قال: والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يوماً بيوم.

وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه.

وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن الآية تعم الأمرين[3].

* * *

---

(١) شفاء العليل (٩٦).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٢).

(٣) طريق الهجرتين (٦٦).

سُوْرَةُ الأحْقَافِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني، قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك؛ ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: «كان رسول الله ﷺ موزعاً بالسواك»[(١)] . أي: مولعاً به، كأنه كف ومنع إلا منه.

وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعاً: كففته فاتزع عنه، أي: كف وأوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به، واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي: استلهمته فألهمني.

فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك واجعلني مغرى به وكفني عما سواه[(٢)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل إنه يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها في الدنيا[(٣)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

---

(١) في المطبوع «بالسؤال» والصحيح ما أثبته كما في الفائق للزمخشري (٤/ ٥٧).
«وقال: أي: مولعاً»، وكذا في النهاية لابن الأثير (٥/ ١٨١)، واللسان، مادة: «وزع»، ولم أستطع معرفة مخرجي الحديث، مع دلالة الأحاديث الصحيحة عليه.

(٢) شفاء العليل (٥٧).

(٣) طريق الهجرتين (٢٧٣).

أي: كل شيء يقبل التدمير ومن شأن الريح أن تدمره ونظائره كثيرة[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ **إلى قوله**: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [**الأحقاف**: ٢٩ ـ ٣٢].

فهذا يدل على تكليف الجن من وجوه متعددة:

أحدها: أن الله ﷻ صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

الثاني: أنهم ولوا إلى قومهم منذرين، والإنذار هو الإعلام للخوف بعد انعقاد أسبابه. فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم، وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

الرابع: أنهم قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

الخامس: أنهم قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، والذنب مخالفة الأمر.

السادس: أنهم قالوا: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

السابع: أنهم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن والآية لا تستلزمه[(٢)].

□ □ □

(١) زاد المعاد (٤/ ١٥).

(٢) طريق الهجرتين (٣٩٠، ٣٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وتعبيرهم عنه هاهنا بالطريق فيه نكتة بديعة وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره؛ فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ، في قوله لقومه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم وإنما بعثت مصدقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي إلى سبيل مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه، والله أعلم[١].

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦، ١٧).

سُورَةُ مُحَمَّد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

[يحتمل أن] تكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة، فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم.

ويحتمل أن يكون قوله: سيهديهم ويصلح بالهم إخباراً منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله قبل أنْ قتلوا، وأتى به بصيغة المستقبل إعلاماً منه بأنه يجدد له كل وقت نوعاً من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئاً بعد شيء.

فإن قلت فكيف يكون ذلك المستقبل خبراً عن الذين قتلوا؟

قلت: الخبر قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أنه لا يبطلها عليهم ولا يترهم إياها، هذا بعد أن قتلوا، ثم أخبر سبحانه خبراً مستأنفاً عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم لما علم أنهم سيقتلون في سبيله، وأنهم بذلوا أنفسهم له، فلهم جزءان: جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة فيرد السامع كل جملة إلى وقتها؛ لظهور المعنى وعدم التباسه، وهو في القرآن كثير، والله أعلم[1].

□ □ □

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم[2].

* * *

(١) شفاء العليل (١٦١).

(٢) حادي الأرواح (١٠٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله، وكذلك كل موضع أمر الله ـ سبحانه ـ فيه بالسير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما، وهو الصواب.

فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حلَّ بالمكذبين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال.

وقال مقاتل: يعني: الطبع على القلب، وكأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

[وذلك في حق المنافقين]

فالأول: فراسة النظر والعين، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾.

والثاني: فراسة الأذن والسمع، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية «رَحِمَهُ اللَّهُ» يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وهو تعريض الخطاب وفحوى الكلام ومغزاه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٣٢).

(٢) شفاء العليل (٩٥).

والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع.

وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]»[١][٢].

وظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدُوّاً خفياً يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفة في الوجه يراها أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وتفسير الإبطال هاهنا الردة؛ لأنها أعظم المبطلات؛ لا لأن المبطل ينحصر فيها[٤].

❁ ❁ ❁

(١) حديث ضعيف رواه الترمذي (٣١٢٧). (٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٣).
(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٧٢، ٣٧٣). (٤) مدارج السالكين (١/ ٢٧٨).

سُوْرَةُ الفَتْحِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢].

جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين.

والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

والثالث: هدايته الصراط المستقيم.

والرابع: إتمام نعمته عليه.

والخامس: إعطاء النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر: القدرة التامة على تنفيذ دينه.

فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد، وقهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيراً ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله.

كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. في موضعين في سورة [التوبة: ٣٣]، وفي سورة [الصف: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فهذا الهدى ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذا النصر.

فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤]. فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان، وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلاً منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل؛ ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقاناً، كما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين، ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة هذا هو معنى الآية، ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وإن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في [الأمالي المكية].

فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة[1].

□ □ □

قال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه، وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطاً مستقيماً في الدين، وإنما أراد صراطاً في الرأي والحرب والمكيدة، انتهى.

وقوله: إن المراد بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في الحرب والمكيدة؛ فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله، وأخبر النبي ﷺ: «أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها»[2]، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطاً مستقيماً».

وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٤، ١٥).
(٢) رواه مسلم (١٧٨٦).

﴿إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]. ونصب ديناً هنا على البدل من الجار والمجرور، أي: هداني ديناً قيماً، أَفَتَرَاهُ يمكنه هاهنا أن يقول: إن الحرب والمكيدة. فهذا جواب فاسد جداً(١).

□ □ □

قال عمر ـ حين نزلت ـ: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤](٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ **[الفتح: ١٨].**

علم الله ﷻ ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله وحبسوا الهدي عن محله واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت ولم تطق الصبر فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاً وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ **[الفتح: ٢٦].**

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل الله في قلوب أوليائه السكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور؛ فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٣، ١٤).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٠٨).

الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جنداً من جند الله أيد بها رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة: الطمأنينة للخير تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهة تعارض الخير، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد؛ ليقوى إيمانه؛ ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله(1).

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾

وكلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول: لا إلٰه إلا الله، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى، وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو الملزم وهم الملتزمون(2).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [**الفتح**: ٢٧].

بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون.

ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب لا ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت،

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥). (٢) شفاء العليل (٦٠).

وظهر لكل أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمداً وأصحابه أولي الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة؛ ولهذا سماه فتحاً، وسئل النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: «نعم»[(١)][(٢)].

□ □ □

وانظر قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، كيف جعل فعل الشرط ماضياً والجزاء مستقبلاً؛ لأن القصد كان إلى دخولهم المسجد الحرام، وعنايتهم كلها مصروفة، وهممهم معلقة به دون وقوع الأفعال بمشيئة الله تعالى، فإنهم لم يكونوا يشكون في ذلك ولا يرتابون، وأكد هذا المعنى تقديم الجزاء على الشرط، وهو إما نفس الجزاء على أصح القولين دليلاً كما تقدم تقريره، وإما دال على الجزاء وهو محذوف مقدر تأخيره، وعلى القولين؛ فتقدم الجزاء أو تقديم ما يدل عليه اعتناء بأمره وتجريداً للقصد إليه، ويدل عليه أيضاً تأكيده باللام المؤذنة بالقسم المضمر، كأنه قيل: والله لتدخلن المسجد الحرام فهذا كله يدلك على أنه هو المقصود المعني به[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذا شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبيَّن صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهداً لرسوله، معلوم بسائر أنواع الأدلة، عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥). (٢) شفاء العليل (٣٤).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٠٦، ١٠٧). (٤) مدارج السالكين (٣/ ٤٧٠).

فهرس الموضوعات

﴿ سورة يونس ﴾

﴿ سورة هود ﴾

الموضوع	الصفحة

۞ سورة يوسف ۞

۞ سورة الرعد ۞

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

سورة الكهف

الموضوع	الصفحة

سورة الأنبياء

سورة الحج

الموضوع | الصفحة

۞ سورة الفرقان ۞

الموضوع	الصفحة

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

الموضوع | الصفحة

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

الموضوع | الصفحة

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة يس

۞ سورة الزمر ۞

۞ سورة غافر ۞

الموضوع	الصفحة

❁ سورة محمد ﷺ ❁

❁ سورة الفتح ❁